

علم اللغة العربية

(١)

أَسْسُ عِلْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

تأليف

الدكتور

محمد زهير عجمي

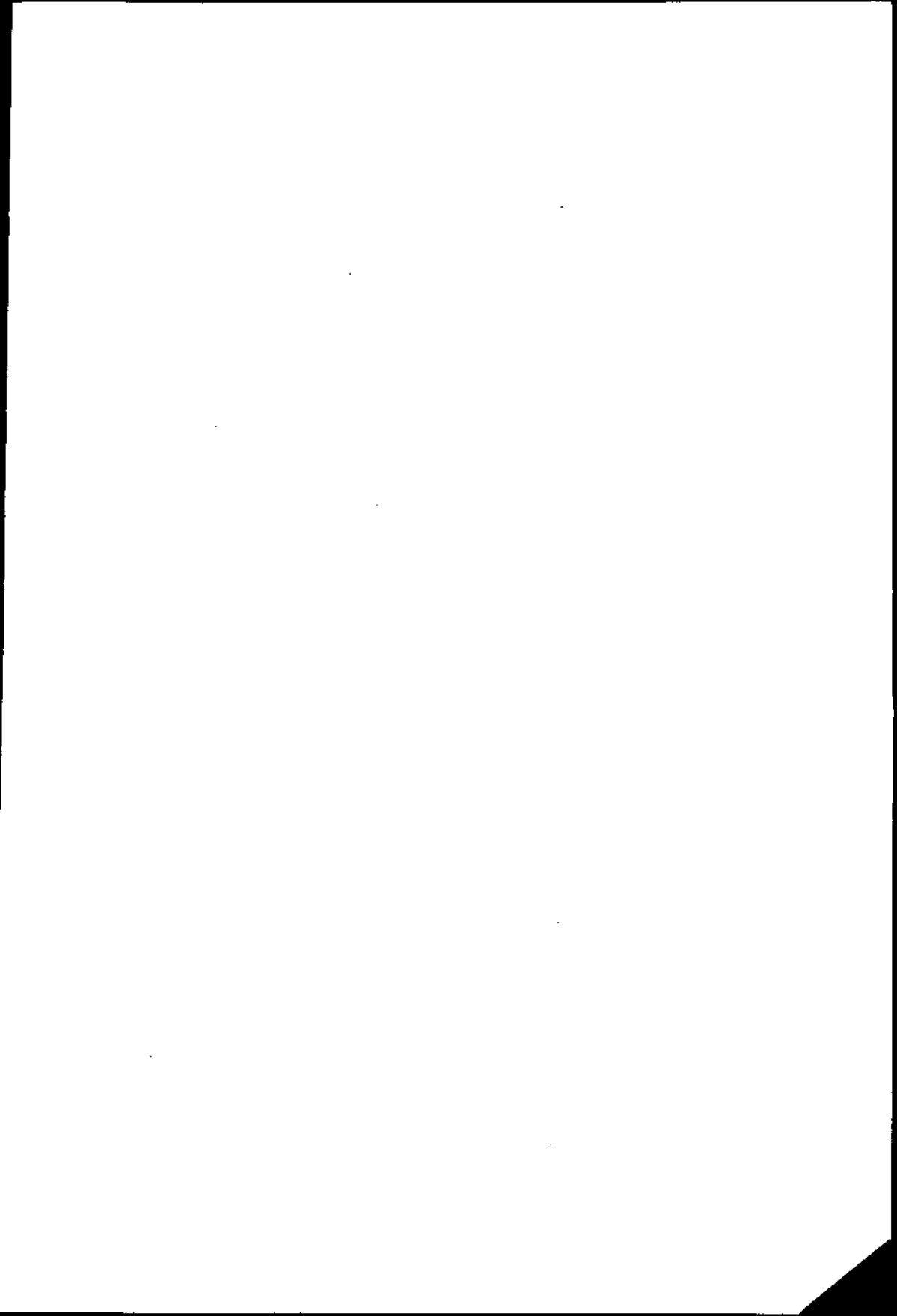
٢٠٠٣

دار الثقافة للطباعة والنشر

بالقاهرة

٢١ شارع كامل صحنى بالنفجالة

ت: ٩١٦٠٧٦ - القاهرة



الفهرست

الصفحة	
•	مقدمة
٢٩-٧	الفصل الاول : اللغة والحياة اللغوية
٨	طبيعة اللغة
٩	اللغة والكتابة
١٠	النظام اللغوي
	الرموز اللغوية والدلالة
١٥	وظيفة اللغة
• ١٦	الفصحى واللهجات
١٨	أشكال التنوع اللغوي
٢٠	لغات التعامل واللغات الدولية
٢٢	مستويات الاستخدام اللغوي
٢٤	مستويات الاستخدام اللغوي والقوانين الصوتية
٢٦	اللغة والكلام
٢٨	المؤثرات العامة في الحياة اللغوية
٥٨-٣٠	الفصل الثاني : علم اللغة الحديث
٣٠	علم اللغة وعلم النصوص القديمة
٢٤	علم اللغة المقارن

٣٧	علم اللغة الوصفي
٤٠	علم اللغة التقابلي
٤١	علم اللغة والبحث النحوي
٤٣	علم اللغة العام
٤٤	قضايا البحث في علم اللغة
٤٧	التسميات المختلفة لعلم اللغة
	(فقه اللغة — علم اللغة — علم اللسان —
	اللسانيات — الألفية — اللسانيات —
	النحو المقارن — اللغويات)
٤٨	علم اللغة وعلم النفس
٥١	علم اللغة والعلوم الاجتماعية
٥٢	علم اللغة وتعليم اللغات
٥٨	علم اللغة بين العلوم
٧٣ — ٥٩	الفصل الثالث : علوم اللغة في التراث العربي
٥٩	النحو وعلم العربية
٦٦	اللغة وعلم اللغة وفقه اللغة
٦٩	علم اللسان وعلوم الأدب والعلوم العربية
٨٤ — ٧٤	الفصل الرابع : كتب طبقات النحويين واللغويين
٧٤	كتب الطبقات
٧٦	كتاب الفهرست
٧٧	كتب التراجم
٨٢	المراجع العامة الحديثة في التراث

٨٥ - ٩٦

الفصل الخامس : المكتبة النحوية

٨٦

كتاب سيبويه والنحاة البصريون

٨٨

النحاة الكوفيون في القرنين الثاني والثالث

٩٠

نحاة القرن الرابع

٩٣

الكتب النحوية التعليمية والمنظومات

٩٤

الموسوعات النحوية والشروح

٩٧ - ١١٩

الفصل السادس : المكتبة اللغوية

٩٧

جمع اللغة وتأليف المعاجم

١٠١

معاجم الترتيب الصوتي

١٠٥

معاجم الترتيب الهجائي

١٠٨

مصادر المعاجم الموسوعية العامة

١١١

المعاجم الدلالية الخاصة ذات الترتيب الهجائي

١١٥

المعاجم الموضوعية

١١٦

كتب الألفية الصرفية

١١٧

كتب التثقيف اللغوي ولحن العامة

١١٩

كتب الموضوعات الصوتية

١٢٠ - ١٣٢

الفصل السابع : المنهج المقارن وتصنيف اللغات

١٢٠

تصنيف اللغات

١٢٣

العرب واللغات الأجنبية

١٢٦

الأوروبيون والمقارنات

١٢٨

نشوء علم اللغة المقارن

الصفحة	
١٣٢ - ١٤٠	الفصل الثامن : اللغات السامية بين اللغات الافروآسيوية
١٣٣	١ - اللغات الافروآسيوية
١٣٤	٢ - اللغات السامية
١٣٦	٣ - اللغات السامية واللغة المصرية القديمة
١٣٨	٤ - اللغات السامية واللغة الليبية القديمة
١٤١ - ١٥٣	الفصل التاسع : الخصائص المشتركة بين اللغات السامية
١٤١	١ - الاصوات
١٤٤	٢ - بناء الكلمة
١٤٩	٣ - بناء الجملة
١٥٠	٤ - الالفاظ الأساسية
١٥٤ - ١٩٧	الفصل العاشر : الخصائص المشتركة بين اللغات السامية
١٥٤	١ - الفرع الاكادي
١٦٠	٢ - الفرع الكنعاني
١٦١	الاجريانية
١٦٤	الفينيقية
١٦٨	اللهجات الكنعانية الجنوبية
١٦٨	العبرية
١٧٦	٣ - الفرع الآرامي
١٧٧	الآرامية القديمة
١٨٠	السريانية
١٨٤	اللهجات الآرامية اليهودية

الصفحة	
١٨٦	النبطية
١٨٨	٤ - العربية الجنوبية
١٩٢	٥ - اللغات السامية في الحيشة
١٩٨ - ٢١٩	الفصل الحادى عشر : العربية فى ضوء اللغات السامية
١٩٩	١ - الخطوط السامية والواقع الصوتى
٢٠٢	٢ - القوائين الصوتية
٢٠٢	الثاء العربية ومقابلاتها فى اللغات السامية
٢٠٣	الضاد العربية ومقابلاتها فى اللغات السامية
٢٠٤	٣ - أصوات عربية تختلف عن السامية الأولى
٢٠٥	السين والشين العربيتان وأصولهما السامية
٢٠٧	٤ - الضمائر
٢٠٩	٥ - الأسماء التناثية
٢١٢	٦ - الأفعال
٢١٣	٧ - تحديد الجذور فى ضوء المقارنات
٢١٤	٨ - الألفاظ المشتركة
٢١٥	٩ - الدخيل فى ضوء القوائين الصوتية
٢١٧	١٠ - المقارنات اللغوية وتاريخ الألفاظ
٢٢٠ - ٢٤١	الفصل الثانى عشر : العربية فى جزيرة العرب
٢٢٠	النقوش العربية القديمة
٢٢١	النقوش النجدية
٢٢٢	النقوش الصقوية
٢٢٣	النقوش اللحيانية

الصفحة	
٢٢٤	الخط
٢٢٥	اللغة
٢٢٧	اللهجات العربية واللغة الفصحى
٢٢٨	الهمز بين التحقيق والتخفيف
٢٢٩	الامالة
٢٣٢	الاتباع = التوافق الحركي
٢٣٥	مطابقة الفعل والفاعل
٢٣٦	ما الحجازية
٢٣٧	قضية الاستخدام اللغوي للفصحى واللهجات
٢٧٤ - ٢٤٢	الفصل الثالث عشر : العربية في المشرق الآسيوي
٢٤٢	١ - موجات التعريب في المشرق
٢٤٥	٢ - العربية في العصر الاموي
٢٤٨	٣ - الجاحظ وملاحظاته اللغوية
٢٥٤	٤ - العربية بين البداوة والحضارة
٢٦١	٥ - العربية في القرن الرابع
٢٦٤	٦ - الهمداني والحياة اللغوية في القرن الرابع الهجري
٢٦٧	٧ - المقدسي والحياة اللغوية في القرن الرابع الهجري
٢٧١	٨ - العلاقات اللغوية في القرن الخامس إلى بجزر العصر الحديث
٣٠٣ - ٢٧٥ ص	الفصل الرابع عشر : العربية في القارة الافريقية
٢٧٥	١ - تعريب مصر والنوبة والسودان
٢٨٤	٢ - المغرب وتعريف البربر
٢٩٢	٣ - العربية جنوب دول المغرب

الصفحة	
٢٩٩	٤ - العربية لغة الدين والثقافة الإسلامية
٣٠٤ - ٣٢١	الفصل الخامس عشر : اتجاهات التغير في البنية والمعجم
٣٠٤	١ - التغير في البنية
٣١١	تراكيب نحوية جديدة
٣١٤	٢ - نحو المفردات في العربية
٣٢٢	الفهرست

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

م ١٩٧٩/١٥٥٣

لترقيم الحولى

٨ - ٨٤ - ٧٢٥٧ - ٩٧٧

مقدمة

هذا الكتاب محاولة لتقديم الاسس العامة للبحث التاريخي والمقارن في اللغة العربية . ويقوم هذا الكتاب على النظرية العامة لعلم اللغة الحديث من جانب ، وعلى الاهتمام بالتراث اللغوي العربي من الجانب الآخر .

فإذا كان علم اللغة الحديث قد حقق بتأججه الدقيقة تقدماً ملحوظاً في مجالاته المختلفة ، فإن الافادة من وضوح الرؤية ودقة المناهج التي طورها علم اللغة في القرنين التاسع عشر والعشرين قد أصبحت ضرورة علمية . لقد شغل عدد من الباحثين بدراسة النحو المقارن للغات السامية ، وأتاح هذا المنهج رؤية جديدة للعربية في ضوء اللغات السامية . واهتم كثير من الباحثين في اللغات المختلفة بقضية التأريخ اللغوي ، وما يزال البحث في اللغة العربية بحاجة إلى جهود كثيرة تفيد من كل المصادر المتاحة لإيضاح الجوانب المختلفة من تاريخ اللغة العربية .

وهدف هذا الكتاب أن يقدم للدارسين والطلاب في صورة مركزة الملامح العامة والمعلومات الأساسية للبحث العلمي في اللغة العربية في ضوء النظرية الحديثة لعلم اللغة العام وعلم اللغات السامية المقارن والتراث العربي . وآمل أن يحقق هذا الكتاب ما يشده القارىء من وضوح موضوعي ورؤية علمية .

محمد فهمي حجازي

الفصل الأول

اللغة والحياة اللغوية

هناك تعريفات كثيرة للغة عرفتها الدوائر العلمية المختلفة في شتى الحضارات .
ويعد تعريف اللغة عند ابن جنى (المتوفى ٣٩١ هـ) من التعريفات الدقيقة إلى حد
بعيد . قال ابن جنى : « حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » (١) .
وهذا تعريف دقيق يذكر كثيراً من الجوانب المميزة للغة . أكد ابن جنى أولاً
الطبيعة الصوتية للغة ، كما ذكر وظيفتها الاجتماعية في التعبير ونقل الفكر ، وذكر
أيضاً أنها تستخدم في مجتمع فلكل قوم لغتهم . ويقول الباحثون المحدثون
بتعريفات مختلفة للغة (٢) ، وتؤكد كل هذه التعريفات الحديثة الطبيعة الصوتية

(١) الخصائص لابن جنى ٣٣/١ ، وتعريف ابن خلدون : « اللغة في المتعارف
هي عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لسان ناشئة عن القصد لافادة
الكلام فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان ، وهو في
كل أمة بحسب اصطلاحاتهم (المقدمة ١٢٥٤) « اللغة ملكة في اللسان وكذا الخط
صناعة ملكتها في اليد » (المقدمة ١٢٥٢) .

(٢) انظر : L. Bloomfield, A set of postulates for the science of
Language, in : Psycholinguistics ed. by Sol Saperta, P. 26-28.
B. Bloch and G.L, Trager, Outline of Linguistic Analysis, pp.5-7.
Carroll, The Study of Language, p. 10.

لغة ، والوظيفة الاجتماعية للغة ، وتنوع البنية اللغوية من مجتمع انساني لآخر .

١ - طبيعة اللغة :

اللغة أولا وقبل كل شيء نظام من الرموز الصوتية ، وتكمن قيمة أي رمز في الاتفاق عليه بين الاطراف التي تتعامل به ، وقيمة الرمز اللغوي تقوم على علاقة بين متحدث أو كاتب هو المؤثر وبين مخاطب أو قارئ هو المتلقي . واللغة وسيلة التعامل ونقل الفكر بين المؤثر والمتلقي . وصدور هذه الرموز الصوتية اللغوية لاداء معان محددة متميزة يمتثلها المتحدث ويفهمها المتلقي - معناه اتفاق الطرفين على استخدام هذه الرموز للتعبير عن الدلالات المقصودة . وبهذا يكون هناك ارتباط غير مباشر بين الجهاز العصبي للمتكلم والجهاز العصبي للمخاطب وما للغة إلا وسيلة الربط بينهما وأداة التعبير . فكل موقف كلامي يشترط وجود متحدث ومتلقي . وتم عملية الكلام بأن يصدر الجهاز العصبي عند المتحدث أوامره إلى الجهاز اللطقي عنده ، فتصدر اللغة وتمضى على شكل موجات صوتية في الهواء فيتلقاها المتلقي بجهازه السمعي ، ثم تنتقل بعد ذلك إلى جهازه العصبي فتترجم هذه الرموز الصوتية اللغوية إلى معانيها المرتبطة بها . واللغة وسيلة التعامل الاجتماعي الأولى في المجتمع الانساني ، أما وسائل الاتصال الأخرى مثل الاشارات الصوتية أو أعلام الكشافة فليست إلا محاولة بديلة للنظام اللغوي ، وهي تقوم أساساً على النظام اللغوي ولذا ليس لها بدونه وجود .

وقد عرف كارول اللغة على النحو التالي : آية لغة من اللغات هي نظام نبوي Structural System من الاصوات العرفية المنطوقة arbitrary vocal sounds ومن الاصوات sequences of sounds التي تستخدم أو التي يمكن أن تستخدم في التعامل بين الافراد interpersonal communication عند مجموعة من البشر ، ويصنف الأشياء والاحداث والعمليات التي تتم في البيئة الإنسانية .

اللغة والكتابة :

الرموز اللغوية Linguistic symbols رموز صوتية، ومعنى هذا أن طبيعة اللغة تتخذ في المقام الأول صورة صوتية منطوقة مسموعة . فالكتابة في أحسن أحوالها محاولة للتعبير عن اللغة في واقعها الصوتي ، وهذه المحاولة دقيقة أحيانا وغير دقيقة في أكثر الأحيان . والكتابة محاولة لنقل الظاهرة الصوتية السمعية إلى ظاهرة كتابية مرئية ، فاللغة تسمع بالأذن والكتابة ترى بالعين . الكتابة محاولة لترجمة الظاهرة الصوتية السمعية إلى ظاهرة كتابية مرئية ؛ والكتابة محاولة لنقل اللغة من بعدد الزمنى إلى البعد المكاني، فالظواهر الصوتية تتتابع في الزمن والحروف المكتوبة تتتابع في المكان . وإذا كانت اللغة في المقام الأول ظاهرة صوتية فن الطبيعي أن يقوم البحث اللغوي بدراسة اللغة في صورتها الصوتية .

وعلينا أن نميز دائما بين الطبيعة الصوتية للغة وكمية تدوين هذه اللغة ، فالخط العربي شيء واللغة العربية شيء آخر . الخط العربي ذو إمكانيات معينة يحاول بها التعبير عن الواقع الصوتي . ويدون الخط العربي الأصوات الصامتة مثل الباء والسين والصاد . . . إلخ والحركات الطويلة وهي: الضمة الطويلة والفتحة الطويلة والكسرة الطويلة بحروف الكتابة العربية . الخط يتعامل بالحروف ، وعلم اللغة يتعامل بالأصوات . يحاول الخط العربي بشكل ما تدوين أصوات اللغة العربية إلا أن الحركات القصيرة وهي الضمة والفتحة والكسرة ليست لها حروف في الخط العربي ، ولذا فكتابتها أمر اختياري . ولكن الحركات القصيرة - شأنها شأن الحركات الطويلة والصوامت - عناصر أساسية في تكوين النظام اللغوي للعربية وكل اللغات . يؤدي تغيير الحركات إلى تغيير المعنى فالفرق بين «ضرب» المبنى للمعلوم و«ضرب» المبنى للجهول فرق في الحركات أدى إلى تحول في الصيغة وتغيير في المعنى .

وثمة فرق أساسي بين مجموع الحروف ومجموع الأصوات في أنماط كثيرة من الكلمات العربية فالقمل الماضي : كتبوا ، سافروا . . الخ ينتهي بألف ليست لها أية

دلالة صوتية . وعلى العكس من هذه الظاهرة نجد الحروف التي تكتب بها كلمات كثيرة أقل عدداً من الأصوات المسكونة لها ، وبعض الحركات الطويلة لا تكتب في بعض الكلمات ، مثل : هذا ، هذه . . . إلخ . وثمة فرق آخر بين الحروف والأصوات ، ويتضح هذا الفرق بأن نلاحظ أن حرف الواو في الخط العربي يرمز إلى ظاهرتين صوتيتين مختلفتين في اللغة العربية ، فالواو ترمز في تدوين الكلمات : ورد ، ولد ، إلى صوت صامت في العربية ، بينما ترمز الواو نفسها في تدوين الكلمات خلود ، سرور ، شهود إلى حركة طويلة في اللغة العربية . وكذلك حرف الياء في الخط العربي ، فهو يرمز تارة إلى صوت صامت في الكلمات : يكتب ، يلعب ، وتارة أخرى إلى حركة طويلة في الكلمات : في ، لي . ولهذا كله لا يجوز في بحث اللغة العربية — أو أية لغة أخرى — أن تتعامل بالحروف المسكونة ، بل علينا أن ندرس الأصوات اللغوية المسكونة لهذه اللغة ، محاولين في كل حالة أن تبين الواقع الصوتي للغة من مراعين مدى الاختلاف بين اللغة باعتبارها ظاهرة صوتية وكيفية تدوينها بالحروف .

النظام اللغوي

الرموز الصوتية — التي يتعامل بها أبناء الجماعة اللغوية الواحدة محدودة ، فأكثر اللغات تتعامل كل منها بحوالي ثلاثين رمزاً صوتياً ، وتتعامل كل اللغات الإنسانية مجتمعة بما لا يزيد عن خمسين رمزاً صوتياً لسلك لغة منها نصيب . ولكن هذه الرموز المحدودة تعبر في كل لغة من هذه اللغات الكثيرة عن أكثر ما يريد الإنسان التعبير عنه في كل مجالات الحياة والفكر . إنها ثلاثون رمزاً تقريباً في كل لغة من اللغات تكون آلاف الكلمات ثم ملايين الجمل لنقل ملايين الملايين من المعاني وظلال المعاني . وتكون هذه الرموز الصوتية المحدودة بنية اللغة باتخاذها عدة أنساق محددة ، فالكلمات ، دكان ، ود كتاب ، تتكونان من نفس الصوامت ونفس

الحركات ، الصوامت هنا :الكاف والتاء والباء ، والحركات هي : الكسرة والفتحة وحركة الأعراب . غير أن هذه الحركات تتخذ في السكلتين السابقتين تسقيين مختلفين . واستخدام الرموز الصوتية المحدودة في كل لغة من لغات الأرض في أنساق مختلفة أتاح لها أن تكون آلاف الكلمات . وتتخذ الأجزاء المختلفة في النظام اللغوي في كل حالة على حدة ترتيباً محددأ ، فلكل رمز صوتي وظيفته في الكلمة ، ولكل كلمة وظيفتها في العبارة أو الجملة . وينبغي الالتزام بالنسق المتفق عليه في البيئة اللغوية الواحدة ، وإلا فقد الرمز قدرته على النقل والإيحاء . وهذا النسق اللغوي يتضمن ترتيب الأصوات داخل الكلمة وترتيب الكلمات داخل الجملة . وهنا تكون مهمة الباحث في اللغة أن يتبين طبيعة هذه الرموز الصوتية والأنساق المختلفة التي يتخذها لتسكون الكلمات ثم عليه أن يتبين أيضاً الأنماط المختلفة لترتيب هذه الكلمات لتسكون الجمل المختلفة .

اللغة ظاهرة غير مادية ، شأنها في هذا شأن العرف والمادات . وهناك فرق أساسي بين بحث الظواهر المادية في مجتمع ما وبحث الظواهر غير المادية في نفس المجتمع . ويمكن استيعاب الظواهر المادية مثل أشكال السكن والملابس وأدوات العمل بوصف هذه الأشياء . وصفا مباشراً . ولكن دارس الظواهر غير المادية يواجه مجموع العناصر غير المرئية وقد تداخلت جزئياتها تداخلاً كاملاً وهذا شأن عالم اللغة في بحثه لغة وعالم الاجتماع في بحثه للعرف مثلاً . كلاهما مطالب بملاحظة آلاف الجزئيات المكونة للنظام اللغوي أو للنظام العرفي وأن يتبين هذه الجزئيات ، وأن يصنفها تصنيفاً واضحاً ، وأن ييلور العلاقات الكامنة بين هذه الجزئيات المتكاملة . فالباحث في اللغة يلاحظ ، ثم يسجل ، ثم يصنف ، ثم ييلور ليكشف بنية اللغة ، التي يدرسها .

الرموز اللغوية والدلالة

تكتسب الرموز اللغوية قدرتها الإيحائية عن طريق الاستخدام ، والكلمة

أقل عناصر اللغة ذات الدلالة ، وليس هناك معنى محدد لصوت السين أو صوت الصاد لآى صوت آخر . وعندما يسمع الإنسان لغة أجنبية لا يعرفها فإنه لا يستطيع — أول الأمر — أن يميز الكلمات المختلفة التي يسمعها ، فهو يسمع اللغة مجرد جرس صوتي غير متميز الملامح ، ثم يأخذ الطفل في تمييز الرموز الصوتية التي يسمعها شيئاً فشيئاً ، وما إن يكتمل تمييز الطفل بين هذه الأصوات وتكتمل قدرته على محاكاتها حتى يكون الطفل قد اكتسب الأساس الصوتي للغة الأم . وترتبط هذه المرحلة بملاحظات استخدام كل كلمة وكل عبارة سمعها الطفل ، فهو لا يسمع الأصوات المكونة للكلمات والعبارات مجردة عن سياقها، بل يسمع عبارات معينة في مناسبات محددة ، وبذلك ترتبط كل كلمة وكل عبارة في عقل مكتسب اللغة أو مستخدمها بمواقف خاصة وظروف معينة . وما المعنى إلا حصيلة المواقف التي استخدم فيها الرمز اللغوي . ولذا فالوسيلة العلمية لمعرفة دلالة كلمة من الكلمات أو عبارة من العبارات تلخص في بحث الظروف والملاحظات التي استخدمت فيها الكلمة فاكنتسبت معناها وقدرتها الإيحائية . وليست هناك أية علاقة طبيعية بين الرمز اللغوي ومدلوله في الواقع الخارجى ، والعلاقة الوحيدة القائمة بين الرمز الصوتي اللغوي وما يدل عليه هي علاقة الرمز ، فالكلمة ترمز إلى شىء مادي أو معنوي وعلى هذا فلا علاقة طبيعية تربط الأصوات المكونة للكلمة المنضدة في العربية أو كلمة Tisch في الألمانية وبين المنضدة كواقع مادي . والمنضدة في اللغة العربية كلمة مؤنثة ، لا لأن هناك تأنيثاً في خشب المنضدة ولكن لأنها تنتهى بتاء ، والتاء في العربية علامة تأنيث ، فالتأنيث هنا ليس للمنضدة كواقع مادي ملموس بل للكلمة منضدة في اللغة العربية . ويقابل هذه الكلمة بالألمانية كلمة der Tisch وهذه الكلمة الألمانية تصنف من المذكور . ولذا فتصنيف الكلمات في اللغة الواحدة يكون نظاماً لغوياً مستقلاً عن مدلولات هذه الأشياء في الواقع الخارجى ، وكل ما يربط الكلمة بمدلولها هو

علاقة الرمز . ويصدق هذا على كل ظواهر وكلمات اللغة الإنسانية ، فاللغة لها نظامها الداخلي . وليس هذا النظام انعكاساً مباشراً للواقع الخارجي بل هو رؤية له بطريقة ما . وتصدق علاقة الرمز على كل الألفاظ في كل اللغات ، فليست هناك علاقة طبيعية بين بعض الألفاظ ومدلولاتها في الواقع الخارجي .

وقد توهم البعض في عدد من الكلمات مثل : خرير ، صهيل ، هديل محاكاة للطبيعة . وأطلق ابن جني^(١) على هذه الكلمات اسم الأصوات المسموعات ويطلق على هذه الكلمات في الإنجليزية Onomatopoeic Words ولكن هذه الكلمات لا تختلف في شيء عن باقي كلمات اللغة من الناحية الدلالية ، إذ أنها لم تتكسب قيمتها الرمزية إلا في بيئة لغوية محددة ، فليست دلالات هذه الكلمات طبيعية مشتركة في كل اللغات ، بل كل منها ذات إيحاء محدد في مجتمع لغوي بعينه دون غيره فكلمة « خرير » تؤدي معناها في البيئة اللغوية العربية وتوحى فيها بصوت الماء المتدفق المتلاطم ، ولكن هذه الكلمة ليست لها أية دلالة أو معنى أوفدرة إيحائية خارج البيئة اللغوية العربية . وربما توهم البعض وجود علاقة طبيعية بين معنى الإيحاء والموافقة وكلمة « أيوه » في اللهجة العربية القاهرية ، والواقع أن هذه الكلمة لا توحى

(١) عد ابن جني على هذه الكلمات — أصل اللغة (الظر : الخصائص ١/٤٠) أما الاصطلاح الأوربي فيرجع إلى كلمة onoma (وتعني في اليونانية اسم) + كلمة poesis (وتعني في اليونانية : حدث) وليس هناك شك في إيحاء هذه الكلمات ، ولكن هذا الإيحاء نشأ عن الكلمة ولم تنشأ الكلمة من الصوت الموجود في الطبيعة فصوت الكلب يطلق عليه في الإنجليزية (أمريكا) bowwow وفي فرنسا gnaf-gnaf وفي اليابان wam-wam ولا يمكن أن تكون كل هذه الكلمات معبرة عن الصوت الحقيقي لتباح الكلب ، ومن ثم لا علاقة بين أية كلمة منها وبين صوت الكلب وعلى الرغم من هذا فهي في المثال السابق تشترك في كونها من مقطع متكرر .

بهذا المعنى إلا في مجتمع يفهم اللهجة القاهرية ، ولو قيلت وحدها لمخاطب أمريكي لفهم منها اسم ولاية أمريكية ، ولو نطقت أمام ألماني لما فهم منها أى شىء على الإطلاق . وكل هذا يدل على ارتباط دلالة هذه الكلمة وغيرها من الكلمات بالاستخدام اللغوى في بيئة لغوية محددة ، وليست هناك علاقة طبيعية بين الصوت اللغوى أو الكلمة ودلالاتها . فالمعنى هو حصيلة استخدام الكلمة في البيئة اللغوية الواحدة .

وهناك تصور سائد في بعض البيئات المتحضرة وفي كل البيئات الأقل تحضراً تجاه بعض الكلمات ، فنطق كلمة بمينها عندهم يعنى استحضار الشىء ، وكأن الكلمة والشىء الذى تدل عليه يكونان وحدة طبيعية واحدة . ويؤدى هذا التصور إلى تجنب ذكر أسماء الأمراض وأسماء الوحوش حتى لا تحل بالمسكان الذى نطقت فيه أسماؤها . ولذا تنوعت تسميات الحيوان المخيف في الجماعة اللغوية الواحدة وقد تجنببت جماعات لغوية في شمال أوروبا ذكر اسم الدب صراحة فكانوا يرمزون له بتسميات أخرى مجازية حتى لا يحضر (1) ، كما حاول العرب تجنب حضور الاسد

(1) يطلق على هذه الظاهرة *taboo Influence* وأشهر أمثلتها في اللغات الأوروبية اختفاء للكلمة القديمة للدب من لغات شمال أوروبا بينما احتفظت بها السنسكريتية واليونانية ، وقد حلت محل هذه الكلمات صفات للدب تحولت بعد ذلك إلى أسماء له ، النظر :

S. Ullmann, Principles of Semantics, p. 184.

W. Havers, Neueré Literature zum Sprachtabu (Akademie Der Wissenschaften in Wiewa, Phil-Hist. Kl. Sitzungsberichte. 223, 5 1946) .

N.B. Emenau, Taboos on Animal Names (Language XXIV 1948 56-63)

بأن أطلقوا عليه تسميات مجازية أخرى كثيرة حتى لا يحل بالمكان . ورغم وجود أمثلة كثيرة لذلك في نباتات حضارية مختلفة فواقع اللغة يثبت أنه لا علاقة بين الرمز اللغوي وما يشير إليه في عالم الواقع إلا علاقة الرمز . وكل الرموز اللغوية سواء في ذلك .

١ - وظيفة اللغة

يرتبط الرمز اللغوي ببيئة محددة يطلق عليها الجماعة اللغوية Linguistic Community فمتداً يسمع إنسان لغة أجنبية لا يعرفها يسمها أصواتاً غير متميزة، وليس لها تصنيف واضح عنده وليست لها دلالة رمزية ، إنه يسمع سلسلة صوتية ليست لها وحدات متميزة . ولكن ابن اللغة أو العارف بها لا يسمع هذه السلسلة الصوتية بحسب ، بل يميز مكوناتها ويفهم محتواها الدلالي .

ومن الممكن بحث الأصوات المنطوقة من ناحية الخصائص الفيزيائية . فالإدانة الصوتية موضوع من موضوعات التحليل في الفيزياء ، ويكشف التحليل الفيزيائي للصوت عن جوانب كثيرة من خصائصه الطبيعية، مما يفيد أيضاً من الناحية التطبيقية في تصميم أجهزة التليفونات وأجهزة الإرسال والاستقبال اللاسلكي وتصميم المباني التي يتردد فيها الصوت . الخ .. ولكن البحث اللغوي لا يبحث الخصائص الفيزيائية باعتبارها هدفاً في ذاتها، بل يبحث المادة الصوتية باعتبارها وسيلة لتوصيل المعلومات ولذا لا يراها مجرد حشد صوتي كما تبدو الأجنبي وكما يسجلها الجهاز الأصم بل يرى فيها نظاماً محدداً من الرموز المتميزة التي تحمل معنى :

تختلف الخصائص الفيزيائية للصوت باختلاف الأفراد والمواقف الكلامية داخل الجماعة اللغوية الواحدة ، فلكل فعل كلامي خصوصيته . وتختلف الخصائص النطقية والفيزيائية للعبارة الواحدة باختلاف الأفراد ، وقد يختلف نطق الإنسان الواحد لنفس العبارة باختلاف أحواله النفسية ويتغير نطقه بتقدم العمر . ومع هذا

فالجماعة اللغوية هي الجماعة التي تتشابه فيها مجموع العبارات التي يتعامل بها أبنائها ، على نحو يمكنهم من الفهم المتبادل mutual intelligibility ومجموع العبارات المستعملة في الجماعة اللغوية يصدر عن بنية لغوية واحدة تربط كل أفراد الجماعة . وتتحدد الجماعة اللغوية باعتبار تشابه مجموع العبارات التي يتعامل بها أفرادها ، فتعاملهم بها هو الذي جعل منهم جماعة لغوية واحدة (١) .

الفصحى والمهجات :

يوجد في أكثر الجماعات اللغوية في العالم أكثر من مستوى لغوي واحد يشارك الفرد في كل مستوى منها وفق المواقف الكلامية التي يعيشها ، فالمواقف الكلامية في مجال الحياة اليومية تختلف عنها في المجالات الثقافية أو مجالات السياسة . قد يكون هذا الاختلاف في إطار اللغة الواحدة كما هي حال المثقفين من أبناء اللغة الألمانية أو الفرنسية أو الإنجليزية في تعاملهم بلغاتهم . وقد يكون الاختلاف أكثر من ذلك

(١) إن الفهم المتبادل بين شخصين يتحدثان معاً ليس بالضرورة دليلاً على كونهما يتحدثان نفس اللغة ، ولا بد أن يكون إثبات أنهما يتحدثان نفس اللغة قائماً على أساس تشابه مكونات أقوالهما بدرجة عالية ، أي أن يكون كلاهما يتعامل بنفس النظام اللغوي . انظر :

Carroll, The Study of Language, p. 8.

يعبر بلومفيلد عن رأيه في ذلك على النحو التالي :

كل فعل كلامي act of speech ينتج قولاً Utterance ، والجماعة التي تتشابه فيها مجموع الأقوال التي يتعامل أبنائها ، ومجموع الأقوال المستعملة في الجماعة اللغوية (= الكلامية) الواحدة هي لغة هذه الجماعة . والسمات النطقية المشتركة في اللغة الواحدة هي الصيغ Forms أما المعاني Meanings فهي المحتوى الدلالي للفعل الكلامي . (انظر : المرجع السابق) .

— فى إطار اللغة الواحدة — عندما تستخدم اللهجة العامية والفصحى جنباً إلى جنب . وتوجد أشكال مختلفة من الأزواج اللغوية (١) ، ويحدد الاستخدام اللغوى الوظيفة التى يقوم بها كل مستوى لغوى . وليست هناك سمات فى البنية اللغوية من النواحي الصوتية أو الصرفية أو النحوية أو الدلالية تفرض كون أحد المستويات هو الفصحى والآخر هو العامية . فكلاهما ينطبق عليه تعريف اللغة باعتبارها نظاماً من الرموز الصوتية ، ولكن أبناء الجماعة اللغوية يقفون من الفصحى موقفاً يختلف عن موقفهم من العامية . فالفصحى تحترم اجتماعياً وتحترم قواعدها عند المتقنين كما تدعم النماذج الأدبية والسكب الثقافية والعلمية مكانة الفصحى . ويؤدى هذا فى حالات كثيرة إلى جعل استخدامها موحداً — أو يكاد يكون موحداً — عند كل أبنائها ، حتى وإن كانوا منفصلين جغرافياً واجتماعياً عن بعضهم البعض ، فيظل الاختلاف الاقليمي فى استخدام الفصحى داخل العرفى النحوى والمعجمى للغة . ولكن العامية تعد فى رأى مستخدميها غير مقننة من الناحية النحوية ، على الرغم من أن لكل لهجة قوانينها الخاصة بها . ولا يقف أبناء الجماعة اللغوية من العامية موقفاً الاحترام ولذا لا تستخدم العامية فى الكتابة الرسمية ولا فى المجالات الثقافية والعلمية تاركة ذلك للغة الفصحى .

(١) يطلق الأزواج اللغوية Diglossia على وجود مستويين لغويين فى بيئة لغوية واحدة ، أما الثنائية اللغوية عند الفرد الواحد فتسمى Bilingualism ومن الدراسات اللغوية حول الأزواج اللغوية :

Ch. Ferguson, Diglossia

ونشر عدة مرات منها :

P.p. Giglioli, Language and Social context (Penguin Books 1972), P. 232.

اشكال التنوع اللغوى :

وهناك جماعات لغوية تستخدم أكثر من لغة تختص كل واحدة منها بمجالات محددة . وفي كل هذه الحالات هناك مصطلحات لوصف مستويات الاستخدام اللغوى المختلفة⁽¹⁾ . اللغة الرسمية Official Language هى اللغة المستخدمة فى المجالات الرسمية فى الدولة ، وتنص الدساتير — غالباً — على تحديد اللغة الرسمية فى كل دولة . قد تكون اللغة الرسمية هى اللغة الوطنية National language كما هى الحال فى كثير من دول العالم ، وقد تكون امتداداً للغة الرسمية فى عهد الاستعمار وهذه حال كثير من الدول الجديدة فى أفريقيا وآسيا ، فاللغة الرسمية فى موريتانيا هى اللغة الفرنسية ، وليست الفرنسية لغة أبناء موريتانيا فهم عرب وبربر ، وماتزال اللغة الانجليزية هى اللغة الرسمية فى عدد من الدول الأفريقية . وهناك دول اعترفت لظروف تاريخية بتعدد اللغات الرسمية ، فالفرنسية والقلمنكية لغتان رسميتان فى بلجيكا ، والانجليزية والافريكاز Afrikaans لغتان رسميتان فى اتحاد جنوب أفريقيا ، والانجليزية والفرنسية لغتان رسميتان فى كندا ، والألمانية والفرنسية والاطالية هى اللغات الرسمية فى سويسرا .

وتوصف اللغة التى تستخدم فى المجالات التعليمية والثقافية والتقنية بأنها لغة التعليم Educational language ، أو لغة الثقافة Cultural language ، أو اللغة التقنية Technical language . وكثيراً ما تكون اللغة الرسمية لغة التعامل فى هذه المجالات ، ولكن عدداً كبيراً من الجماعات اللغوية فى العالم المعاصر تعامل فى المجالات التقنية بلغة تختلف عن اللغة الرسمية التى نص عليها الدستور .

(1) انظر : W.A. Stewart, An outline of linguistic Typology for :

Describing Multilingualism, p . 15-25. In : Rice, Study of the Role of second languages. Washington D.C. 1962.

فتدريس العلوم والهندسة والطب يتم في أكثر جامعات الدول العربية باللغة الانجليزية أو اللغة الفرنسية مع أن دساتير هذه الدول تنص على كون اللغة الرسمية هي اللغة العربية .

وهناك لغات تستخدم في مجالات خاصة دون أن تكون اللغة الوطنية أو اللغة الرسمية أو لغة التعليم . فلغة الدين Religious Language أو لغة الشعائر الدينية Liturgical Language هي اللغة العربية في كل أنحاء العالم الإسلامي . واللغة اللاتينية هي لغة الطقوس الدينية عند الكاثوليك . واللغة العبرية هي لغة الدين عند اليهود . ويؤدى قصر استخدام لغة من اللغات على المجال الدينى إلى اهتمام رجال الدين - في المقام الأول - بهذه اللغة ليقروا أو يكتبوا الموافقة بها ويؤلفوا بها ما يريدون من كتب دينية .

وإلى جانب هذا فهناك لغات توصف كل منها بأنها لغة جماعة group Language ويقتصر استخدامها على مجموعة حضارية أو اثنية داخل الدولة، فالمصرية في منطقة من اليمن الجنوبية وعند المهاجرين منهم إلى الكويت هي لغة مجموعة اثنية Ethnic Language . وهذا كذلك شأن النوبية في مصر ، والكردية في العراق، والبربرية في المغرب . وتعد معرفة لغة المجموعة الحضارية أو الاثنية في أكثر الأحوال مقياساً لبيان انتماء الفرد لهذه المجموعة .

ويؤدى ارتباط اللغة بمجموعة بشرية بعينها إلى عدم استخدامها عند غير أبنائها للأغراض العامة ، خصوصاً إذا كانت جماعة أبناء هذه اللغة منفصلة عن باقي أبناء البلاد بمواجز جغرافية أو حضارية أو دينية أو طبقية . وفي أكثر هذه الحالات يتعامل أبناء هذه اللغة مع الآخرين بلغة أخرى تصحح بمثابة لغتهم الثانية (1) .

(1) حول هذه الملاحظات ، انظر : M. poi, Glossary of Linguistic Terminology, New York 1966.

لغات التعامل واللغات الدولية :

وإذا كان التعاون بين البشر ضرورة اجتماعية وحيضارية فإن التعامل بين الأفراد المنتمين إلى جماعات لغوية مختلفة يشكل في أكثر الأحوال صعوبة كبيرة .
ويطلق على اللغة التي تتعامل بها جماعات تختلف لغاتهم اسم لغة التعامل *Lingua franca* ^(١) وهناك عدة لغات تعامل في العالم الحديث. ومن أمثلة لغات

= وقارن أيضاً المصطلحات التالية :

Classical Language.	اللغة القديمة
Standard Language	اللغة الراقية (المشتركة)
prestige Language	لغة (أصحاب) المسكاة
Litrary Language	لغة التأليف (و الأدب)
Mother tongue = first language	اللغة الأم (= الأولى)
= Native Language	
Second Language	اللغة الثانية
Vernacular = Colloquial	العامية
Dialect	لهجة محلية
Class language	لغة طبقة (في مجتمع)
Argot	لهجة فئة اجتماعية
pidgin	العامية المهجين (غير مكتنة)
Croole	اللغة المهجين (مكتنة)
Area language	لغة منطقة (في دولة)

(١) يرجع تاريخ المصطلح الاوربي *Lingua franca* إلى عصر الحروب الصليبية ، عندما كان الصليبيون يتعاملون مع بعضهم البعض بلغة تختلف عن لغاتهم =

التعامل استخدام العربية بين القبائل غير العربية في السودان واريتريا ، واستخدام الإنجليزية بين أبناء اللغات المختلفة في الهند (١) . وأكثر لغات التعامل لغات طبيعية Natural languages أي لغات تطورت ونمت نمواً طبيعياً ، ولكن بعض الأفراد حاولوا وضع لغات أخرى توخوا فيها البساطة، ويطلق عليها اللغات المصطنعة Artificial languages أو اللغات المساعدة auxiliary languages مثل الاسبرانتو .

ولكن هذه اللغات المصطنعة ليست سهلة لجميع أبناء اللغات بنفس الدرجة . الاسبرانتو مثلاً أكثر عناصرها تشابه مع الإيطالية والأسبانية وباقي هذه العناصر فورية ولنا فاكنتساب الأوربيين عموماً للاسبرانتو أسهل من اكتساب غيرهم لها .

إن العالم المعاصر به أكثر من ثلاثة آلاف لغة ، ولكن أكثر هذه اللغات يقتصر استخدامها على أعداد محدودة من البشر . وهناك إحدى عشرة لغة من هذه اللغات يتحدث بها أكثر من خمسين مليوناً ، وهي : الصينية ، والإنجليزية ،

ولهجاتهم المختلفة في جنوب ووسط أوروبا . فقد جاءوا من مناطق تتحدث الآن بالألمانية والإيطالية والفرنسية والأسبانية والإنجليزية الخ . ولم يكن كل هؤلاء يستطيعون التعامل باللاتينية ، فاستخدمت هذه الجماعات لغة مطورة عن لغة البروفنسال التي كانت آنذاك على طول الساحل الجنوبي لأوروبا من مرسييا إلى جنوا ، واطلقوا على هذه اللغة اسم Lingua franca ومعناها الحرف في لغة الفرنجة .

(١) حول تعريف وأنماط لغات التعامل المعاصرة ، انظر :

The Use of Vernacular languages in Education, UNESCO, paris 1953, p. 46. W.l. Samario, Lingua frances, in : F.A. Rice, Study of the Role of Second Languages, Washington D.C, 1962, p. 54 64.

والهندية — الأردية ، والأسبانية ، والروسية ، والعربية ، والبرتغالية ، واليابانية ، والبنغالية ، والألمانية ، والفرنسية . ولكن ليست كل هذه اللغات مما يمكن وصفها بأنها من اللغات الدولية International Language . فاللغة الدولية لاتتحدد مكاتمها بانتشارها وعدد أبنائها لحسب ، بل تتحدد مكاتمها بأهميتها الحضارية واقبال غير أبنائها على تعلمها والتعامل بها (١) . فاللغة لاتعيش إلا في جماعة لغوية ، ولاترقى إلا بالانسان .

مستويات الاستخدام اللغوى :

النظام الرمضى الصوتى لا يصبح لغة إلا إذا استخدم للتعامل في بيئة إنسانية ، ولذا فالبحث اللغوى يتناول البنية اللغوية ويربطها بالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة في هذه البيئة اللغوية . فطبيعة اللغة ووظيفتها شيان مترابطان ، فلو حاولنا أن نكتب اليوم عن الحياة اللغوية في العالم العربى الحديث فإننا نجد عدداً من مستويات الاستخدام اللغوى . تستخدم اللغة الفصحى في التأليف الأدبى والثقافى وفى كثير من برامج الإذاعة وتستخدم في المحاضرات العامة إلى حد كبير ، ولكنها لا تكاد تستخدم في الحديث بين المثقفين . أما اللهجات المحلية فيدور بها الحديث اليومى في أمور الحياة .

وليس من الصحيح أن نقول بوجود مستويين اثنين هما الفصحى والعامة فيبين هذه وتلك عدة مستويات لغوية . ولنتنظر في حديث المثقفين العرب حيث تتخذ

(١) حول قضية اللغات الدولية ، انظر :

محمود فهمى حجازى : اللغة العربية بين اللغات الدولية المعاصرة ، مجلة كلية الآداب والربية بجامعة الكويت ، العدد الأول (١٩٧٢) ص ٢٧ — ٥٤
ويمكن الحصول على الأعداد الخاصة بأبناء كل لغة من اللغات المعاصرة بالاستعانة بما تنشره الأمم المتحدة سنوياً في :

(= الكتاب السنوى الديموجرافى) Demographic year book

عناصر كثيرة من الفصحى مكانها إلى جانب عناصر أخرى من اللهجات المحلية .
نجد المصطلحات العلمية فصيحة وصيغ الافعال عامية والضمائر عامية ، ففي عامية
المتكفين هذه عناصر من الفصحى وأخرى من العامية .

ولا يجوز أن نعمم هذا التقسيم ، فكل مجتمع يعرف علاقته اللغوية الخاصة
في المجتمعات الأوروبية المتقنة يدور الحديث باللغة الأدبية الفصحى ، ويحاول كل
مثقّف في حديثه أن يجرّد نفسه بقدر الامكان عن التأثير باللون المحلي أو اللهجة
الاقليمية . ويحاول الشباب المثقف في وسط أوروبا استخدام الفصحى بقدر الامكان ،
حتى إن الكثير من مثقفي المدن لم يعد يستخدم اللهجة المحلية على الاطلاق ، واقتصر
استخدام اللهجات على التعامل المحلي بين أبناء القرية الواحدة أو القرى المتجاورة
وهو استخدام متناقص مع الزمن .

فمجالات استخدام اللغة الفصحى في البيئات الأوروبية المتقنة وبيئات المدن
عموماً أكثر من مجالات استخدام العربية الفصحى في العالم العربي . وتبدو هذه
الحقيقة من مقارنة الاستخدام اللغوي في المدارس والمعاهد العلمية هنا وهناك ، كما
تبدو هذه الحقيقة واضحة بمقارنته باستخدام اللغوي بين المثقفين الأوروبيين والمثقفين
العرب .

ويلاحظ في بعض المجتمعات ارتباط لغة بعينها بجماعة بشرية محددة ، ففي واحدة
سيوه الواقعة في صحراء مصر الغربية يتحدث الرجال اللغة العربية بجانب استخدام
اللغة السيوية ، وهي لغة مستقلة تختلف عن العربية . أما النساء فلا يتحدثن إلا
باللغة السيوية ولا يستطعن التعامل بالعربية . وشبيه بهذا ما نجده في المناطق النوبية
في مصر أو البربرية في المغرب العربي والمهريّة في شرق اليمن الجنوبية . وارتباط
لغة بعينها بالرجال دون النساء يرجع إلى طبيعة العلاقات الاجتماعية ، فجتمع النساء
في هذه منفصل تماماً عن التعامل الخارجي ولذا لم تدخله العربية ، لغة التعامل
الخارجي ولغة التعليم والثقافة . ففي هذه المجتمعات يسود ازدواج لغوي والمقصود

بهذا استخدام لغتين في بيئة واحدة . ونجد الازدواج اللغوي في الجزر اللغوية غير العربية في شمال العراق مثلا ، فهناك عدة جزر لغوية آرامية في عدد من القرى الجبلية . وتستخدم العربية في هذه الجزر اللغوية بدرجة اتصال أبناء هذه المناطق بالجماعة اللغوية العربية وبدرجة انتشار التعليم بينهم . وفي مثل هذه الحالات ينبغي على الباحث أن يحدد مجالات استخدام كلتا اللغتين فأحدهما تستخدم في الحياة المنزلية ، والأخرى وسيلة التعامل الثقافي ، ومن النادر أن نجد اللغتين تستخدمان في البيئة اللغوية الواحدة في كل المجالات ، بل هناك ضرب من تقسيم مجالات الاستخدام وتصدق هذه الملاحظة على الجزر اللغوية في أوروبا وعلى المناطق التي تتعامل باللغتين في نفس الوقت ، ففي دول قلو كسمبورج وسودان ودواج لغوي ، تستخدم اللوكسمبورجية وهي لهجة ألمانية في الحياة اليومية ، أما الثقافة والتعليم والتعامل مع الدوائر الرسمية فيتم باللغة الفرنسية ، فلكل لغة منها وظيفة محددة .

مستويات الاستخدام اللغوي والقوانين الصوتية :

لا بد إذن في دراسة الحياة اللغوية من تحديد مستويات الاستخدام اللغوي وليس هناك تقسيم مسبق لهذه المستويات . ولكن تحديد هذه المستويات اللغوية والتعرف على خصائصها ومجالات استخدام كل منها شرط أساسي لبحث العلاقات المتبادلة بين المستويات اللغوية المختلفة . لقد ثبت من أبحاث اللغويين الأوروبيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن القوانين الصوتية مطردة لا تعرف بالشذوذ ، ومعنى هذا أن التغيير الصوتي يحدث في كل ألفاظ المستوى اللغوي . فإذا لاحظنا مثلا أن القاف الفصحى قد اختلفت من لهجة القاهرة وحلت محلها الهزمة ، فهذا قانون صوتي مطرد لا يعرف الشذوذ أو الاستثناء . ولكن رغم هذا نجد عدة كلمات تستخدم اليوم عند أبناء لهجة القاهرة وتحتفظ بالقاف مثل كلبتي القاهرة والقرآن وهنأيتضح لنا السبب في احتفاظ الكلمتين بالقاف في ضوء التمييز بين مستويين لغويين اثنين ، فكلمة القرآن لم تستخدم إلا على المستوى الثقافي فظلت تنطق بالقاف ، ولذا لم

يطبق عليها قانون تحول القاف إلى الهمزة . وكان مستخدم اللهجة المحلية يستعوض عن كلمة القرآن بكلمة مصحف أو ربة ، وعندما استعيرت كلمة القرآن من المستوى الثقافي إلى العامية احتفظت بصورتها القديمة ولم تتأثر بالقانون الصوتي الذي كان قد حول كل قاف إلى همزة ، فالكلمة إذن مستعارة من الفصحى أو بالأحرى من المستوى الفصيح في الاستخدام اللغوي . وأما كلمة القاهرة فلم يكن استخدامها جارياً في العامية لأن كلمة مصر حلت محلها في الاستخدام العامي . ولذا ظلت كلمة القاهرة على المستوى الفصيح فاحتفظت بصورتها الصوتية الفصيحة .

وتصدق قضية التمييز بين المستويات اللغوية المختلفة في كل البيئات اللغوية ، ففي الكويت ومناطق الخليج العربي التي تستخدم صوت الياء في مقابل صوت الجيم الفصحى نجد كلمات تنطق بالجيم وليس في هذا ما يتقضى كون القوانين الصوتية مطردة . فالقانون الصوتي الخاص بتحول الجيم الفصيحة إلى ياء في هذه اللهجات خاص بمستوى الالفاظ الأساسية ، وليست له علاقة بالالفاظ الهابطة من الفصحى إلى هذه اللهجات . لقد تحولت الجيم الفصحى إلى ياء في كل الالفاظ الأساسية في اللهجة ، مثال ذلك الكلمات : جاء ← ياء ، واجد ← وايد (بمعنى كثير) . ولكن الالفاظ الهابطة من الفصحى في مرحلة تاريخية حديثة احتفظت بالجيم الفصيحة . نجد هذا في كلمات مثل : جمعية ، جامعة ويؤدي وجود الفاظ من مستويين اثنين في البيئة اللغوية الواحدة إلى وجود أمثلة لا تقسم الكلمة الواحدة إلى كلمتين بداليتين مختلفتين ، فكلمة «جامعة» في اللهجة الكويتية تعني التمويذة أو الحجاب ، وكلمة «جامعة» تستخدم بمعناها الفصيح . ولا شك أن استخدام الكلمة الأولى في تناقص والثانية في ازدياد بسبب التحول الثقافي في المنطقة ، ولكن وجود احدهما الآن بالياء والآخرى بالجيم يوضح انتماءهما إلى مستويين لغويين اثنين . وهكذا تطرد القوانين الصوتية ، وكل اختلاف عنها يفسر بما يبرأ أخرى منها تحديد مستوى الاستخدام اللغوي ، وهذا يعني أن البنية اللغوية لا يمكن أن تدرس أو تفسر تاريخياً إلا في ضوء استخدامها في المجتمع .

اللغة والكلام

اللغة ظاهرة اجتماعية ، ولكن استخدامها الحقيقي لا يتم إلا بين الفرد والآخرين . وقد اهتم علم اللغة ببيان العلاقة بين اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية واستخدام الأفراد لهذه اللغة . ويفرق الباحثون في القرن العشرين بين اللغة من جانب والكلام من الجانب الآخر (١) والفرق بينهما على النحو التالي : اللغة نظام من الرموز الصوتية المتفق عليه في البيئة اللغوية الواحدة ، وهي حصيلة الاستخدام المتكرر لهذه الرموز الصوتية التي تؤدي المعاني المختلفة . أما الكلام فهو الكيفية الفردية للاستخدام اللغوي . ويختلف استخدام كلتي اللغة والكلام في الكتب اللغوية عن الاستخدام الشائع للكلمات ، فكثيراً ما نستخدم في كلامنا اليومي كلمة لغة للتعبير عن الكلام ، نقول : لغته جيدة أو لغته رديئة والمقصود بهذا الاستخدام الفردي للغة . ولكن المعنى الاصطلاحي لكلمة لغة يجعلها عبارة عن مجموعة الامكانيات التعبيرية الموجودة في البيئة اللغوية الواحدة ، أما الكلام فهو كيفية اختيار الفرد لعناصر بعضها من هذه الامكانيات التعبيرية الكثيرة . وتتضح هذه القضية في التراكيب والمفردات بصفة خاصة ، فلا يوجد فرد يستخدم كل التراكيب المتاحة في لغته ، وليس هناك فرد يستخدم كل مفردات لغته مهما أوتي من الفصاحة واللسن والتمسك اللغوي ، فكل فرد يستخدم جزءاً من الامكانيات التعبيرية المتاحة في البيئة اللغوية ، ويعبر بهذا الجزء عن حاجاته اليومية أو لاثم عن حرفته - وما أكثر الحرف - ومجالات اهتمامه وفكره وثقافته .

(١) يرجع التمييز بين (Langage بمعنى القدرة اللغوية عند الانسان) و (Langue بمعنى اللغة) و (Parole بمعنى الكلام) إلى اللغوي السويسري دي سوسير ، انظر :

F. de Saussure, Cours de linguistique generale P. 28-39.

والتمييز بين اللغة والكلام ضروري في دراسة قضية التغير اللغوي . والتغير اللغوي شبيه بالتغير في العادات والتقاليد والأزياء . وهذا معناه أن التغير اللغوي يبدأ عند فرد ما ، أى على مستوى الكلام ، فإذا وجد هذا التجديد قبولاً من المجتمع أصبح بمضى الوقت عرفاً لغوياً سائداً .

يتم علم اللغة بالتغير اللغوي على المستوى الاجتماعي ، ويرجع التغير اللغوي دائماً إلى تجديد فردي يقبله المجتمع ، أما التجديد الذي يرفضه المجتمع فيبقى خارج مجال علم اللغة — لأن علم اللغة يبحث اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية . وليس كل تغير لغوي عند فرد ما أو مجموعة أفراد يقبل اجتماعياً ، فإلى جانب تغيرات بدأت على مستوى الفرد ثم أصبحت على مستوى البيئة اللغوية كلها ، هناك تجديدات فردية ظلت مرتبطة بمجموعة أفراد ولم تقبل اجتماعياً . وقد لوحظ مثلاً أن نطق الراعي في الفرنسية الباريسية بدأ هكذا منذ قرون عند أحد المرموقين في الدولة ، ثم قلده رجال البلاط وتلام عدد من أبناء الطبقات المترفة ، وأصبح هذا النطق هو العرف اللغوي السائد . وعكس المن هذا نجد أن اتجاه نطق أصوات الإطباق لم ينجح منذ سنوات أخذت بعض الطالبات في جامعات مصر في نطق الطاء والقاف والصاد والصاد دون القدر الضروري من الإطباق . فكادت الطاء تنطق تاء والقاف كافاً والصاد دالاً . ولكن هذا الاتجاه ظل عدة سنوات محدود الانتشار مقصوراً على مجموعة أفراد ولم يقبل اجتماعياً . . لم يؤد إلى تغير في نطق هذه الأصوات العربية .

٣ — المؤثرات العامة في الحياة اللغوية

يتأثر انتشار الصيغ اللغوية والتراكيب بعوامل كثيرة ، أهمها في العالم المعاصر العامل الحضاري . فإذا كانت مكانة أية لغة من اللغات الكبرى المعاصرة تتحدد في المقام الأول بما تحمله من تراث حضاري وما تقدمه من نتاج حضاري حديث فإن للعلماء والمثقفين ووسائل الاعلام أثراً كبيراً في البيئة اللغوية . وفي المجال

الصوتى تعد الإذاعة من العوامل الحاسمة ، فالناطق الذى يرتضيه مذيعة الإذاعة يؤثر فى آلاف المستمعين ، ولذا تهتم دول كثيرة فى العالم المعاصر بكيفية نطق المذيعين وتدريبهم تدريباً صوتياً دقيقاً . ويؤثر المحاضرون فى الجامعات فى الحياة اللغوية من ناحية المصطلحات ، فهم يدخلون بصفة مطردة مصطلحات علمية جديدة للتعبير عن المعانى الجديدة أو العلوم الحديثة . فتستخدم هذه المصطلحات عند طلابهم وقرائهم ثم فى دوائر أوسع إلى أن تستقر فى العرف اللغوى . وبذلك تصبح من المشاع اللغوى العالم . فان اختلف واضمو الاصطلاحات وتعددت معمم اصطلاحاتهم للشئ الواحد حدث ارتباك فى استخدام المصطلحات وربما تمذر التفاهم . ويؤثر كبار الكتاب والادباء فى الحياة اللغوية من ناحية التراكيب بصفة خاصة ، ولكن أى نطق جديد أو اصطلاح جديد أو تركيب أسلوبى جديد — يظل ظاهرة فردية إلى أن يقبل اجتماعياً ويصبح من العرف اللغوى . وكثير مما يستحدث فى الإذاعة ووسائل الاعلام وفى الجامعات وعند كبار الادباء يقبل اجتماعياً ، ولذا تعد هذه الدوائر الحاكمة لغوياً أهم ما يؤثر فى الحياة اللغوية المعاصرة .

وقد تأثرت اللغات على مدى التاريخ وما زالت تتأثر بعوامل اخرى غير العامل الحضارى المذكور . فالعامل الدينى أبقى اللغة العبرية مقروءة أكثر من عشرين قرناً ، فكان اليهود يتعلمون قنراً من العبرية لأنها لغة العهد القديم ، وهو كتاب اليهود المقدس . والتقاء العرب حول الفصحى وعدم نجاح الدعوى إلى الكتابة بالعامية يرجع إلى عوامل منها الالتقاء حول لغة القرآن الكريم . وقد مهد العامل الدينى لدخول عدد كبير من الألفاظ العربية المتعلقة بالدين والحضارة إلى لغات العالم الاسلامى فى إفريقيا وآسيا وحنوب أوروبا . فى اللغات السواحلية والتركية والفلبينية وأيضاً فى اللغة الصربوكرواسية نجد المسلمين يستخدمون الألفاظ الخاصة بالعبادات وبالسلوك اليومى مستعارة من اللغة العربية . وارتباط الخط العربى بالدين الاسلامى جعل المتحدثين بالحيشية فى هرر — وكلهم من المسلمين يكتبون بالحيشية بالخط العربى ، وقد دخلت المرورية ألفاظ عربية كثيرة وكأنهم أرادوا بذلك أن يثبتوا ارتباطهم بالعالم الاسلامى وتميزهم عن الاحباش المسيحيين حولهم .

والعامل السياسي ذو أثر في حياة اللغات ، وقد ظهرت اللغات الرومانية المختلفة من فرنسية وأسبانية وإيطالية ورومانية في فترة كانت الوحدة السياسية لهذه المناطق قد تمزقت نهائياً ، وكان الوعي القومي آخذاً في الظهور . وقد أدى النفوذ الاستعماري في الهند إلى انتشار اللغة الإنجليزية حتى أصبحت أكثر اللغات استخداماً في الهند . وقد حدد تقسيم القارة الأفريقية إلى مناطق للنفوذ الاستعماري مسار انتشار لغات المستعمرين فيها ، فالدول التي أعلنت الفرنسية لغة رسمية فيها أو التي تتعامل في المجالات الثقافية والسياسية والتجارية بالفرنسية قد احتفظت بذلك باللغة التي دخلت هذه المناطق مع الاستعمار . وهناك دول أفريقية كثيرة تتعامل في هذه المجالات بالفرنسية وأخرى تتعامل بالإنجليزية . وعندما تقسم الدول الناطقة بالفرنسية والدول الأفريقية إلى : الدول الناطقة بالإنجليزية ، ففي هذه - رغم الاستقلال - أثر للسيطرة الاستعمارية الفرنسية والإنجليزية . واليوم يتعلم التلاميذ في أوزبكستان (التركستان سابقاً) اللغة الروسية ، لأن أوزبكستان جمهورية تابعة للاتحاد السوفيتي وهكذا يؤثر العامل السياسي في الحياة اللغوية ، ولكنه تأثير يتفاوت طبقاً لطبيعة العلاقات السائدة في البيئة اللغوية .

أما العامل الاجتماعي فهو من أهم العوامل في حياة اللغات ، فانتقال مجموعة بشرية معينة من مكان لآخر واختلاط المجموعة الوافدة مع السكان الأصليين كقيل بخلق علاقات لغوية جديدة . ومن المعروف أن هجرة القبائل العربية عقب الفتح الإسلامي وفي القرون التالية للشام والعراق ومصر والمغرب كانت من أهم العوامل في انتشار اللغة العربية ، وبذلك لم تعد اللغة العربية لغة شمال الجزيرة العربية بحسب بل أصبحت بمضي الوقت لغة الحديث والعلم والادب في الدولة الإسلامية الكبرى . وفوق هذا فالطبقة العليا في المجتمع الواحد ذي الطبقات المتعددة تؤثر تأثيراً حاسماً في الاستخدام اللغوي لدى الطبقات الأخرى ، ومحاكاة الطبقة العليا أو الفئة الحاكمة أمر معروف في دول العالم المختلفة .

الفصل الثاني

علم اللغة الحديث

علم اللغة في أبسط تعريفاته هو دراسة اللغة على نحو علمي ، وتدرس اللغة في إطار علم اللغة في المجالات الآتية :

phonetics, Phonology	أ - علم الأصوات
Morphology, Morphematics	ب - علم بناء الكلمة (الصرف)
Syntax	ج - علم بناء الجملة (النحو)
Lexicology	د - علم المعاجم
	علم اللغة وعلم النصوص القديمة

ويختلف علم اللغة^(١) Linguistics بمفهومه الحديث عن علم النصوص ،

(١) يرجع مصطلح Linguistics والمصطلحات الأوربية المقابلة مثل Linguistique في الفرنسية ، Linguistica في الإيطالية إلى الكلمة اللاتينية Lingua بمعنى « اللسان » أو « اللغة » ، وقد بدأ استخدام الكلمة في اللغات =

وكثيراً ما يحدث خلط بين مجالى العلمين ، فمعلم النصوص هو ما يطلق عليه فى اللغات الأوربية اسم Philology ، وقد تحدد مجال علم الفيلولوجى (١) بمعناه الدقيق بتحقيق المخطوطات وإعدادها للنشر العلمى وفك رموز الكتابات القديمة وكل ما يتعلق بتقديم النصوص والنقوش القديمة على نحو يمكن من القيام بأبحاث متخصصة فيها، ولا شك أن تحقب النصوص وفك الرموز ونشر النقوش أعمال علمية جميلة، تقوم عليها دراسات تاريخية أو لغوية أو أدبية إلخ ، ولكن هذا العمل الفيلولوجى يخرج عن ميدان علم اللغة ، ويعتبر علم الفيلولوجى بهذا المعنى أساساً لعلم اللغة ولغيره من العلوم التى تقوم على النصوص .

ارتبط البحث اللغوى فى طور نشأته فى القرن التاسع عشر بالبحث فى النصوص والنقوش القديمة . لقد كانت المدرسة المقارنة فى علم اللغة تهدف إلى التعرف على العلاقات التى تربط كل لغة من لغات الأسرة اللغوية الواحدة بالمراحل الأقدم ، بل حاولوا التعرف على ملامح اللغة الهندية الأوربية الأم التى يفترض الباحثون أن

الأوربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وتحدد معناها بتقديم علم اللغة فى القرن العشرين، وكان يقابلها فى اللغة الألمانية إلى عهد قريب كلمة Sprachwissenschaft ولكن الجيل الجديد من الباحثين الألمان يفضلون التسمية الأوربية العامة Linguistik انظر : K-D. Bunting, Einführung in die linguistik. (Frankfurt 1971)

S. 13.

Das Fischer Lexikon Sprachen (Frankfurt 1961) s. 7.

(١) يرجع اشتقاق هذه الكلمة إلى كلمتين يونانيتين : Philos وتعنى «حسب» و Logos وتعنى «كلمة» أو «دراسة» وقد استخدمت الكلمة فى الإنجليزية ابتداء من القرن الرابع عشر بمعنى دراسة التراث القديم .

اللغات الهندية الأوربية المختلفة قد انحدرت منها وحاول الباحثون في اللغات السامية أيضاً لإيضاح العلاقات التي تربط كل لغة من اللغات السامية باللغة السامية الأم التي افترض العلماء وجودها قبل اللغات السامية المعروفة . وأدى هذا الهدف التاريخي إلى الاهتمام بالنصوص القديمة وإلى النظر في المراحل التاريخية التالية باعتبارها انعكاساً للماضي وامتداداً له . ومن ثم فقد شغل علماء كثيرون بالبحث في النقوش والنصوص القديمة^(١) لقد اكتشفت اللغة الآرامية وبدات دراستها في القرن التاسع عشر ، وفي نفس الفترة اكتشفت العربية الجنوبية القديمة . وكان التعرف على هاتين اللغتين قائماً على مقارنة الصيغ الواردة في نقوشهما بما هو معروف في اللغات السامية الأخرى ، وخصوصاً العربية والعبرية والآرامية والحيدية . وعندما اكتشفت النقوش العربية الشمالية القديمة وهي المعروفة باسم النقوش النثرية والصخرية والحيانية في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن العشرين كان نشر هذه النقوش وفهم نصوصها يقوم أيضاً على أساس المقارنة مع اللغات السامية الأخرى .

ولكن تنوع جوانب البحث اللغوي في القرن العشرين فرض التخصص على من يريد المشاركة في البحث العلمي . وهنا أصبح نشر النصوص والنقوش القديمة علماً مستقلاً عن علم اللغة ، فعلم اللغة بمفهومه الحديث يختلف عن علم النصوص القديمة Philology ولم يكن التمييز بينهما واضحاً في القرن التاسع عشر لارتباط البحث اللغوي بالنصوص القديمة . كان الباحثون الألمان يميزون منذ القرن

(١) عندما أخذ الباحثون في القرن التاسع عشر يقارنون اللغات الهندية الأوربية بهدف التوصل إلى أصولها القديمة كان عليهم أن يتوسلوا ببحث لغة النصوص القديمة فأطلق الباحثون الإنجليز والفرنسيون على هذه المقارنات

Comparative Philologie comparée (comparative), Philology.

التاسع عشر بين العمل الفيلولوجى Philologie وعلم اللغة Sprachwissenschaft^(١) وقد اخذ غيرهم من الباحثين ميل إلى تمييز المجالين وعدم خلطهما تحت اسم واحد^(٢) وقد تحدد مجال علم النصوص القديمة (الفيلولوجى) بمناهة الدقيق بتحقيق المخطوطات

(١) قامت المدرسة الفيلولوجية الألمانية في القرن التاسع عشر بفضل K. Lachmann الذى استطاع أن يطور منهجاً واضحاً في التحقيق، فارتبطت كلمة Philologie في الألمانية بتحقيق النصوص القديمة ونشرها، انظر: F. Schnabel. Deutsche Geschichte im neunzehnten Jahrhundert (Herder Bücherei Band 207 · 1965) s. 99-102. أما دراسة الخصائص اللغوية من الجوانب الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية فقد أطلقوا عليها منذ القرن التاسع عشر Sprachwissenschaft أى علم اللغة. انظر المرجع السابق ص ١٠٣-١٠٥ ومادى Philologie و Sprachwissenschaft

Der grosse Brockhaus, 1956

(٢) ذكرت دائرة المعارف البريطانية (ط. ١٩٧٠) مادة Linguistics أن هذا المصطلح واضح الدلالة، على عكس مصطلح philology الذى يمكن أن يدل إلى جانب دراسة اللغة على بحث التراث Literature ونقد النصوص textual criticism والفن Art والآثار Archaeology والدين Religion. انظروا حول الاستخدام الأمريكى للكلمة:

J.B. Carroll, The study of Language (Harvard Ua Press 1960) P. 3, 65-69.

وفيه يعمل كارول علم الفيلولوجى فى مركز وسط بين علم اللغة من جانب والدراسات الأدبية والانسانية من الجانب الآخر. كما أنه يعتبر دراسة التاريخ الحضارى للغة واعداد المعاجم بالإضافة إلى تحقيق النصوص ودراسة الفولكلور والميثولوجيا من مجالات علم الفيلولوجى، ويحاول بعد هذا تقسيم العمل الفيلولوجى إلى مجالين هما. Linguistic philology ويعنى باعداد المعاجم و Liteary philology وموضوعه تحقيق النصوص وتفسيرها ونقد المؤلفات الأدبية اعتماداً على دراسة لغتها.

واعدادها للنشر العلمى وفك رموز الكتابات القديمة واعدادها للنشر العلمى أيضاً . فكل ما يتعلق بتقديم النصوص والتقوش القديمة على نحو يمكن من القيام بأبحاث متخصصة فيها يعد من علم الفيلولوجى ، ولا شك أن تحقيق النصوص والتقوش ونشرها أعمال علمية جلية ، وهى الأساس الذى تقوم عليه دراسة هذه النصوص والتقوش من الجوانب التاريخية أو اللغوية أو الاجتماعية المختلفة . ويعتبر العمل الفيلولوجى بذلك أساساً لعلم اللغة وغيره من العلوم التى تعنى بتفسير النصوص وتحليل مادتها . فتحقيق ديوان من الدواوين المخطوطة يعتبر عملاً فيلولوجياً يفيد البحث فى اللغة كما يفيد البحث فى الأدب ولكنه لا يدخل فى مجال علم اللغة . فالدراسة اللغوية للديوان تعنى دراسة النص من جوانبه الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية أى من الجوانب التى تعارف العلماء على جعلها مجال البحث فى علم اللغة .

٢ - علم اللغة المقارن Comparative Linguistics

موضوع علم اللغة المقارن دراسة الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية فى اللغات المنتمة إلى أسرة لغوية واحدة أو فرع من أفرع الأسرة اللغوية الواحدة^(١) . ولنا يقوم المنهج المقارن فى علم اللغة على أساس تصنيف اللغات إلى أسرآت ويقسم اللغويون منذ القرن التاسع عشر اللغات المختلفة إلى مجموعات أو أسرآت . فهناك أسرة اللغات الهندية الأوربية التى تضم أكثر لغات المنطقة الممتدة من الهند إلى أوربا ، وتضم بذلك عدداً كبيراً من اللغات التى عرفتها وتعرفها الهند وإيران والقارة الأوربية^(٢) . وعرف العلماء الأوربيون فى القرن التاسع عشر أيضاً أن العربية

(١) حول تاريخ المنهج المقارن ، انظر: R.H. Robins, A short history

of linguistics (London 1967) pp. 164-197.

B.E. Vidos, Handbuch der romanischen Sprachwissenschaft (München 1968) s. 37-56.

(٢) حول قصة اكتشاف السنسكريتية ونشوء البحث المقارن فى اللغات الهندية

الأوربية :

S. Potter, Language in the modern World (Pelican Books A 470, 1968) pp. 11-20, 90-110, 144-162.

تنتمي إلى أسرة اللغات السامية التي تضم أيضا اللغات العبرية والآرامية والأكادية والحبشية^(١) . وقد تمكن العلماء من تقسيم اللغات المختلفة إلى أسر أو فصائل بمقارنة هذه اللغات واكتشاف أوجه التشابه بينها من الجوانب الصوتية والنحوية والمعجمية . ووجود جوانب شبه أساسية بين عدد من اللغات معناه أنها انحدرت من أصل واحد مشترك أي من اللغة الأولى التي خرجت عنها هذه اللغات على مر التاريخ . وجد العلماء ظواهر مشتركة في اللغات المنتشرة على مدى القرون بين إيران والهند وأوروبا ، فعدوا هذه اللغات أسرة لغوية واحدة خرجت لغاتها عن لغة قديمة مفترضة ، أطلق عليها اسم اللغة الهندية الأوروبية الأولى Proto-Indoeuropean . ووجد العلماء اللغات العربية والعبرية والفينيقية والأكادية والحبشية تحمل بعض الخصائص الأساسية المشتركة فاستنتج العلماء أنها لغات تشكل أسرة لغوية واحدة وأنها انحدرت من أصل واحد أطلقوا عليه اللغة السامية الأولى Proto-semitic أو Ursemitisch^(٢) ، ومقارنة اللغات المختلفة المنتمية إلى أسرة لغوية واحدة موضوع البحث في علم اللغة المقارن . فعلم اللغات السامية المقارن يقارن اللغات

(١) حول تاريخ الدراسات السامية وبحث العلاقات التاريخية بين اللغات السامية . انظر الفصل الذي كتبه يوهان فك :

J. Fück, Geschichte der semitischen Sprachwissenschaft s. 31-39.
ضمن كتاب :

Handbuch der Orientalistik, Band III Abschnitt II (ed. B. Spuler, Leiden 1954) .

(٢) يرجع الاصطلاح الألماني Ursemitisch الذي دخل اللغات الأوروبية الأخرى Ursemitic إلى عنصرين : الأول Ur وتعني أول أو قديم أصلي ، والثاني نسبة إلى Sem أي سام (بن نوح ؟) .

الأكادية والآرامية والعبرية والفينيقية والآرامية والعربية الجنوبية والعربية الشمالية والحيتية ، لأن هذه اللغات تكون أسرة لغوية واحدة . وعلم اللغات الهندية الأوروبية المقارن يبحث اللغات المختلفة التي تدخل في إطار هذه الأسرة اللغوية . وتضم أسرة اللغات الهندية الأوروبية عددا من الفروع اللغوية أهمها الفرع الجرمانى والفرع الرومانى والفرع السلافي والفرع الأيراني والفرع الهندى . وقد أدت كثرة لغات هذه الأسرة إلى اهتمام بعض العلماء بالمقارنات اللغوية في إطار فرع واحد من أفرعها الكثيرة . فعلم اللغات الجرمانية المقارن يبحث اللغات الألمانية والانجليزية والنوردية القديمة والدانمركية وغير ذلك من اللغات واللهجات التي تدخل في هذا الفرع . وعلم اللغات الرومانية المقارن يبحث : اللغة اللاتينية واللغات واللهجات التي خرجت عنها ويطلق عليها اللغات واللهجات الرومانية وتضم اللغات الرومانية الحديثة : الفرنسية والإسبانية والإيطالية ولغة جمهورية رومانيا ، إلى جانب عدد كبير من اللهجات . ومقارنة هذه اللغات باللغة اللاتينية وباللاتينية الشعبية هو مجال البحث في علم اللغات الرومانية المقارن . أما علم اللغات السلافية المقارن فيبحث اللغات : الروسية والبولندية والأكرانية والتشيكية والسلوفاكية والصربوكرواتية والبلغارية ، فيبين العلاقات التاريخية بين اللغات التي تكون فرعا لغويا واحدا أو أسرة لغوية واحدة هو مجال البحث في علم اللغة المقارن (١) .

(١) لا يزال بعض اللغويين العرب من الجبل القديم يطأقون على : علم اللغة المقارن « فقه اللغة » ، انظر مثلا : السيد يعقوب بكر دراسات في فقه اللغة العربية (بيروت ، ٦٤ ، ٧٠) . ويضم هذا الكتاب دراسات في العربية في ضوء علم اللغات السامية المقارن . وقد انزم المؤلف أيضا بتسمية هذا التخصص *Phibology* وهي تسمية غامضة رغب عنها اللغويون المحدثون — حتى في إنجلترا أخيرا — إلى التسمية الواضحة *linguistica* . ولعل أقدم ملاحظة باللغة العربية حول عدم وضوح كلمة *Philology* ما كتبه على عبد الواحد وانى : « مدلول *philologie* قد اختلف كثيرا باختلاف العصور واختلاف الأمم وما يزال العلماء يختلفون في فهمها =

٣ - علم اللغة الوصفي Descriptive Linguistics

يتناول علم اللغة الوصفي بالدراسة العلمية لغة واحدة أو لهجة واحدة في زمن بعينه ومكان بعينه . ومعنى هذا أن علم اللغة الوصفي يبحث المسترى اللغوى الواحد من جوانبه الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية . لقد ظل العلماء يبحثون اللغات في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين بالمنهج المقارن ، ولم يكن هناك تصور واضح لإمكان بحث اللغة الواحدة على نحو علمي دقيق ، ولكن الباحث السويسري دي سوسير de Saussure أثبت بدراساته في نظرية اللغوة وظيفتها إمكان بحث اللغة الواحدة وصفيًا أو تاريخيًا^(١) . وبذلك بدأ الباحثون في تطوير مناهج البحث لتحليل البنية

== وإطلاقها (علم اللغة ص ١٢) . وما يقال عن هذه الكلمة يقال أيضا عن كلمة « فقه اللغة » من ناحية عدم وضوح المعنى فقدا ترتبط بدلالة قديمة محدودة ودلت على دراسة الانفاظ ولذا يميل أكثر اللغويين العرب المحدثين إلى عدم استخدامها للدلالة على « علم اللغة الحديث » .

(١) كان اللغوى السويسري دي سوسير أول من أبرز إمكان بحث اللغة والمهجة بالمنهج الوصفي ، وكان الباحثون في القرن التاسع عشر لا يعرفون من مناهج البحث اللغوى إلا المنهج المقارن ، وقد أطلق دي سوسير على علم اللغة الوصفي *linguistique synchronique* وترجع كلمة *synchronique* الفرنسية إلى *syn-* (في اليونانية تعنى : معاً) - *chronos* (في اليونانية تعنى زمن) ، وتستخدم هذه الكلمة المركبة في اللغات الأوروبية بمعنى مترامن أى في نفس الوقت . وحول آراء دي سوسير في علم اللغة الوصفي ، انظر :

F. de Saussure, Cours de linguistique Générale (Paris 1916).

وقد ترجم الكتاب إلى الإنجليزية بعنوان :

Course in General Linguistics (New York 1959).

وحول آراء دي سوسير ، انظر :

محمود فهمى حجازى : أصول البنيوية في علم اللغة والدراسات اللغوية ص ١٥٦ - ١٦١ في عالم الفكر المجلد الثالث / ١ (الكويت ١٩٧٢) .

اللغوية، وزاد اهتمام الباحثين بالمنهج الوصفي في الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية . وأصبح المنهج الوصفي المنهج السائد في السنوات العشر الماضية عند أكثر المشتغلين بعلم اللغة الحديث في كل أنحاء العالم .

يهتم علم اللغة الوصفي بدراسة بنية أية لغة أو أية لهجة ، فكل لغة وكل لهجة تتكون من أصوات لغوية ، تنتظم في كلمات ، تتألف منها الجمل ، لتعبر عن المعاني المختلفة . والفرق بين اللغة واللهجة فرق حضارى لا ينبع من البنية اللغوية ، ولسكنه يقوم على أساس مجالات الاستخدام ، فالاستخدام في المجالين الثقافى والعلمى يجعل من المستوى اللغوى المستخدم لغة ، وأما التعامل المحلى فيمكن أن يكون بهذه اللغة عند المثقفين في بعض المجتمعات الراقية ولكنه يكون في أكثر الجماعات اللغوية في العالم باللهجة المحلية (١) . ويمكن تطبيق المنهج الوصفي في تحليل البنية اللغوية لأية لغة أو لهجة .

فدراسة أبنية الافعال في لهجة الكويت أو النظام الصوتى في لهجة عمان أو جملة الاستفهام في النثر العربى الحديث أو صيغ جموع التكسير في الشعر الجاهلى أو جملة الاستثناء في النثر العربى في القرن الرابع الهجرى موضوعات تدخل في إطار علم اللغة الوصفى ، وأية دراسة صوتية أو صرفية أو نحوية أو دلالية لاحدى اللهجات القديمة أو الوسيطة أو الحديثة تعد دراسة وصفية . وهناك مجالات كثيرة لبحث النقوش والنصوص العربية القديمة بالمنهج الوصفى . فدراسة الأبنية الصرفية التى وردت مستخدمة فى مجموعة من النقوش أو فى مجموعة من النصوص المنتمية إلى مستوى لغوى واحد تعد دراسة صرفية بالمنهج الوصفى . فدراسة أى جانب من جوانب بناء الجملة فى مستوى لغوى واحد تعد دراسة نحوية بالمنهج الوصفى .

(١) أكثر الدراسات الوصفية حول العربية ولهجاتها أعدت فى الولايات المتحدة الأمريكية وقدمت لنيل درجة الدكتوراه فى علم اللغة . وأكثر هذه الرسائل تتناول اللهجات العربية الحديثة .

وفضلا عن هذا فهناك مجال كبير لاعداد المعاجم الصغيرة التي تسجل الالفاظ الواردة أو المستخدمة في أحد مستويات الاستخدام اللغوى مثل إعداد معاجم يسجل كل منها الالفاظ الواردة في ديوان بعينه أو في لهجة واحدة . وكل هذه الجهود تم بالمنهج الوصفي .

٤ - علم اللغة التاريخي Historical linguistics

يبحث علم اللغة التاريخي تطور اللغة الواحدة عبر القرون . فتاريخ اللغة من جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية يدخل في مجال علم اللغة التاريخي (١) ومعنى هذا أن دراسة تطور النظام الصوتي للعربية الفصحى هي دراسة صوتية تاريخية . وتطور الأبنية الصرفية ووسائل تكوين المفردات في العربية على مدى القرون مما يدخل في الدراسة الصرفية التاريخية وتطور الجملة الشرطية أو جملة الاستفهام في العربية الفصحى مما يدخل في الدراسات النحوية التاريخية والمعاجم التاريخية التي يسجل كل منها تاريخ حياة كل كلمة من كلمات اللغة من أقدم نص جاءت به متتبعا تطور دلالتها على مر التاريخ — تعد أيضا من علم اللغة التاريخي

(١) أطلق دى سوسير مصطلح Linguistique diachronique على البحث التاريخي وترجع كلمة diachronique إلى كلمة Dia- (وتعنى في اليونانية « عبر ») وكلمة -chronos (وتعنى في اليونانية : زمن) .
ومن أهم كتب المنهج المقارن :

Hermann Paul. Prinzipien der Sprachgeschichte (1886. Tübingen 1960).

وترجم الكتاب إلى اللغة الانجليزية .
وحول الدراسات الخاصة بتاريخ اللغة العربية ، انظر : Arabiyya في دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الانجليزية الثانية) .

فالتاريخ الصوتي والصرفي والنحوي والمعجمي لا يهتد من اللغات يدخل في مجالات البحث اللغوي التاريخي، والنحو التاريخي والمعجم التاريخي من الأركان الأساسية في علم اللغة التاريخي .

ولا يتناول تاريخ اللغات تطورها البنيوي والمعجمي فحسب ، بل يبحث أيضا تطورها وحياتها في المجتمع ، فقضية انتشار لغة من اللغات والظروف التي مهدت لذلك وأثر ذلك في بنية اللغة تمتد من موضوعات علم اللغة التاريخي ، وارتباط اللغة بوظيفتها أو بوظائفها المختلفة في الجماعة اللغوية يؤثر بالضرورة في حياة اللغة. فهناك فرق كبير بين أن تكون اللغة لغة جماعة محدودة ، أو أن تكون اللغة الرسمية في دولة عظمى ، أو أن تكون لغة حضارة دولية . ودراسة مستويات الاستخدام اللغوي المختلفة في حياة كل لغة وأثر ذلك في بنيتها وأهميتها الحضارية ومكانتها بين اللغات مما يدخل في إطار علم اللغة التاريخي .

٥ - علم اللغة التقابلي Contrastive Linguistics

يقوم تعليم اللغات في رأي الباحثين المعاصرين على عدة أسس من أهمها ما يطلق عليه علم اللغة التقابلي^(١) . وموضوع البحث في علم اللغة التقابلي - أحدث

(١) اهتمت الجامعات الأمريكية أول الأمر ثم الجامعات الأوروبية بعد ذلك بالدراسات التقابلية بهدف تيسير تعليم اللغات لغير أبنائها . وتتم مراكز بحوث تعليم اللغات وجمعيات اللغويين في عدة بلاد في العالم (أهمها : اليابان ، ألمانيا) بالدراسات التقابلية وتشغل هذه الدراسات حيزا كبيرا في المؤتمرات الدولية لعلم اللغة التطبيقية International Conference of Applied Linguistics انظر مثلا أعمال المؤتمر الثالث ١٩٧٢ .

والكتاب الوحيد المنشور في مقارنة لهجة عربية مع الفصحى هو بحث
صالح الطعمة :

=

مناهج علم اللغة — هو المقابلة بين لغتين اثنتين أو لهجتين اثنتين أو لغة ولهجة أى بين مستويين لغويين متعاصرين . ويهدف علم اللغة التقابلي إلى اثبات الفروق بين المستويين ، ولذا فهو يعتمد أساساً على علم اللغة الوصفي . فإذا كان المستويان اللغويان قد وصفا وصفاً دقيقاً بمنهج لغوي واحد أمكن بحثهما بعد ذلك بالمنهج التقابلي . واثبات الفروق بين المستويين يوضح جوانب الصعوبة في تعليم اللغات ، فإذا كان أحد أبناء اللغة الانجليزية يود تعلم العربية فالصعوبات التي تواجهه ترجع في المقام الأول إلى اختلاف لغته الأم وهي الانجليزية عن اللغة التي يريد تعلمها وهي العربية . هناك فروق فردية تجعل بعض الافراد قادرين على تعلم اللغات الأجنبية أسرع من غيرهم ، ولكن علم اللغة التقابلي لا يهتم بهذه الفروق الفردية بل يهتم بالفروق الموضوعية . ولذا فهو يقابل مستويين لغويين اثنين بهدف بحث أوجه الاختلاف بينهما والتعرف على الصعوبات الناجمة عن ذلك . فالصعوبات التي تواجه أبناء اللغة اليابانية في تعلمهم للعربية ليست هي الصعوبات التي تواجه أبناء اللغة الاسبانية أثناء تعلمهم للعربية . وبالمثل فتعلم اللغات الأجنبية للعرب تختلف صعوباته باختلاف اللغة المنشودة . وتحديد الصعوبات الموضوعية يتم عن طريق المقابلة بين اللغتين اللغة الأم واللغة المنشودة ، وهذا مجال علم اللغة التقابلي ، أما تحويل هذا إلى برامج تطبيقية مع التوسل بكل الوسائل التعليمية الحديثة فهو موضوع علم اللغة التطبيقي .

٦ - علم اللغة والبحث النحوي :

وهناك مصطلح آخر يستخدم كثيراً مرادفاً لمصطلح Linguistics مصطلح Grammatik ، أو Grammaire ، أو Grammar . فكثير من الباحثين الاوربيين

= Salih J. Altoma, The Problem of Diaglossia in Arabic, Harvard University Press 1969.

ويقارن اللهجة العراقية باللغة الفصحى .

في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ألفوا كتباً في النحو المقارن . وتضم هذه الكتب فصلاً في الأصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة . وبذلك كان المقصود من علم النحو المقارن نفس المقصود من علم اللغة المقارن ، فسكان الكلتين قد استخدمتا مترادفين يوديان نفس المعنى (١) . وإذا نظرنا في المؤلفات اللغوية الأوروبية الحديثة نلاحظ حديثهم تارة عن النحو المقارن Comparative Linguistics ، وتارة أخرى عن علم اللغة المقارن Comparative Linguistics ، كما نجدهم يكتبون عن النحو الوصفي Descriptive Grammar ، أو عن علم اللغة الوصفي Descriptive Linguistics ، ثم نجدهم يؤلفون في النحو التاريخي Historical Grammar ، أو علم اللغة التاريخي Historical Linguistics ، وعلى الرغم من اختلاف مسميات هذه الكتب فإنها تدلنا على أن كلتي Grammar و Linguistics (أي علم اللغة) تستخدمان نفس الاستخدام في إطار البحث العلمي (٢) .

(١) من أشهر المؤلفين كارل بروكلمان C. Brockelmann وعنوان كتابه في النحو المقارن لغات السامية :

Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen (Berlin 1908 - 1913).

تناول بروكلمان هذه القضايا في كتاب صغير له صدر بعد ذلك بعنوان : Semitische Sprachwissenschaft أي « علم اللغات السامية المقارن »

(٢) أما النحو بالمعنى التعليمي المياري أي بهدف وضع ضوابط الاستخدام اللغوي الصحيح لأبنية المفردات وأبنية الجمل فهو مختلف - فيما يبدو - عن علم اللغة فعلم اللغة يبحث اللغة أو اللغات بهدف كشف جوانبها المختلفة ، لا بهدف الحكم بالخطأ والصواب على الاستخدام اللغوي ، ولم يكن ثمة لقاء بين علم اللغة باعتباره علماً أساسياً =

موضوع علم اللغة العام نظرية اللغة ومناهج البحث فيها^(١). والأساس النظرى لعلم اللغة العام أن اللغة ظاهرة انسانية عامة تؤدى نفس الوظائف فى المجتمعات الانسانية على اختلافها . وتتألف بنيتها دائماً من أصوات تنتظم فى كلمات تكون الجمل لتؤدى الدلالات المختلفة . ومن هذا المنطق يهدف علم اللغة العام إلى وضع نظرية شاملة فى بنية اللغة وكيفية تحليل هذه البنية إلى عناصرها التى تجعل منها وسيلة للتعامل فى الجماعة اللغوية . وهذه النظرية ليست مجرد فكر نظرى فلسفى ولكنها ثمرة الدراسات المنهجية والتطبيقية فى اللغات المختلفة ، فهى نتاج التحليل العلمى لأبنية لغوية مختلفة ونتاج معرفة السمات الأساسية التى توجد فى كل لغة من اللغات الانسانية والى لا بد من وجودها لسكى تؤدى اللغة وظيفتها .

ويقوم علم اللغة العام أيضاً برسم الاسس المنهجية للتحليل اللغوى من جوانبه الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية^(٢) . فإذا كانت أصوات اللغات تبدو

== والنحو باعتباره علماً تطبيقياً . واليوم يقوم علم اللغة التطبيقى Applied Linguistics وهو أحدث مناهج علم اللغة بالدراسة العلمية لسكيفية تعليم اللغات الأجنبية والقومية مستخدماً فى هذا نتائج علم اللغة وعدداً آخر من العلوم . وبهذا تم لقاء جديد بين علم اللغة وتعليم اللغات .

(١) من أهم كتب علم اللغة العام كتاب دى سوسير (انظر ملاحظه رقم ١ ص ٣٢) والكتب الأساسية التالية :

E. Sapir, Language (New York 1951).

L. Bloomfield, Language (New York 1933).

H.A. Gleason, An Introduction to Descriptive Linguistics (New York 1955).

=

(٢) من أهم الكتب المنهجية :

قضايا البحث في علم اللغة Linguistics

Lexico logy	Syntax	Morphology	Phonology	المناهج
علم المعجمات	بناء الجملة	بناء الكلمة	الاصوات	القطاعات
الدراسة المعجمية للمستوى اللغوى واحد	الوصف النحوى للدراسة النحوية الوصفية	الوصف الصرفى للدراسات الوصفية الصرفية	الوصف الصوتى للدراسات الوصفية الصوتية	علم اللغة الوصفى (لمستوى لغوى بعينه) Descriptive Linguistics
الدراسة المعجمية التاريخية	التاريخ النحوى للدراسة النحوية التاريخية	التطور الصرفى للدراسة التاريخية الصرفية	التطور الصوتى للدراسة التاريخية الصوتية	المنهج التاريخى Historical Linguistics
الدراسة المعجمية التأسيسية	المقارنات النحوية النحو المقارن	المقارنات الصرفية للدراسة الصرفية المقارنة	المقارنات الصوتية للدراسة الصوتية المقارنة	المنهج المقارن (للغات من أسرة لغوية واحدة) Comparative Linguistics
الدراسة المعجمية التقابلية	الدراسة النحوية التقابلية	الدراسة الصرفية التقابلية	الدراسة الصوتية التقابلية	المنهج التقابلى (للغتين اثنتين) Contrastive Linguistics

لأول وهلة مختلفة متنافرة فإن كل أصوات اللغات تصدر من الجهاز الصوتي
الإنساني ، وهو مشترك عند كل البشر ، ولذا فهناك أصوات كثيرة تتكرر في
أكثر اللغات ، وهناك وسائل محددة تتوسل بها اللغات المختلفة للتمييز بين أصواتها ،
فالتعرف على هذه الجوانب والاستفادة من خبرات الباحثين في اللغات المختلفة
لوضع نظرية شاملة في بنية اللغة بما يدخل في علم اللغة العام . وهناك وسائل محددة
تتبعها اللغات المختلفة للتمييز بين الكلمات وتصنيفها في مجموعات ، وهناك إمكانيات
أخرى توضح كيفية تركيب الكلمات في جمل لأداء المعاني المختلفة ، فكل اللغات
مثلاها جمل شرطية وجمل استفهامية الخ . . . والتعرف على هذه الوسائل وعلى
منهج تحليل اللغة من هذه الجوانب جزء من علم اللغة العام . وهناك معاجم كثيرة
ألفت للغات مختلفة ، بلورت أثناء إعدادها مناهج دقيقة في العمل المعجمي ، وهذه
الأسس المنهجية الناجمة عن العمل التطبيقي جزء من علم اللغة العام .

وفضلا عن هذا يهتم علم اللغة العام ببيان طبيعة العلاقات المؤثرة في حياة اللغة
في المجتمعات الإنسانية^(١) . فاللغة لا تعيش في فراغ ، بل لابد لها من جماعة

N.S. Trubetzkoy, Grundzüge der Phonologie. Prag 1933. Götti-
ngen 1967.

وترجمته J. Cantineau إلى اللغة الفرنسية (باريس ١٩٤٩ ، ١٩٦٧) بعنوان

Principes de Phonologie- Paris 1949, 1967

E-A. Nida, Morphology. The descriptive Analysis of Words; Ann
Arbor. Mich. 1946' 1967.

N. Chomsky, Syntactic Structures, The Hague 1957.

S. Ullmann, Principles of Semantic, Oxford 1957.

(١) انظر مثلا الدراسات المنشورة في :

J.A. Fishman, Ch. A. Ferguson, J. D. Gupta, Language
Problems of Eeveloping Nations. New York 1964. =

تستخدمها حتى تصبح لغة ، وهنا يهدف علم اللغة العام إلى إيضاح الجوانب الحضارية المختلفة التي تؤثر في حياة اللغة ، ويحاول إيضاح عوامل انتشار اللغات وموتها وعوامل التجديد اللغوي ومشاكل الازدواج اللغوي وغير ذلك من المشكلات التي تتكرر في مجموعات انسانية مختلفة . إن كل بحث دقيق يعد حول بنية أية لغة أو وظائفها في المجتمع هو بحث يفيد علم اللغة العام ، ولذا تتطور النظرية العامة للغة ولماهاج بحثها بتطور الأبحاث الجزئية في اللغات واللهجات المختلفة .

إن علم اللغة الحديث يحاول بتطوير مناهجه وبالإصرار على الدقة العلمية أن يصل إلى نتائج دقيقة . ولذلك استبعدت من البحث في اللغة تلك الموضوعات التي لا يمكن بحثها بمنهج دقيقة ، وأشهر هذه الموضوعات نشأة اللغة ، ومرجع الاهتمام القديم بهذا الموضوع إلى الدين ، فقد تسكنت عند الجماعات الدينية المختلفة آراء راسخة نسبياً حول نشأة اللغة الإنسانية ، فاليهود يصرون على كونها هي العبرية ومسيحو الشرق يحملونها السريانية ، وحوار المؤلفون العرب بين جعلها العربية أم السريانية^(١) . وإذا كان المفكر العربي ابن حزم قد وجد أنه من العبث التفكير في اللغة الأولى عند الإنسان ونسبتها إلى الدين دون دليل^(٢) ، فإن علم اللغة الحديث لا يتناول البحث في قضية نشأة اللغة الإنسانية لعدم وجود منهج علمي لبحث ذلك . لقد حاول بعض الباحثين في القرن الماضي إعادة تكوين عدد من اللغات الموهلة في القدم مثل اللغة الهندية - الأوربية الأولى واللغة السامية

J D. Gupta, Language Conflict and National Development, =
University of California Press 1970.

ابراهيم أنيس : اللغة بين القومية والعالمية ، القاهرة ١٩٧٠ .

(١) السيوطي : المزهري في علوم اللغة ١ / ٣٠ - ٣٥ .

(٢) ابن حزم : الأحكام في أصول الأحكام ١ / ٣٠ .

الأولى . واللغة الهندية - الأوربية الأولى هي الأصل المفترض الذي خرجت عنه كل لغات الأسرة الهندية - الأوربية المختلفة . ولكن محاولات إعادة تكوين اللغة الهندية - الأوربية الأولى واللغة السامية الأولى لم تنجح إلا في التعرف على بعض الخصائص المغرقة في القدم ، ولكن من الصعب القول بأن هذه الأبحاث استطاعت أن ترسم الملامح الكاملة للغات بادت منذ عصور سحيقة . ولهذا عزم الباحثون المحدثون عن البحث في المراحل التي لم تصل إلينا في النقوش والنصوص ، وأصبح البحث في اللغة لا يهتم إلا بالمراحل التاريخية والمعاصرة . فعلم اللغة يبدأ حين نجد نقشا قديما أو نصا مدونا ، وليس من الممكن أن يمضي الباحث في تأريخه الأسرة اللغوية إلى المراحل السابقة على تدوين أقدم النقوش المكتوبة ، فنشأة اللغة تخرج تماما عن مجال البحث في علم اللغة . وعلم اللغة يشبه في هذا علم التاريخ في أن كليهما يبدأ من أقدم الكتابات والرسوم تاركا لعلم ما قبل التاريخ بحث المراحل السابقة على ذلك .

٨ - التسميات المختلفة لعلم اللغة

من المفيد في هذا الصدد ايضاح التسميات المختلفة لمجالات علم اللغة ومناهجه ، في محاولة لإزالة الغموض القائم عند البعض نتيجة لكثرة التسميات وغموضها وتداخلها .

يطلق البعض على علم علم اللغة عدة تسميات :

١ - **فقه اللغة** : (بمعنى : علم اللغة المقارن ، أو بمعنى : دراسة الألفاظ العربية ، أو بمعنى : الدراسة المقارنة للألفاظ العربية في ضوء اللغات السامية ، أو بمعنى : بحث الأصوات في الفصحى ، أو بمعنى : بحث اللهجات القديمة والحديثة) .

(٢) **علم اللغة** : (بمعنى : علم اللغة العام ، أو بمعنى : دراسة الأصوات في الفصحى ، أو بمعنى : دراسة اللهجات ، أو بمعنى : دراسة الدلالة) .

(٣) علم اللسان : بنفس المعاني المتعددة المذكورة .

(٤) واللسانيات (في جامعة الجزائر)

(٥) والالسنية (في الجامعة التونسية)

(٦) واللسنيات ، للدلالة على نفس المجالات .

(٧) النحو المقارن (بمعنى : دراسة بناء الكلمة (٤) في اللغات السامية .)

(٨) اللغويات (محاكاة للكلمة الإنجليزية linguistics) ، وتناول في أكثر الأحوال ما يدرس في أقسام اللغة الإنجليزية من تدريبات نحوية ، مع مدخل عن نظرية اللغة والبحث الصوتي وتاريخ اللغة . وتستخدم الكلمة أيضاً في الأزهر بعد محاولة تطويره .

وتتداخل هذه المصطلحات مع بعضها البعض تداخلاً لا يفيد العلم ، كما تتداخل مع اصطلاحى النحو والصرف . وقد أدى هذا إلى تمزق مجالات البحث العلمى فى اللغة وإهمال كثير من قضاياها وإلى عدم وضوح فى تصور الكثيرين اتجاه جوانبه المتكاملة . ولذا نرى ضرورة ترك الدلالات الموروثة من الماضى للحديث فى تاريخ العلم ، واستخدام تسمية موحدة واضحة (علم اللغة) ، تخصص بعد ذلك بصفة (المقارن / التاريخى / الوصفى / التقابلى / التطبيقى) ، ويضم كل منها قطاعات الأصوات / الكلمة / الجملة / الدلالة) .

٩ علم اللغة وعلم النفس

ترجع العلاقة بين علمى اللغة والنفس إلى طبيعة اللغة باعتبارها أحد مظاهر السلوك الإنسانى . فإذا كان علم النفس يعنى بدراسة السلوك الإنسانى عموماً فإن دراسة السلوك اللغوى تعد أحد جوانب الالتقاء بين علم اللغة وعلم النفس لقد اهتمت المدرسة السلوكية Behaviorism بالسلوك اللغوى (١) ،

(١) حول السلوكية والسلوك اللغوى ، انظر :

وكان لها أثر كبير في البحث اللغوي الأمريكي في النصف الأول من القرن العشرين ، ولكن ثمة فرقا بين بحث اللغويين وبحث علماء النفس في قضايا اللغة .

يهتم علم اللغة بالمعبارات المنطوقة عند صدورها من الجهاز الصوتي للمتحدث وأثناء مرورها في الهواء وعند تلقي الجهاز السمعى للمخاطب لها . ومعنى هذا أن العمليات العقلية السابقة على صدور العبارات المنطوقة لا تدخل في إطار علم اللغة . والعلاقة بين الجهاز العصبي والجهاز النطقي عند المتحدث ليست من مجالات البحث اللغوي ، فاللغويون يهتمون باللغة عند صدورها ولا يهتمون بالعمليات العقلية السابقة على ذلك ، فهي موضوع من موضوعات البحث في علم النفس . وعندما تفصل اللغة إلى الجهاز السمعى للمتلقى ويقوم بنقلها إلى الجهاز العصبي تحدث عمليات عقلية أخرى يبحثها علم النفس أيضا . أما تلك الظاهرة الصوتية التي تصدر عن المتحدث وتمضى في شكل موجات صوتية فتصل إلى المتلقى فهي اللغة ، وهي مجال البحث في علم اللغة (١) .

وهناك فرق أساسي بين منهج اللغويين وعلماء النفس تجاه الظواهر اللغوية ، فقد صرف علماء النفس جهودهم إلى اكتشاف قوانين عامة تفسر السلوك الانساني، وركزوا جهودهم على الظواهر العامة مثل التعلم والادراك والقدرات . ولكنهم لم يهتموا بمحتوى السلوك نفسه . ففي بحث قضية التعلم لم يهتموا بالمادة المنشودة التي

J.B. Watson. : An Introduction to comparative Psychology, Holt, Rinehart 1914, Psychology from the standpoint of a behaviourist, Lippencott 1919.

B.F. Skinner, Verbal Behaviour. Appelton 1957.

وكذلك : فؤاد أبو حطب في : السلوكية في علم النفس ، عالم مفكر (١٩٧٣)

١/٤ من ١٦٧ - ٢٠٠ .

Bloomfield, Language

(١) انظر :

(م ٤ - أسس علم اللغة)

تعلم ، بل كان اهتمامهم مركزا على عملية التعلم باعتبارها عملية عقلية^(١) . وفي السنوات الاخيرة حاول بعض الباحثين النظر إلى اللغة من الجانبين ، فلم تعد الاستجابات اللغوية Verbal responses تدرس باعتبارها ضربا من الاستجابات لحسب بل روعيت البنية اللغوية في ذلك أيضا . ويتضح هذا من مقارنة الدراسات السابقة حول اللغة عند الطفل بالدراسات المعاصرة ، فهي تبحث نفس الموضوع بطريقة اللغويين ، أي بتحليل لغة الطفل من جوانبها الصوتية والتحريرية والدلالية^(٢) . وقد أفاد علماء النفس في السنوات الاخيرة من مناهج التحليل اللغوي في مجتمه للسلوك اللغوي ، ولكن هذا لا يمنع من تحديد مجال اختصاص كل من الفريقين .

فمجال الدراسة النفسية للغة هو كيفية تحويل المتحدث للاستجابة إلى رموز لغوية to encode ، وهذه عملية عقلية تتم عند الانسان ، وينتج عنها إصدار الجماز للصوت للغة . وعندما تصل اللغة إلى المتلقى ويقوم بفك هذه الرموز اللغوية في العقل إلى المعنى المراد to decode تتم عملية عقلية أخرى تدخل في إطار علم النفس أيضا . أما تلك الرموز الصوتية التي تنتقل من المتحدث عبر الهواء

(١) انظر التقرير العلمي العميق الذي كتبه كارول استاذ علم النفس بجامعة هارفارد حول علم اللغة والعلوم المرتبطة به والمنشور بعنوان :

Caroll, The Study of Language, Harvard University Press 1953, 1966.

ويتناول للفصل الثاني من الكتاب : علم اللغة وعلم النفس .

(١) انظر مثلا كتاب :

P. Menyuk, The Acquisition and Development of Language.

الصادر في سلسلة :

The prentice-Hall-Series in Developmental Psychology 1971.

إلى المتأق ، فهى مجال البحث فى علم اللغة . ويرى بعض اللغويين وعلماء النفس أن دراسة السلوك اللغوى إسهام مهم لا يفهم اللغة فحسب بل لتكوين النظرية العامة لعلم النفس ، وقد تطورت الدراسات اللغوية والنفسية فى العشرين عاماً الماضية لتجعل من جوانب اللقاء بين علم النفس وعلم اللغة فرعاً مستقلاً بذاته هو علم اللغة النفسى (١) psycholinguistics .

١٠ — علم اللغة والعلوم الاجتماعية

اللغة ظاهرة اجتماعية حضارية ، ولذا يلتقى فى بحثها علم اللغة مع العلوم الاجتماعية المختلفة . وهناك عدة تسميات أطلقت على جوانب اللقاء بين علم اللغة والعلوم الاجتماعية فى بحثها للغة . وتعددت هذه التسميات بتعدد أسماء العلوم الاجتماعية ومدارسها المختلفة وليس من شأننا هنا أن ندخل فى اختلافات التسميات بين العلوم المتداخلة ، ويكفى أن نشير إلى جوانب اللقاء الكثيرة بينها وبين علم اللغة (٢) . لقد أفاد الباحثون فى العلوم الاجتماعية من نتائج البحث اللغوى من عدة

(١) يسمى أيضاً :

Psychology of Language

علم نفس اللغة

Linguistic psychology

علم النفس اللغوى

F. Carroll, P. 70.

انظر :

وقد جمعت مجموعة دراسات فى علم اللغة النفسى ضمن كتاب :

Sol Saporta Psycho—linguistics, Holt, Winston 1966.

(٢) يطلق على دراسة القضايا اللغوية فى ضوء العلوم الاجتماعية عدة تسميات :

Sociology of Language

علم الاجتماع اللغوى

Sociolinguistics

علم اللغة الاجتماعى

Ethno —Linguistics

علم اللغة الأثنولوجى

جوانب منها أن اللغة أهم مظاهر السلوك الاجتماعي وأوضاع حياتها الاجتماعية للفرد . وأفاد اللغويون كذلك من الدراسات الاجتماعية، فدراسة الألفاظ ودلالاتها على نحو دقيق لا تتم إلا في إطارها الاجتماعي والحضارى ، والتغير اللغوى لا يفسر تفسيراً كاملاً إلا في ضوء الظروف الحضارية والاجتماعية . وإلى جانب هذا تؤثر المواقف الاجتماعية من مستويات اللغة في مكانة هذه المستويات وتحدد مسار التغير فيها . هناك قضايا لغوية كثيرة لا يمكن اتضاح معالمها الكاملة إلا بالتعاون بين الدراسات اللغوية والحضارية (١) .

١١ — علم اللغة وتعليم اللغات :

يعد علم اللغة التطبيقي Applied Linguistics ثمرة التقاء بين علم اللغة والتربية . موضوع علم اللغة التطبيقي هو الاستفادة من علم اللغة بمناهجه ونتائج دراساته ، وتطبيق هذا كله في مجال تعليم اللغات . لقد كان علماء اللغة في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين يهتمون في أبحاثهم المنهج المقارن، ولم يكن ثمة لقاء بين دراساتهم وعلم التربية . ولكن البحث الوصفي للغات والتقدم الذى أحرزه علم اللغة العام في القرن العشرين أوضحوا حقائق كثيرة عن بنية اللغة وحياتها . وبدأ المختصون فى تعليم اللغات

Anthropological linguistics

علم اللغة الانثروبولوجى

Linguistic Anthropology

علم الانثروبولوجيا اللغوية

وحول تاريخ اللقاء بين علم اللغة والعلوم الاجتماعية :

محمود فهمى حجازى : أصول البنيوية فى علم اللغة والدراسات الاثنولوجية ،

عالم الفكر (١٩٧٢) ١/٣ ص ١٥١ — ١٨٠ .

(١) انظر مجموعة البحوث المنشورة فى :

Dell Hymes, Language in culture and Society, New York 1965.

P.P. Giglioli, Language and Social context (Penguin 1972).

وخصوصاً في العشرين عاماً الماضية يحاولون تطبيق مناهج علم اللغة ونتائجها في تعليم اللغات^(١). فلم تعد اللغة الأجنبية تعلم باعتبارها ظاهرة مكتوبة بل باعتبارها ظاهرة صوتية في المقام الأول. بدأ الاهتمام بالنطق يحتل المكان الأول في تعليم اللغات، فهو الأصل، أما الكتابة فهي ظاهرة تابعة، ومن ثم أصبح من المنفق عليه في علم اللغة التطبيقي أن يعد تعليم النطق أساساً لتعليم الكتابة. فيبدأ تعليم اللغة بالجانب الصوتي ثم تأتي كيفية الكتابة بعد ذلك، مع ملاحظة أن الفرق بين البنية الصوتية للغة ونظام كتابتها يشكل صعوبات التدوين، ومن ثم ينبغي الإشارة إليها باعتبارها ظواهر خاصة بالكتابة لا باللغة.

وإذا كان علم اللغة التقابلي يتم بمقارنة أي مستويين لغويين بهدف لإثبات الفرق بينهما، فإن مقارنة اللهجة المحلية التي اكتسبها التلميذ في طفولته باللغة

(١) اهتمت كثير من الدول بالاستفادة من علم اللغة التطبيقي في نشر لغاتها وتعليمها للجانب وأنشئت مراكز لعلم اللغة التطبيقي مثل:

Center for applied Linguistics. Washington.

Centre de recherche et d'étude pour la diffusion du Français
=Paris (CREDIF)

ومركز الدراسات التابع لمعهد جوته Goethe — Institut في ميونخ
وتسكونت في السنوات الماضية عدة جمعيات علمية لعلم اللغة التطبيقي وعقدت
مؤتمرات دولية كثيرة في السنوات الماضية لبحث قضايا علم اللغة التطبيقي (١٩٧٢)
وانظر حول هذا الاتجاه الجديد في تعليم اللغات:

R. Lado, Language Teaching, New York (1970).

M. de Grève, Linguistique et Enseignement des langues
étrangères (1970)

الادبية التي ينبغي له أن يتعلمها توضح لنا الصعوبات التي تواجهه في ذلك . ولذا تعد الدراسات اللغوية التقابلية من أهم أدوات البحث في وضع برامج تعليم اللغة القومية ، كما أنها تفيد بنفس القدر في تحديد الصعوبات التي تواجه أبناء جماعة لغوية ما في تعلمهم للغة أجنبية . وبذلك تستطيع الدراسة التقابلية أن تحدد بطريقة موضوعية جوانب الصعوبة الناجمة عن اختلاف بنية اللغتين : اللغة الأم واللغة المنشودة (١) .

وإذا كان علم اللغة قد أوضح أن المعنى هو حصيللة الاستخدام في المواقف الكلامية والثقافية المختلفة وأن إيماءات الرمز اللغوي هو حصيللة استخدامه في هذه المواقف فإن تعليم اللغات أخذ يضع في اعتباره أن دلالة الكلمة أو العبارة لا تتضح عند التلميذ إلا إذا درست مرتبطة بمواقف استخدامها . فاستظهار قوائم المفردات لا يعنى إدراك إيماءات المعنى المراد ، ودلالة الالفاظ لا تكسب إلا في مواقف استخدامها ، ولا تعلم إلا في مثل هذه المواقف أو ببيان هذه المواقف .

لقد أثبت علم اللغة وجود مستويات متنوعة للاستخدام اللغوي ، ولذا ينبغي تحديد المستوى اللغوي المراد وعدم قضاء الوقت في تعلم مستويات لغوية متداخلة دون وعى بالمستوى اللغوي المنشود (٢) ، ولابد من تحديد هذا المستوى في ضوء الأهداف الحضارية والثقافية والاجتماعية المختلفة ، فتعلم لغة من اللغات بهدف التعامل اليومي بها يختلف عن تعلمها بهدف قراءة المؤلفات الطيبة بها ، وتعليم

(١) اللغة المنشودة = target language أى اللغة المراد تعلمها .

(٢) تهم بعض مراكز بحوث تعليم اللغات بقضية الاستخدام اللغوي في مجال التخصص وقد بحث المعهد المركزى للإنجليزية Central Institute of English في حيدر أباد بالهند الاستخدام اللغوي المحدود restricted Language بهدف تحديد ما يلزم الطالب الهندي من الإنجليزية لقراءة كتب العلوم الطبيعية وما يلزمه

اللغة بهدف قراءة كتب الفيزياء أو الرياضيات يختلف عن تعليمها لقراءة الصحف ،
فهذه المستويات متنوعة متفاوتة .

١٢ - علوم اللغة بين العلوم :

هناك فرق أساسي بين مكانة علوم اللغة في التراث العربي ومكانة علم اللغة بين العلوم الحديثة . فإذا كانت مدارس علم اللغة المتتابعة عبر القرون تختلف في مناهج التحليل اختلافا كبيرا فإن الفرق الأساسي بين علم اللغة في التراث العربي وعلم اللغة الحديث ينبع من مكان علم اللغة بين العلوم . كان البحث اللغوي عند العرب أداة لفهم الدين ، وقد ارتبط منذ نشأته بالبحث في لغة القرآن الكريم . وظل هذا الارتباط قائما في الدوائر العلمية على مدى القرون ، وظهر هذا بصفة خاصة عند المؤلفين المسلمين من غير العرب ، مثل الثعالبي وأبي حاتم الرازي والحوارزمي والتهانوي فالثعالبي يرى العربية خير اللغات والألسنة والاقبال على تفهيمها من الديانة ، إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين ،^(١) . وقد جعل أبو حاتم الرازي اللغات العربية والعبرية والسريانية والفارسية أفضل لغات الأرض لأن الكتب الدينية دونت بها ، فالعيار الديني هو معيار تفضيل لغة على لغة ، ومن ثم فهو يرفض أيضاً الرأي القائل بفضل اللغة اليونانية والهندية لأن كتب الفلاسفة والأطباء وأصحاب النجوم والهندسة والحساب بها^(٢) . لقد كانت

== لقراءة كتب العلوم الاجتماعية الخ ... وقد أصدر مركز CREDIF في فرنسا عدة كتب في هذا الاتجاه أى حول *Les langues des specialités* تناولت هذه فروع للمعرفة ، وتعمل هذه المراكز الآن في تطوير الوسائل التربوية المناسبة للأفادة في هذه البحوث اللغوية .

(١) فقه اللغة ص ١ ، ط ١٩٥٤ .

(٢) كتاب الويثة ، ص ٦١ .

العلوم الدينية تشغل حيزاً كبيراً من الاهتمام العلمي في مجال الحضارة الإسلامية . وكان الاهتمام بعلوم اللغة جزءاً من المدرسة الهادفة إلى التعمق في الدين . فعندما صنف الخوارزمي العلوم التي عرفتها الحضارة الإسلامية جعلها في مجموعتين : العلوم الشرعية وما يقترن بها من العلوم العربية ، ثم : علوم المعجم من اليونانيين وغيرهم من الأمم^(١) . ونجد في مقدمات كتب كثيرة إشارات إلى أن الدراسة اللغوية أداة من أدوات فهم نصوص القرآن والحديث ، فإن القوطية — مثلا — قدم لكتابة الأفعال بأنها أصول مبادئ أكثر الكلام . . . وبعلمها يستدل على أكثر علم القرآن والسنة^(٢) . وقد عد ابن خلدون معرفة علوم اللسان العربي ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة ، وهي بلغة العرب ، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ، وشرح مشكلاتها من لغاتهم^(٣) .

وعندما قسم ابن خلدون العلوم إلى علوم مقصودة بالذات وعلوم آلية ، عد علوم اللغة من العلوم الآلية باعتبار أنها مجرد وسيلة لفهم العلوم الشرعية . ولذا فالبحث اللغوي عند ابن خلدون ليس هدفاً في ذاته^(٤) ، بل إنه يرى الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعاً للمعمر وشغلاً بما لا يعني^(٥) ، وتنصح هذه الفكرة عند التهانوي الذي جعل علم اللغة من فروع الكفاية التي تسقط عن الكل إذا قام بها البعض ، فعلم اللغة لم يكن مستقلاً بذاته ، ولم يكن إلا وسيلة لفهم النصوص الدينية ، أو كما يقول

-
- (١) مفاتيح العلوم ، ط القاهرة ١٣٤٢ ، ص ٤ .
 - (٢) كتاب الأفعال لابن القوطية ، تحقيق : علي فودة ١٩٥٢ ، ص ١ .
 - (٣) مقدمة ابن خلدون ١٢٥٤ . (ط وافي — القاهرة ١٩٦٢)
 - (٤) مقدمة ابن خلدون ١٢٣٨ .
 - (٥) مقدمة ابن خلدون ١٢٣٩ ، وقد ردد هذه الفكرة حسين المرصفي في الوسيلة الأدبية (ط ١٩٢٤/٢ ، ١٠٦/١) .

التهاوى : « آلة لتحصيل العلم بالشرعيات »^(١) وتوضح هذه النصوص موقفا عاما من علوم اللغة في إطار الحضارة الاسلامية ، فقد كان الاشتغال بعلوم اللغة أداة لفهم العلوم الدينية ، ولم تكن فكرة استقلال كل علم واردة في فكر المصور الوسطى ، ولم يكن الهدف العلمى واضحا في تصنيف العلوم .

ولكن التقدم العلمى فى العصر الحديث أدى إلى اتساع مجالات المعرفة عند الانسان وفرض التخصص على من يريد المشاركة فى البحث العلمى ، وهنا أخذ علم اللغة يستقل بنفسه شأنه فى هذا شأن فروع المعرفة الأخرى ، وإذا كان ثمة ضرورة لتصنيف العلوم فى العصر الحديث فإن علم اللغة يشغل فى التصنيف العشرى لديوى^(٢) مكانا وسطا بين علم الاجتماع والعلوم الطبيعية . وفى هذا إدراك واضح لمكان علم اللغة الحديث بين العلوم والمعارف الحديثة .

لم يعد علم اللغة مجرد وسيلة لفهم النصوص الدينية أو أداة لفهم النقوش القديمة لحسب ، بل له أيضا أهدافه العملية العامة بجانب الأهداف التطبيقية الكثيرة . فعلم اللغة علم أساسى بمعنى أنه يحاول — مثل باقى العلوم الأساسية الأخرى — كشف جوانب موضوعه بأدق المناهج العملية . أما الأهداف التطبيقية مثل الإفادة من نتائج علم اللغة فى تعليم اللغات والتخطيط اللغوى فأتى ثمره طبيعية لدراسات الأساسية . ولكن علم اللغة لا يهدف بطريقة مباشرة نحو هذه القضايا التطبيقية ، وهذا أيضا شأن كل فروع المعرفة العلمية .

= فروض الكفاية ... وعلم الطب من فروض الكفاية أما التعمق فى الطب فليس بواجب . انظر : كشاف اصطلاحات الفنون ١/٧٣ . ومنطلق فكرة التهاوى فى تصنيفه للعلوم هو اعتبار الدنيا مرحلة إلى الآخرة وأن العمل من أجل الآخرة هو طريق الصلاح فى الدنيا والآخرة سبب استقامة الدنيا وفى استقامتها استقامتها ، المرجع المذكور ١/٧٤ .

Dewey Decimal Classification

(١) انظر :

لقد أصبح علم اللغة علماً مستقلاً هدفه الأساسي بحث كل جوانب اللغة والحياة اللغوية في العالم . ويقدم علم اللغة هذه النتائج ، فتكون متاحة لعدة تخصصات وعلوم تستفيد من علم اللغة ومن غيره . وما أكثر العلوم التي تتعامل بنتائج علم اللغة ، منها : علم الأصوات العلاجي ، علوم التربية ، علم النفس ، والعلوم الاجتماعية وهندسة (أجهزة) الاتصال Communication Engineering الخ : وإذ كان ابن خلدون وغيره قد اعتبروا الحساب أداة للعلوم الدينية^(١) ، فلم يعد أحد يعتبر الرياضيات مجرد وسيلة لتنظيم المعاملات الفقهية . وإذا كانت الرياضيات قد أصبحت علماً مستقلاً ، وأصبح للطب الذي كان فرض كفاية^(٢) فروع كثيرة مستقلة ومتكاملة ، فإن علم اللغة قد أصبح علماً مستقلاً يبحث اللغة ويستفيد من كل فروع المعرفة التي تثير له جوانب مختلفة في بحث اللغة ، فإلى جانب الإفادة من أجهزة القياس الصوتي والوسائل الإحصائية ونتائج علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء وعلم فيزياء الصوت فإن علم اللغة يرتبط بأوثق الوشائج مع العلوم الإنسانية الأخرى ، مثل : علم النفس وعلم الاجتماع . ولذا يصفه البعض بأنه أكثر العلوم الدقيقة إنسانية وأكثر العلوم الإنسانية دقة .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٣٨ .

(٢) كشف اصطلاحات الفنون للتهانوي ١/٧٣ .

الفصل الثالث

علوم اللغة في التراث العربي

اهتم عدد من الباحثين العرب بعلوم اللغة منذ بداية الحركة العلمية في إطار الدولة الإسلامية ، فكانت لهم جهودهم في مجالات الاصوات وبناء السكلمة وبناء الجملة والمفردات . وكان المشتغلون بعلوم اللغة يصنفون إلى مجموعتين ، تهتم المجموعة الأولى ببنية اللغة ، وتهتم المجموعة الثانية بمفردات اللغة ودلالاتها . وقد وصف مجال البحث عند المجموعة الأولى بأنه « النحو » أو « علم العربية » ، بينما وصف مجال بحث المجموعة الثانية بأنه « اللغة » أو علم اللغة ، أو فقه اللغة ، أو « متن اللغة » . وإلى جانب هذه المصطلحات ، ولكل منها تاريخ مستقل ، وجدت محاولات لوصف علوم اللغة بجمعة ، فسميت « علم اللسان » أو « علوم اللسان العربي » أو « علوم الأدب » أو « العلوم العربية » ، كما وجدت إلى جانب هذا محاولات لبيان ترابط هذه الأفرع وايضاح النسق الذي يتخذه كل منها في إطار البحث اللغوي العام

١ - النحو وعلم العربية :

أطلق علماء اللغة على دراسة بنية اللغة من جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية في التراث العربي اسمين اثنين ، هما النحو ، وعلم العربية ، ويرجع مصطلح النحو إلى القرن الثاني الهجري ، وظل مستخدماً لوصف هذا المجال من مجالات البحث إلى يومنا هذا . لقد صنّف كتاب سيديويه بأنه كتاب في النحو ، ووصفه أبو الطيب اللغوي (ت ٣٥١ هـ) بأنه « قرآن النحو » ، كما وصف سيديويه بأنه « أعلم الناس

بالنحو بعد التحليل ، (١) . ويضم النحو بهذا المعنى مجموعة من الدراسات التي تصنف في علم اللغة الحديث في إطار الأصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة . إن سيويوه صاحب أقدم كتاب وصل إلينا في النحو العربي — لم يقسم كتابه إلى موضوعات كبرى متميزة ، وإنما اكتفى بمشرد الأبواب الكثيرة متتابعة . لقد بدأ كتابه بقضية الإعراب وانتقل منها إلى عدد من القضايا الخاصة ببناء الجملة ، وعندما تحول بعد ذلك إلى الأبواب الخاصة بالأبنية الصرفية وجد لزاما عليه أن يفسر بعض الأبنية في ضوء البحث الصوتي فجاءت الأبواب الخاصة بالأصوات في آخر كتابه . لم يضع سيويوه مصطلحات تميز في وضوح قطاعات الأصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة ، فكل هذا يدخل عنده في مجال واحد هو مجال النحو .

وذلل الباحثون في القرون الأولى للهجرة يستخدمون مصطلح النحو في أكثر الأحوال بهذا المعنى العام . يضم النحو في تعريف ابن جنى (ت ٣٩١ هـ) المجالات التالية : الإعراب ، التثنية ، الجمع ، التحقير ، التذكير ، الإضافة ، النسب ، التركيب وغير ذلك (٢) . فالنحو يضم عند ابن جنى هذه الدراسات التي تصنف الآن في إطار بناء الكلمة إلى جانب ما يتعلق ببناء الجملة . ويتناول علم النحو عند أبي حيان الأندلسي معرفة الأحكام للكلم العربية من جهة أفرادها ومن جهة تركيبها ، (٣) ، أي أنه يبحث بنسبة الكلمة المفردة وعلاقات الكلمات في الجملة .

(١) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي - ص ٦٥ .

(٢) الخصائص لابن جنى ١-٣٤ ، وتعريف ابن جنى للنحو : « النحو هو انتحاء سميت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتذكير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة » .

(٣) البحر المحييط لأبي حيان ١ / ٥ - ٦ . وانظر كتاب : أبو حيان النحوي لخديجة الحديثي . ص ٢١٣ .

وظل كثير من النحويين يمدون النحو شاملا لكل هذه الدراسات ، فالنحو عندهم يتناول كل ما يتعلق بالكلمة والجملة . لقد ألف ابن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ) كتاب « الكافية » في النحو ويتناول فيه القضايا الخاصة بالإعراب وبناء الجملة بينما خصص لبناء الكلمة كتابا آخر هو « الشافية » . ولكنه على الرغم من هذا التقسيم ظل ابن الحاجب يعد « التصريف » قسما من النحو لا قسيما له (١) .

وهناك مؤلفون آخرون استخدموا كلمة النحو بمدلول أضيق ، ففصروا استخدام هذه الكلمة على البحث في بناء الجملة ، وبهذا المعنى استقر المصطلح في القرون المتأخرة للحضارة العربية الإسلامية (٢) . وهناك مصطلح آخر وصف به البحث في بنية اللغة ، وهو مصطلح « العربية » ، أو « علم العربية » . لقد وصل

(١) انظر : شرح الشافية للاستراياذى (ط عبي الدين ١٩٣٩) ٦/١ .

تعريف النحو عند الأشموني : « العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي اختلف منها » (انظر : شرح الأشموني على الالفية ٥/١ ، ط النهضة بالقاهرة ١٩٥٥) ، ولكن مضمون البحث النحوي كما يتضح من الالفية عبارة عن أحكام الجملة والكلمة . وقد ذكر التهاوي التعريف التالي للنحو :

« علم يعرف به كيفية التركيب العربي صحة وسقاما وكيفية ما يتعلق بالانفاذ من حيث وقوعها فيه » ، (انظر : كشاف اصطلاحات الفنون ، مؤلف ١١٥٨ هـ ، ٢٣/١) .

(٢) قارن أيضا تعريفات النحو عند أبي حيان النحوي في الادراك ط استانبول ١٣٠٩ ص ٦٦ ، والبحر المحيط ٥/١ - ٦ ، وعند ابن خلدون في المقدمة . ١٢٥٤ .

إلينا المصطلحان في مؤلفات القرن الرابع الهجري ، فإن النديم وابن فارس يستخدمان مصطلح العربية بمعنى النحو . فعندما نوقشت قضية أولية التأليف في النحو نجد عندهما العبارة التالية : « أول من وضع العربية ^(١) ... » وظل استخدام هذين المصطلحين في كتب المشاركة في القرون التالية يمثل ظاهرة فردية محددة ، على نحو ما نجد في مؤلفات ابن الأنباري (ت ٥٧٧ هـ) ، ولكن المغاربة والاندلسيين كانوا يفضلون وصف ذلك التخصص بأنه « علم العربية » .

لقد ذكر أبو البركات بن الأنباري مصطلح العربية في مواضع كثيرة بمعنى النحو كما جاء هذا المصطلح في تراجم كثير من العلماء ، فعند يونس بن حبيب يلتقى « طلبة العربية وفصحاء الاعراب » ^(٢) . والزبيدي « أخذ علم العربية من أبي عمرو بن العلاء وعبد الله بن اسحق الحضرمي والحليل بن أحمد » ^(٣) . كما وصف ابن الأنباري كتابه الانصاف بأنه « أول كتاب صنف في علم العربية » ^(٤) حول القضايا الخلافية ، وسمى ابن الأنباري أحد كتبه في النحو « أسرار العربية » . ولكن استخدام مصطلحي العربية وعلم العربية بمعنى النحو يعد ظاهرة محدودة الانتشار عند المشاركة مثل ابن الأنباري .

-
- (١) (نزهة الالباء ص ٤٧) . انظر الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس (ط بيروت) ص ٣٨ ، ٦٦ ، والفهرست لابن النديم (ط فلوجل) ص ٣٩ ، ونفس العبارة في نزهة الالباء (ط القاهرة د . ت) ص ٤ .
- (٢) نزهة الالباء ص ٤٧ .
- (٣) نزهة الالباء ص ٢٠٥ .
- (٤) انظر مقدمة كتاب « الانصاف في مسائل الخلاف » (ط القاهرة ٦١)

ص ٥٥

أما في المغرب والاندلس فهناك نصوص كثيرة توضح تفضيلهم لمصطلح « العربية » ، ففي القرن الرابع الهجري ذكر الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ) في تراجمه لكثير من علماء الاندلس والمغرب مصطلح « العربية » ، بمعنى النحو . فإذا كان المشاركة قد كتبوا عن « النحو » و « اللغة » ، فإن الزبيدي ذكر في مواضع كثيرة « العربية » و « اللغة »^(١) : و « العربية » أو « علم العربية » ، عند الزبيدي مصطلحان دارا كثيرا في مؤلفاته بمعنى النحو^(٢) . وليس استخدام مصطلحي « العربية » و

(١) انظر العبارات التالية للزبيدي في طبقات النحويين واللغويين حيث نجد التقابل بين « (علم) العربية » ، بمعنى النحو و « (علم) اللغة » ، بمعنى بحث المفردات :
 — وكان يستفتى في السكلمة من اللغة والمسألة من العربية ، ، ص ٢٨١ .
 — وكان من أهل العلم بالعربية واللغة ، ، ص ٢٨٧ .
 — و جلب إلى الاندلس علما كثيرا من الشعر والغريب والعربية والأخبار ، ،

ص ٢٨٩ .

— وكان أستاذا في علم العربية واللغة ، ، ص ٢٩٤ .
 — و من أهل العلم بالعربية والحفظ للغة ، ، ص ٣٠٩ ، وكذلك ص ٣١٢ .
 — وكان مؤدبا عالما بالعربية ، وكان يميل إلى مذهب الكوفيين ، ، ص ٣٢٣ .
 — وكان بصيرا بالعربية حاذقا فيها ، وكان قد طالع كتاب سيبويه ونظر فيه ،

ص ٣٢١ .

وهناك مواضع كثيرة بمائلة أخرى .

(٢) واصل إلينا كتاب نحوى للزبيدي في مخطوطين اثنين :

الأول : مخطوط مكتبة الجامع المقدس بصنعاء ٧١ نحو عنوانه فيها : « الواضح في علم العربية » ، ومنه مصورة في دار الكتب بالقاهرة . والثاني : مخطوط الاسكوريال ١٩٧/٢ وعنوانه فيها : « الواضح في النحو » (انظر : لحن العامة للزبيدي ، مقدمة : عبد العزيز مطر ٨) .

« علم العربية » عند الزبيدي سمحة فردية خاصة ، فالمصطلحان وردا في كتب مغربية وأندلسية كثيرة^(١) ، كما وردا في تراجم أندلسية تناقلتها كتب الطبقات^(٢) . وهناك مواضع كثيرة عند ابن خلدون توضح أن المغاربة والأندلسيين كانوا قد اعتادوا حتى عصره التعبير عن النحو بمصطلح « العربية » أو « علم العربية » . لقد وصف ابن خلدون كتاب سيبويه بأنه في علم العربية وأن ألقية ابن مالك في العربية أيضا^(٣) . وإذا كان ابن خالويه (ت ٢٧٠ هـ) وهو أحد علماء المشرق قد استخدم عبارة « أهل صناعة النحو » ، فإن ابن خلدون وهو مغربي قد ذكر في نفس المعنى عبارة : « أهل صناعة العربية »^(٤) . وقد أطلق ابن خلدون على القواعد النحوية مصطلحين مترادفين هما : « قوانين العربية » و « القوانين النحوية »^(٥) . ومن هذا كله يتضح أن المغاربة والأندلسيين كانوا يستخدمون مصطلح العربية في الوقت الذي كان فيه المشاركة يميلون إلى مصطلح النحو .

ظل النحو عند المشاركة أو علم العربية عند المغاربة يضم الدراسات الخاصة ببنية اللغة من جوانبها المختلفة . وعندما ألف المازني (ت ٢٤٩ هـ) كتابه

(١) ووصف ابن عصفور (ت ٦٦٩) التصريف بأنه من « علم العربية » (انظر : المتع ١ / ٢٧) باعتبار أن علم العربية يضم كل ما يتعلق ببناء الجملة وبناء الكلمة .

(٢) وردت كلمة « العربية » في تراجم أندلسية نقلها السيوطي في بغية الوعاة ٧/١ ، ٨/١ ، ٩/١ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ١٢٣١ .

(٤) قارن : الحجة في القراءات السبع ص ٣٨ ، مقدمة ابن خلدون ١٢٣١ ، ١٢٧٨ .

(٥) مقدمة ابن خلدون ١٢٤٨ .

والتصريف ، لم يكن البحث في بناء الكلمة إلا جزءا من النحو بالمعنى الشامل .
 لم يضع سبويه اصطلاحا مستقلا للمعلم الذي يبحث بناء الكلمة ، ويبدو أن الماثلين
 من أوائل من خصصوا للأبنية الصرفية كتبها مستقلة ، وكتابه والتصريف ، أقدم
 كتاب مستقل كامل وصل إلينا في الأبنية الصرفية . وقد حدد ابن جنى (ت ٥٣٩١)
 مجال البحث في التصريف بأنه معرفة أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليه ،
 وأن التصريف هو الأساس الذي تقوم عليه معرفة الاشتقاق^(١) ، ولم يكن
 التصريف عند ابن جنى إلا جزءا من النحو . وألف ابن عصفور الأندلسي
 (ت ٦٦٩ هـ) في بنية الكلمة كتابه والمتع في التصريف ، والتصريف عنده
 جزء من البحث في علم العربية^(٢) . وصرح الاسترأباذي (ت ٦٨٨ هـ)
 بأن التصريف جزء من أجزاء النحو بخلاف من أهل الصناعة^(٣) .

أما مصطلح الصرف ، الذي استقر في الاستخدام المدرسي بعد ذلك فهو
 اصطلاح متأخر نسبيا . فالسكاكي (ت ٦١٧ هـ) استخدم مصطلح الصرف في
 حديثه عن الأحكام الخاصة ببنية الكلمة^(٤) ، وهذا المعنى ذكر طاشكبري زاده
 علم الصرف^(٥) . ويلاحظ عند هؤلاء المؤلفين المتأخرين أن الصرف عندهم
 ليس جزءا من النحو ، بل هو قسم النحو . وهكذا استقر مجال علم النحو عندهم
 باعتبار أنه دراسة الأعراب وبناء الجملة في مقابل الصرف الذي يقتناول بنية
 الكلمة .

(١) انظر المنصف شرح التصريف ٢/١ .

(٢) المتع ٢٧/١ .

(٣) شرح الشافية (تحقيق : محي الدين ، القاهرة ١٩٣٩) ٦/١ .

(٤) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٣ ، وأحمد مطلوب : البلاغة عند السكاكي

(بغداد ١٩٦٤) ص ٦٥ .

(٥) مفتاح السعادة ٩٩/١ .

أطلق المؤلفون العرب على الاشتغال بالمفردات اللغوية جمعا وتأليفا عدة مصطلحات أقدمها مصطلح « اللغة » . لقد وصف أبو الطيب اللغوي (ت ٨٢٥١) أبا زيد والاصمعي وأبا عبيدة ، وقارنهم من جانب معرفتهم باللغة ، وكان أبو زيد أحفظ الناس للغة ، وكان الاصمعي يجيب في ثلث اللغة ، وكان أبو عبيدة يجيب في نصفها ، وكان أبو مالك يجيب فيها كلها ^(١) . والمتصود هنا بكلمة اللغة بمجموع المفردات ومعرفة دلالاتها . وبهذا المعنى كانت كتب الطبقات تميز بين المشتغلين بالنحو أو العربية من جانب والمشتغلين باللغة من الجانب الآخر ، لذا عد سيبويه والمبرد من النحاة بينما عد الاصمعي وأقرانه من اللغويين . وقد ظل استخدام كلمة اللغة بهذا المعنى عدة قرون ، وأصبح اللغوي ، هو الباحث في المفردات جمعا وتصنيفا وتأليفا .

فالاصمعي لغوي لأنه جمع ألفاظ البدو وسجلها في رسائل لغوية مصنفة في موضوعات دلالية . والتحليل لغوي لأنه أول من حاول حصر الألفاظ العربية وتسجيلها في معجم . وابن دريد لغوي أيضا لأنه ألف معجمه « جمهرة اللغة » . والأزهري لغوي لأنه ألف معجمه « تهذيب اللغة » . وظل استخدام كلمة « اللغة » بمعنى بحث المفردات وتصنيفها في معاجم وكتب موضوعية سائداً في الدوائر العلمية عدة قرون .

وهناك مصطلح ظهر في القرن الرابع الهجري عند اللغوي العربي ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) وأخذه النعماني (٤٢٩ هـ) . لقد أطلق ابن فارس على أحد كتبه « الصحاح في فقه اللغة » ، وبذلك ظهر مصطلح فقه اللغة لأول مرة في التراث العربي عنوانا لكتاب ، وتسمية لفرع من فروع المعرفة ، ولم ينتشر هذا المصطلح

(١) مراتب النحويين لابن الطيب اللغوي ص ٤١ .

إلا بقدر محدد، وأشهر من استخدمه بعد ابن فارس لغوى أديب هو الثعالبي، فقد سمي كتابه «فقه اللغة وسر العربية»، يتفق كتابا ابن فارس والثعالبي في معالجتها لقضايا الالفاظ العربية، فموضوع فقه اللغة عندهما هو معرفة الالفاظ العربية ودلالاتها وتصنيف هذه الالفاظ في موضوعات وما يتعلق بذلك من دراسات^(١). يضم كتاب ابن فارس إلى جانب هذا مجموعة من القضايا النظرية حول اللغة، من أبرزها قضية إشاة اللغة، فإذا كان العلماء قد اختلفوا في ذلك فآها البعض اصطلاحا، أي عرفا اجتماعيا فإن ابن فارس رفض هذا الرأي واعتبرها توقيفا، أي بمنزلة الوحي المنزل من السماء^(٢). ولا يدخل موضوع اللغة ولا

(١) تناول القسم الخاص بفقه اللغة في كتاب: «فقه اللغة وسر العربية» المفردات في مجموعات دلالية (النبات والشجر، أنواع الحيوان، الطعام، الثياب، الابل، الآلات، والادوات، أوائل الأشياء وأواخرها، الطول والقصر، اليس واليمين، القلة والكثرة، الملء والصفورة والخلاء، الأصول والرووس والاعضاء والاطراف، الامراض والدواء، الاصوات وحكايتها، الحجارة... الخ).

(٢) انظر: الصاحب في فقه اللغة. وأيضا المزهري للسيوطي ٨/١ وما بعدها يتضح رأي ابن فارس في أصل اللغة من الفقرة التالية: «وقف الله عز وجل آدم عليه السلام ما شاء الله أن يعلمه إياه بما احتاج إليه عليه في زمانه، ثم علم بعد آدم من الأنبياء (ص) ما شاء الله أن يعلمه، حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد (ص) فأناؤه الله من ذلك ما لم يؤته أحدا قبله، تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة، ثم قر الأمر قراره، فلا تعلم لغة من بعده حدثت. فإن تعمل لذلك متعمل وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده، وقد وافق ابن حزم على القول بالأصل التوقيفي للغة الانسانية ورفض خلط اللغات وعدم التمييز بينها ونسبة اللغات إلى الأنبياء دون دليل علمي، انظر: الاحكام في أصول الاحكام ص ٣٠ - ٣١.

موضوع ارتباط اللغة بالوحي في إطار قضايا علم اللغة الحديث ، لأنه ليس من الممكن بحث الموضوعين بمعايير علمية دقيقة .

كما تضمن كتاب الثعالبي قسماً ثانياً هو سر العربية ، وقد تناول الثعالبي في القسم الثاني عدداً من الموضوعات الخاصة ببناء الجملة العربية . ولكن المؤلفين متفقان على جعل فقه اللغة هو دراسة دلالات الألفاظ وتصنيفها في موضوعات . أما مصطلح « علم اللغة » فقد استخدم عند بعض اللغويين المتأخرين وكان المقصود منه دراسة الألفاظ مصنفة في موضوعات مع بحث دلالاتها . فالرضي الاسترأبادي يفرق بين علم اللغة وعلم التصريف ، موضوع الأول : دراسة الألفاظ ، والثاني : معرفة القوانين الخاصة ببنية هذه الألفاظ (١) . أما أبو حيان فقد ذكر مصطلح علم اللغة في عدة كتب له ، وموضوع علم اللغة عنده هو دراسة « مدلول مفردات الكلام » (٢) . ولا يختلف استخدام مصطلح علم اللغة عند ابن خلدون عن هذا المعنى ، فعلم اللغة عنده هو « بيان الموضوعات المنفوية » ، والمقصود بذلك الدلالات التي وضعت لها الألفاظ (٣) . وقد ذكر ابن خلدون في إطار كلامه عن علم اللغة الخليل بن أحمد وغيره من أصحاب المعاجم العربية . ويوضح كل هذا أن مصطلح علم اللغة كان يعني عند الرضوي الاسترأبادي وأبي حيان وابن خلدون وغيرهم (٤) دراسة المفردات وتصنيفها في معاجم وكتب .

(١) شرح الكافية (المقدمة) .

(٢) انظر الادراك للسان الاتراك ص ٦٦ ، البحر المحيط لأبي حيان ٥/١ - ٦ .

أبو حيان النجوى لتحديجة الحديث ص ٢١٣ ، وكذلك ص ١٧٦ ، ١٨٣٨ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ١٢٥٨ .

(٤) قارن : المواهب الفتحية لمحة فتح الله ٢١/١ - ٢٢ ، ودراسات في علم

اللغة لسكال بشر ٤٧/٢ - ٤٨ .

وهناك اصطلاح آخر أطلقه بعض المؤلفين على دراسة دلالات المفردات اللغوية وهو اصطلاح « علم متن اللغة » (١) . وقد حاول المرصفي (٢) . وحزمة فتح الله استخدام هذا المصطلح بهذا المعنى : كما أطلق أحمد رضا أيضا على معجمه « متن اللغة » .

وهكذا استخدم المؤلفون العرب قبل العصر الحديث ... وتابعهم المؤلفون السلفيون في أوائل القرن العشرين بصفة خاصة مصطلحات اللغة وفقه اللغة وعلم اللغة ومتن اللغة في عناوين مؤلفاتهم أو وصفاً لجهود مؤلفي المعاجم وكتب المفردات اللغوية .

٣ - علم اللسان وعلوم الادب والعلوم العربية :

ترجع أول محاولة جادة (٣) لترتيب علوم اللغة في نسق واحد إلى الفارابي، وقد أطلق الفارابي على كل العلوم اللغوية اسماً شاملاً لها هو « علم اللسان » . يتألف علم اللسان عنده من عدة مجالات . يقابل « علم الألفاظ المفردة » في تصنيف الفارابي علم الدلالة في التصنيف الحديث . ويتناول « قوانين الألفاظ عندما

(١) ذكر ابن يعقوب المغربي في شرح التلخيص ١/١٤٦ : « علم متن اللغة » أي معرفة أوضاع المفردات اللغوية ، ويسمى هذا العلم المتن ، لأنه هو ظهر الشيء . ووسطه وقوته وهذا العلم تعلق بذات اللفظ ومعناه ، وانظر كذلك : المواهب الفتحية ٢٠/١ - ٢٢ .

(٢) انظر الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية للشيخ حسين المرصفي (ط ٢ سنة ١٩٢٤) ج ١ ص ٢٠ .

(٣) ابن فارس (الصاحبي ص ١ - ٢) ميز بين « علم العرب أصلاً وفرعاً » ، وهو تمييز بين القضايا اللغوية من جانب ومعرفة الألفاظ ودلالاتها من الجانب الآخر .

تكون مفردة وعندما تتركب ، البحث في الأصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة على التوالي . ولكن الفارابي أدخل في علم اللسان بعض الموضوعات التي لا تدخل في علم اللغة بالمعنى الحديث ، من ذلك « علم الالفاظ المركبة التي صنعها خطباؤهم وشعراؤهم ، أي دراسة الشعر والنثر ، ومن ذلك أيضا ، « قوانين تصحيح الكتابة وقوانين تصحيح القراءة وقوانين الاشعار » (١) . وهكذا ضم علم اللسان عند الفارابي علوم اللغة إلى جانب غيرها من العلوم والمهارات .

ويدل مصطلح « علوم الأدب » عند ابن الأنباري على علوم اللغة : النحو واللغة والتصرف وعلم الجدول في النحو وعلم أصول النحو بالإضافة إلى العروض والقوافي وصنعة الشعر وأخبار العرب وأنسابهم (٢) . أي أن علوم الأدب تشمل عند ابن الأنباري مجموعة العلوم اللغوية والأدبية وما يتعلق بها من معارف .

وكان ابن الأنباري أول من اعتبر « علم أصول النحو » أي مناهج البحث النحوي علماً قائماً بذاته ، وقد ألف فيه مختصراً حذو المؤلفين في علم أصول الفقه . يقول ابن الأنباري « أصول النحو هي أدلة النحو التي تفرعت عنها فروعها وفصولها كما أن معنى أصول الفقه أدلة الفقه التي تفرعت عنها جملته وتفصيله » .

والأديب عند ابن الأنباري وعند ياقوت الحموي هو المشتغل بهذه العلوم اللغوية والأدبية وما يرتبط بها من معارف . وبهذا المعنى ألف ابن الأنباري كتابه « نزهة الألباء في طبقات الأدباء » وألف ياقوت الحموي « ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب » .

(١) انظر : احصاء العلوم للفارابي ، تحقيق ، عثمان أمين ١٩٤٨ ، ص ٤٧ - ٥٠ .

(٢) انظر : نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري ، تحقيق : عطية عامر . ص ٥٢ ، وانظر : لمع الأدلة في أصول النحو ، تحقيق عامر ، ص ٢٢٧ .

أما تصنيف السكاكي لعلوم اللغة فيقوم على أساس « مشارات الخطأ » ، فالخطأ اللغوي يمكن أن يكون في بنية الكلمة المفردة وهذا موضوع علم الصرف ، وقد يكون في تأليف المفردات داخل الجملة وهذا موضوع « علم النحو » ، وقد يكون في مطابقة العبارة للمعنى وهذا موضوع علمي « المعاني والبيان » . واعتبر السكاكي علوم الصرف والنحو والمعاني والبيان بالإضافة إلى علم اللغة مجموعة علوم متكاملة انتظمت عنده في لسق واحد^(١) .

وكان أبو حيان النحوي أول من أطلق مصطلح « علوم اللسان العربي » على علوم اللغة . وقد تابعه ابن خلدون في استخدام هذا المصطلح . تضم علوم اللسان العربي عند أبي حيان علم اللغة وعلم التصريف وعلم النحو ، يتناول علم اللغة ومدلول مفردات الكلم ، ويتناول علم التصريف وأحكام مفردات الكلم قبل التركيب . أما علم النحو فيتناول أحكام مفردات الكلم « حالة للتركيب » ، وبذلك كان دون غيرها من العلوم^(٢) .

ولا يقتصر مجال علوم اللسان العربي عند ابن خلدون على النحو واللغة بل ضم إليهما علم البيان وعلم الأدب . وبذلك لم يفصل ابن خلدون بين علوم اللغة بمعناها المحدد والدراسة الأدبية^(٣) .

ويقوم تصنيف طاشكبري زاده للعلوم اللغوية وما يتعاق بها من دراسات على أساس التمييز بين ما يتناول « المفردات » ، من جانب وما يتناول « المركبات » ، من

-
- (١) انظر : مفتاح العلوم للسكاكي (المؤلف سنة ٧١٦ هـ تقريباً) ص ٣ ،
والبلاغة عند السكاكي لاحد مطلوب ص ٦٥ .
(٢) انظر : الادراك للسان الأتراك ص ٦٦ .
(٣) مقدمة ابن خلدون ١٢٥٤ ، وقد أطلق عليها ابن خلدون في موضع آخر
(ص ١٢٦٣) « العلوم اللسانية » .

الجانب الآخر (١) . ذكر طاشكبرى زاده أن دراسة المفردات تتناول مجالات
 خمساً ، أولاً : علم مخارج الحروف . ويمد هذا المصطلح أول تسمية محددة
 شاملة لما يطلق عليه في العصر الحديث « علم الأصوات » . فإذا كانت الدراسة
 الصوتية قديمة في التراث العربي فإن سبويه والخليل ومن جاء بعدهما لم يضموا لها
 تسمية خاصة وشاملة إلى أن جاء طاشكبرى زاده وحاول في تصنيفه للعلوم أن
 يخصص هذه الدراسة . فأطلق عليها علم مخارج الحروف ، وجعل هذا العلم
 أول مجالات البحث اللغوي . ، وبهذا اتفق طاشكبرى زاده مع ما تعارف عليه
 اللغويون المحدثون بعده بقرون . يتناول علم مخارج الحروف « معرفة تصحيح
 مخارج الحروف . - كيفية وكيفية - وصفاتها العارضة لها بحسب ما يقتضيه طباع
 العرب ويستمد من العلم الطبيعي وعلم التشريح . . ويتضح من تحديد
 طاشكبرى زاده لمكان علم مخارج الحروف في أول مجالات البحث اللغوي إدراكه
 العميق لأهمية علم الأصوات ، بل ويمد فهمه لعلاقة البحث الصوتي بالعلم الطبيعي
 ويعلم التشريح سابقاً لعصره ولكتيرين عن جاءوا بعده .

وإلى جانب علم مخارج الحروف تضم دراسة المفردات عند طاشكبرى زاده :
 « علم اللغة » ويبحث « جواهر المفردات وهيئاتها من حيث الوضع للدلالة على
 المعاني الجزئية » ، كما يضم « علم الوضع » ، ويبحث في « تفسير الوضع وتقسيمه
 إلى الشخصي والتوعى والعام والخاص » ، والمقصود بذلك دراسة الدلالات التي
 وضعت لها الألفاظ ، ويضم أيضاً « علم الاشتقاق » وموضوعه « كيفية خروج
 الكلم بعضها عن بعض » ، وآخر مجالات دراسة المفردات : « علم الصرف » (٢) .
 وعلى هذا تتناول دراسة المفردات عند طاشكبرى زاده ما يقابل علم الأصوات

(١) مفتاح السعادة ص ٩٩ .

(٢) مفتاح السعادة ص ١٠٠ .

وعلم بنية الكلمة وعلم الدلالة في مجالات علم اللغة الحديث . أما بنية الجملة فقد جعلها طاشكبرى زاده الموضوع الأول للبحث في المركبات ، وتضم دراسة المركبات عنده النحو والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي الخ (١) . . . وبذلك ضم طاشكبرى زاده . . . هذه الدراسات الأدبية مع علم النحو في إطار واحد .

ويتفق التهانوي في تصنيفه لما أطلق عليه « العلوم العربية » مع تصنيف هذه العلوم عند طاشكبرى زاده اتفاقا تبديدا ولكن التهانوي لم يخصص لعلم الاصوات قسما مستقلا كما فعل طاشكبرى زاده ، بل بدأ التهانوي حصره للعلوم العربية بعلم اللغة ، ثم جاء علم الصرف ، وعلم الاشتقاق ، وعلم النحو ، وعلم المعاني ، وعلم البيان ، وعلم العروض ، وعلم القافية الخ (٢) . . . وقد ظل مصطلح « العلوم العربية » مستخدما عند أصحاب الثقافة السلفية في العالم العربي الحديث . فقد صنف الشيخ حسين المرصفي العلوم العربية إلى علم « متن اللغة » ، و « وفقه اللغة » ، و « علم الصرف » ، و « علم النحو » ، والفرق بين علم متن اللغة وفقه اللغة عند المرصفي أن الأول يبحث في « أوضاع الالفاظ لمعانيها » ، والثاني يبحث الالفاظ « باعتبار تخالفها في المعاني التي وضعت لها » (٣) . أي أنه يعتبر علم متن اللغة هو « معرفة المعاني الحقيقية الالفاظ وفقه اللغة هو دراسة الفروق في المعاني . . .

وهكذا تنوعت التسميات التي أطلقت في مراحل تاريخية مختلفة على مجالات البحث في اللغة ، ولذا تعتبر هذه المصطلحات جزءا من تاريخ البحث اللغوي . وينبغي أن تترك هذه المصطلحات للحديث في تاريخ العلم على أن تكون المصطلحات الحديثة قائمة على أساس النظرية الحديثة لعلم اللغة .

(١) مفتاح السعادة ١٤٤ .

(٢) كشف اصطلاحات الفنون ١٨/١ - ١٩ .

(٣) الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية ٢٠/١ .

الفصل الرابع

كتب طبقات النحويين واللغويين

هناك عدة مصادر عربية وغير عربية ترجمت للنحويين واللغويين وحدهم أو مع غيرهم من المشتغلين بالعلوم الأخرى . وتضم هذه الكتب أخبار النحويين واللغويين مع ذكر مسكوناتهم الثقافية ومؤلفاتهم في علوم اللغة وفي غيرها ، لذا تعد هذه المصادر مدخلا طبيعيا للتعرف على الحياة الثقافية والعلمية للمسلمين في التراث اللغوي العربي

١ - كتب الطبقات :

لقد اهتم النحاة ولما تمض مائة عام على وفاة سيبويه بتصنيف النحاة إلى طبقات على غرار تصنيف ابن سعد في كتابه « الطبقات الكبرى » لإعلام علمي الحديث والتفسير . ويبدو أن أول كتاب في هذا الموضوع هو كتاب « طبقات النحويين البصريين وأخبارهم » للمبرد (ت ٢٨٥ هـ) . لم يصل إلينا هذا الكتاب ، غير أننا نعرف على طبيعة مادته من النقول التي أخذها السيرافي عنه . كان السيرافي (ت ٣٦٨ هـ) يورد في كتابه « أخبار النحويين البصريين » مادته بطريقتين متميزتين ، فهو يقدم لبعض أخباره بسلسلة إسناد تسبق كل خبر وتشير إلى أخذه له عن طريق الرواية الشفوية (١) ، ولكن السيرافي لا يقدم الأخبار التي أخذها

(١) مثال الاستاد :

« حدثنا أبو مزاحم موسى بن عبيد الله قال : حدثني عبد الله بن أبي سعيد الوراق ، =

عن المبرد بأية سلسلة إسناد ويكتفى بعبارة: « قال المبرد »^(١) وإذا كان السيرافي قد ولد سنة ٢٨٠ هـ ، ووفاة المبرد كانت ٣٨٥ هـ ، فلا بد أن أخذ السيرافي للمادة المنسوبة للمبرد إنما قام على أساس اعتماد السيرافي على كتاب المبرد المؤلف في نفس الموضوع .

وترجع أقدم كتب الطبقات الموجودة والتي ترجمت للنحويين والغويين إلى القرن الرابع الهجري . ويعد كتاب مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي (ت ٣٥١ هـ) أقدم كتاب وصل إلينا في الترجمة للنحويين ، وله أهميته أيضا لأن المؤلف لغوي عرف الكثيرين من ترجم لهم من المشتغلين بعلوم اللغة حتى ذلك الوقت . أما كتاب أبي سعيد السيرافي (ت ٣٦٨ هـ) فقد وصل إلينا بعنوان « أخبار النحويين البصريين » . وقد اعتمد السيرافي في كتابه هذا على كتاب المبرد ، وأضاف إلى ذلك أخبارا كثيرة وصلت إليه مشافهة . موضوع كتاب السيرافي : « ذكر مشاهير النحويين وطرف من أخبارهم وذكر أخذ بعضهم عن

== قال : حدثني مسعود بن عمرو ، قال : حدثنا علي بن حميد الزراع ، قال سمعت حماد بن سلمة يقول : « من لحن في حديثي فقد كذب علي » (أخبار النحويين البصريين ٣٣ - ٣٤) .

(١) أمثلة الأخذ المباشر عن المبرد : قال أبو العباس : كان الاخفش أكبر سنا من سيويه . . . (أخبار النحويين البصريين ٣٨) ذكر أبو العباس محمد ابن يزيد عن المازني عن الاخفش عن الكسائي قال . . . (أخبار النحويين البصريين ٤٠) قال أبو زيد سعيد بن فارس الانصاري صلية من الخروج (أخبار النحويين البصريين ٤١) . ذكر أبو العباس قال : حدثني أبو بكر القرشي . . . (أخبار النحويين البصريين ٤٢) وكذلك المواضع في ٤٤ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٠ .

بعض والسابق منهم إلى علم النحو^(١) . ذكر السيرافي النحاة البصريين فقط ، ولم يذكر شيئاً عن النحاة الكوفيين وكأنه لا يعترف بهم ولا يهتم بأخبارهم . لم يترجم السيرافي في كتابه لسلك النحويين البصريين حتى عصره ، بل قصر كلامه على نحاة البصرة حتى أبي العباس محمد بن يزيد المبرد وتلاميذه . وكأنه تخرج من الترجمة لمعاصريه فلم يترجم لهم . لم يهتم السيرافي إلا بذكر الأخبار الخاصة بمؤلاء النحاة فكتابه كتاب أخبار ، ولذا فهو لا يذكر عن مؤلفات هؤلاء النحاة أية معلومات ولا يشير إلى أسماء هذه المؤلفات إلا نادراً .

أما كتاب « طبقات النحويين واللغويين » لأبي بكر الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ) فهو كتاب أندلسي ، مؤلفه لغوي ونحوي من أهم من أجهبتهم الأندلس في علوم اللغة . وترجع أهمية هذا الكتاب إلى كونه أندلسياً ، فالكتب التي ذكرناها — من قبل — كانت كلها من العراق ، وتقدم لنا صورة للحياة الثقافية والعلمية لنحاة المشرق ، ولكن كتاب الزبيدي اهتم إلى جانب ترجمته لنحاة المشرق بالترجمة أيضاً لعلماء المغرب والأندلس في النحو واللغة ، فأتى بمادة جديدة لها أهميتها في دراسة النحويين واللغويين المغاربة والأندلسيين^(٢) .

٢ - كتاب الفهرست :

ويعد كتاب « الفهرست » لابن النديم المؤلف سنة ٣٧٧ هـ المصدر الأول للتعرف على مؤلفات النحويين واللغويين حتى تاريخ تأليفه . وقد خصص ابن النديم « المقالة الثانية » أي الباب الثاني من كتابه لأخبار النحويين واللغويين وأسماء كتبهم . وقد اعتمد ابن النديم على المصادر التي أتاحت له حول أخبار النحويين واللغويين

(١) أخبار النحويين البصريين ص ١٠ .

(٢) أطلق الزبيدي على نحاة القيروان وما حولها « القرويين » .

مثل كتاب « أخبار النحويين البصريين » لأبي سعيد السيرافي ، ولكنه يتميز عن الكتب السابقة عليه بأنه يذكر المصنفات التي ألفها كل نحوي ولغوي حتى عصره . وهو بذلك أقدم وثيقة تضم أسماء الكتب العربية في علوم اللغة وفي غيرها . قسم ابن النديم هذه المقالة إلى قسم خاص بالبصريين وقسم آخر للكوفيين وقسم ثالث لمن خلط المذهبين ، وقد تابع ابن النديم حركة التأليف في النحو واللغة منذ بدايتها حتى عصره . وبذلك يختلف ابن النديم عن كثير من علماء عصره الذين كانوا يتجنبون الترجمة لمن عاصروهم ، فإن النديم يحترم الناهين من أبناء عصره وترجم لهم في حياتهم ، فقد ذكر ابن النديم في ترجمة الرماني النحوي أنه كان على قيد الحياة وقت تأليف الكتاب (١) .

٣ - كتب التراجم :

هناك مجموعة كثيرة من الكتب التي ترجمت للنحويين واللغويين وحدهم أو مع غيرهم من أصحاب العلوم ، ولكنها رتبهم ترتيباً مخالفاً لكتب الطبقات . كانت كتب الطبقات رتبهم ترتيباً زمنياً ، فكل طبقة تمثل مجموعة متعاصرة من العلماء . ولكن كتب التراجم لم تتبع هذا المنهج في الترتيب ، بل كانت ترتب الرجال وفق الأسماء الحقيقية لكل منهم ، فالمراد لا يذكر بهذا الاسم ، بل ينبغي البحث عنه تحت اسمه الحقيقي : محمد بن يزيد ، وسيمويه يذكر في هذه الكتب تحت اسمه الحقيقي : عمرو بن عثمان . وبغض النظر عن بعض السمات الخاصة ببعض هذه الكتب فإن أكثرها يرتب أسماء النحاة واللغويين الحقيقية ترتيباً مجانياً .

وصل إلينا من القرنين الخامس والسادس للهجرة كتابان هاما ترجمتا للنحاة واللغويين ، هما كتاب « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) وكتاب

(١) الفهرست لابن النديم (فلوجل) ص ٦٣ :

« أبو الحسن .. الرماني ... ويحيا إلى الوقت الذي بيض هذا الكتاب فيه .. »

هزه الألباء في طبقات الأدباء ، لابن الأبارى (ت ٥٧٧ هـ) . ليس كتاب
 تاريخ بغداد ، من كتب التاريخ العام بل هو كتاب في تاريخ الرجال الذين كانت
 لهم ببغداد صلة مولد أو دراسة أو إقامة ^(١) ، ولذا يضم الكتاب تراجم لعهد كبير
 من أعلام الحضارة الإسلامية حتى عصره فما أكثر من كانت لهم صلة ببغداد حتى
 القرن الخامس الهجري . ويلاحظ في ترجمة الخطيب البغدادي للنحويين واللغويين
 أنه اعتمد على مصادر شفهية بجانب أخذه عن المؤلفات السابقة عليه في هذا المجال .
 وقد اهتم في المقام الأول بذكر الأخبار الخاصة بكل نحوي أو لغوي أتى بترجمته ،
 وقد جاءت هذه الأخبار مزودة بأسانيدھا المفصلة . ولكن الخطيب البغدادي لم
 يهتم بنفس الدرجة بذكر المؤلفات النحوية واللغوية ، فكتابه في الأخبار وليس
 في حصر المؤلفات وتصنيفها . ومن هذا الجانب يختلف كتاب تاريخ بغداد للخطيب
 البغدادي عن كتاب الفهرست لابن النديم .

(١) يقول الخطيب البغدادي : بدأنا بذكر الصحابة مفردا من
 سواهم ، أما التابعون ومن بعدهم فانا سنورد أسماءهم في جملة البغداديين عند وصولنا
 إلى ذكر كل واحد منهم ان شاء الله تعالى . وهذه تسمية الخلفاء والكبراء والقضاة
 والفقهاء والمحدثين والقراء والزهاد والصلحاء والمتأدبين والشعراء من أهل مدينة
 السلام الذين ولدوا بها أو بسواها من البلدان ونزلوها ، وذكر من انتقل عنها ومات
 ببلدة غيرها ، ومن كان بالتواحي القريبة منها ومن قدمها من غير أهلها ألقته
 أبوابا مرتبة على نسق حروف المعجم من أوائل أسمائهم ، وبدأت منهم بذكر من
 اسمه محمد تبركا ولم اذكر من محدثي الغرباء الذين قدموا مدينة السلام ولم
 يستوطنوها ، سوى من صح عندي انه روى العلم بها غير نفر يسير عددهم
 عظيم عمد أهل العلم محلم ثبت عندي ورودهم مدينتنا ولم أتحقق تحديدهم بها ،
 فرأيت أن لا أخلى كتابي من ذكرهم لرفعة أخطارهم وعلو أقدارهم ، تاريخ بغداد

٢١٢/١ - ٢١٣

أما كتاب نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، لابن الأنباري فهو كتاب موجز
لخص المادة التي وجدها في الكتب السابقة عليه مثل الفهرست لابن النديم وتاريخ
بغداد . ولكن ابن الأنباري حذف كثيراً من أساليب الأخبار التي وجدها في
تاريخ بغداد .

ولا يكاد كتاب نزهة الألباء يقدم مادة جديدة بخصوص النحويين واللغويين
الذين جاءت ترجمتهم في المصادر التي ألفت قبل ابن الأنباري . ولكنه أضاف
مجموعة تراجم للغويين ونحويين ترد ترجماتهم لأول مرة في كتابه ، وله أهميته من
هذا الجانب .

وهناك ثلاثة كتب من القرن السابع الهجري تضمنت تراجم للنحويين واللغويين
وهي « إنباء الرواة للقفطي (ت ٥٦٣٤) و « إرشاد الأريب ، لياقوت (ت ٥٦٣٦) »
و « وفيات الأعيان ، لابن خلكان (ت ٥٦٨١) .

تناول القفطي وهو مؤلف مصري في كتابه « إنباء الرواة على أنباء النحاة ،
اللغويين والنحويين وحدهم . ولا يقتصر كتابه على ذكر النحويين واللغويين
المصريين بل هو كتاب شامل لعلماء اللغة والنحو ومن ألفت في علوم اللغة أو درس
علوم اللغة في « أرض الحجاز واليمن والبحرين وعمان واليامة والعراق وأرض
فارس والجبال وخراسان . . . والشام والساحل ومصر . . . وإفريقية ووسط
المغرب وأقصاه وجزيرة الأندلس وجزيرة صقلية (١) » . يتسم كتاب « إنباء
الرواة ، بالشمول والاحاطة ، فقد ترجم للمشتغلين بعلوم اللغة في كل أنحاء الدول
الإسلامية حتى عصره ، إلا أنه لا يكاد يأتي بمجديد حول النحويين الذين ترجم
لهم مؤلفو القرن الرابع . مثل السيرافي وابن النديم ، وأهميته ترجع إلى ترجمته
للنحاة الذين جاءوا بعد ذلك .

(١) إنباء الرواة ٢/١ .

ويضم كتاب «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» لياقوت الحموي تراجم كثيرة للمشتغلين بالعلوم المختلفة حتى عصره ، فالأديب عنده هو المشتغل بالعلوم أيضا ، ولنا عرف كتابه باسم «معجم الأديباء» (١) . خصص ياقوت تراجم مستفيضة للنحويين واللغويين ، واستقى مادته من كتب الطبقات السابقة عليه ومن كتاب «الفهرست» لابن النديم ، كما أضاف إلى ذلك مادة كثيرة أخذها من كتب أخرى ، فقد اعتمد في ترجمته لآبي سعيد السيرافي ، الحسن بن عبد الله ، علي كتب الطبقات وكتاب الفهرست ، واقتبس نصوصا كثيرة حول السيرافي من كتب تلميذه أبي حيان التوحيدي مثل كتاب «محاضرات العلماء» وكتاب «مطالب الوزيرين» وكتاب «الامتناع والموانسة» ، وأيضا من كتاب «تقريظ الجاحظ» ، وقد ضاع الكتاب الأخير ولم يعد له أثر إلا ما نقل عنه ياقوت الحموي وغيره (٢) . ويعد ياقوت في كتابه «إرشاد الأريب» من أكثر العلماء العرب دقة في استخدام المصادر ، يظهر هذا في عبارات كثيرة له تحفظ فيها تجاه النصوص التي ذكرها .

فقد علق على خبر ذكره بقوله : «أو كما قال أبو حيان فإنني لم أنقل ألفاظ

(١) «إرشاد الأريب» (ط: فريد رفاعي القاهرة) ويتناول هذا الكتاب :
 . ومن عرف بالتصنيف واشتهر بالتأليف وصحت روايته وشاعته درايته وقل
 شعره وكثر نثره . ٥٠/١٠٤

(٢) انظر ترجمة أبي سعيد السيرافي (الحسن بن عبد الله ٣٦٨) في
 «إرشاد الأريب» ١٤٥/٧ - ٢٣٣ ، وقد أشار ياقوت كثيرا إلى مصادره : «قرأت
 بخط أبي حيان التوحيدي في كتابه الذي ألفه في تقريظ عمرو بن بحر ١٥٠/٨
 (مفقود)» وقال أبو حيان في كتاب «محاضرات العلماء» (١٥٢/٨) ، «قال في
 كتاب الامتناع ... ١٧٨/٨ . ونص مناظرة أبي سعيد السيرافي مع متى بن يونس
 (١٩٠/٨ - ٢٣٣) مأخوذ عن الامتناع والموانسة .

الخبر أقدم الأصل الذي قرأت منه ،^(١) وكان ياقوت يقارن عدة نسخ من الكتاب الواحد ليصل إلى حقيقة ما عناه مؤلفه دون تصحيف الوراقين والكتاب ، نجد هذا واضحاً في تعليقاته على بعض العبارات مثل « وكانت النسخة غير مرضية فتكتبها إلى أن يقع لي ما أرتضيه ، وأكثر النسخ . . . لا توجد هذه الرقعة فيها »^(٢) .

ياقوت كان يتحرى الدقة في النقل عن مصادره ويقارن النسخ بعضها ببعض تحقيقاً لمبدأ الأمانة العلمية في صحة النقل . ولذا يعد كتاب « إرشاد الأريب » ، — على الرغم من تأخره زمنياً — من أهم الكتب التي ترجمت للنحويين واللغويين وغيرهم .

وقد اتبع ابن خلكان في كتابه « وفيات الأعيان » الترتيب الهجائي للأعلام المترجم لهم . اعتمد ابن خلكان على الكتب السابقة عليه ، وأضاف إليها ما أخذه « من أفواه الأئمة المتقدمين » . وما إن فكر المؤلف في تحرير كتابه في صيفته الأخيرة سنة ٥٦٥٤ حتى وجد أن ترتيب أسماء الأعلام ترتيباً هجائياً أفضل من ترتيبهم وفق المعيار الزمني . ويفيد كتاب « وفيات الأعيان » الترجمة للعلماء الذين لا نجد لهم تراجم في الكتب السابقة عليه ، ولكنه في كثير من التراجم لا يكاد يضيف إلى مصادره المعروفة لنا شيئاً .

ويعد كتاب « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » للسيوطي (ت ١١١٩هـ) أحد الكتب الموسوعية التي ظهرت في مصر قبيل الفتح العثماني . ألف السيوطي في كل فروع المعرفة التي اعترف بها عصره ، وهو فيها جميعاً ناقل جامع لا يضيف إلى العلم جديداً ، تتركز قيمة كتبه في احتفاظها بقول أخذها السيوطي

(١) إرشاد ١٤٧/٧ .

(٢) إرشاد الأريب ٢٦٠/٧ .

من مصادر لم تعد متاحة للباحث الحديث . اعتمد السيوطى فى « بغية الوعاة » على كتب الطبقات السابقة عليه ، وأفاد أيضاً من معرفته الواسعة بالتراث العربى الأندلسى ، ففصل القول فى ذكر النحويين والمغويين الأندلسيين ، وله أهميته من هذا الجانب . ويفيد كتاب « بغية الوعاة » فى معرفة أعلام النحو واللغة حتى عصره ، وتسم تراجع النحاة والمغويين عند السيوطى بالتركيز على ثقافة النحوى ومؤلفاته . وقد لاحظ السيوطى صعوبة البحث عن النحوى تحت اسمه الحقيقى ، فأعد فى آخر كتابه تبصراً بالنحويين والمغويين وفق ألقابهم وكنائهم ، وبذلك يستطيع الباحث إذا عرف لقب النحوى أو كنيته أو اسمه الذى اشتهر به أن ينظر فى هذا التبت ليجد الاسم الحقيقى للنحوى أو المغوى^(١) .

٤ - المراجع العامة الحديثة فى التراث :

خصص المستشرق الألمانى كارل بروكلمان C. Brockelmann عدة فصول للمشتغلين بعلوم اللغة فى كتابه عن التراث العربى^(٢) Geschichte

(١) يتناول الباب الاخير من بغية الوعاة الكنى واللقاب والنسب والاضافات وهو باب مهم تشتمل إليه الحاجة يذكر فيه من اشتهر بشئ من ذلك لينظر اسمه ويسهل الكشف عليه من بابه ، ٣٦٧/٢ - ٣٩٥ .

(٢) ترجع كلمة Litteratur فى الألمانية إلى الكلمة اللاتينية Litteratura وتعنى الكتابة بالحروف والكتيبات عموماً . وتستخدم الكلمة الألمانية بمعنى التراث المدون فى كل فروع المعرفة ، وهنا المعنى استخدم بروكلمان الكلمة عنواناً لكتابه الذى لا يتناول الادب الفنى فحسب ، بل يضم أيضاً كل فروع المعرفة العربية ، ومنها : علوم اللغة . ولذا فسكتاب بروكلمان ليس فى « تاريخ الادب العربى » ، بل فى تاريخ التراث العربى .

der arabischen Litteratur . وقد اهتم بروكلمان ببيان المسهمين في التأليف اللغوي العربي واحداً واحداً ، وقد رتبهم ترتيباً زمنياً ثم مكانياً . وترجع أهمية كتابه إلى اهتمامه بذكر الكتب التي ألفها كل واحد منهم ، وبين أماكن وجود مخطوطاتها وأرقام هذه المخطوطات ، وذكر طبعتها إن كانت قد طبعت . وقد ظل كتاب بروكلمان أفضل دليل مصنف بالمخطوطات العربية عدة سنوات .

ثم اتضح القصور في عمل العالم الكبير ، ولم يعد الكتاب شاملاً للتراث العربي المخطوط . فقد ظهرت آلاف المخطوطات التي لم تكن معروفة لبروكلمان وصنفت مجموعات كاملة لم يكن أحد قد سمع بها قبل اكتشافها . وهنا شرع عالم تركي هو فؤاد سزكين في إكمال كتاب بروكلمان ، لكن عمله تجاوز حدود الأكمال والتذييل فأصبح عملاً مستقلاً متكاملًا . وقد أطلق سزكين على كتابه في الأصل الألماني اسم *Geschichte des arabischen Schrifttums* ، أي : تاريخ التراث العربي^(١) . ويمتاز هذا العمل الكبير عن كتاب بروكلمان بميزات أساسية ، فقد عرف سزكين مخطوطات أكثر ، وعرف عن المخطوطات التي عرفها بروكلمان معلومات أكثر . يمتاز كتاب سزكين عن كتاب بروكلمان بأنه يذكر عند كل مخطوط معلومات هامة عن حالته وعدد أوراقه وتاريخ نسخه . وهو بهذا أفضل عمل بيبليوجرافي حديث للتراث العربي .

وينبغي عند دراسة التحويين واللغويين والاختيار الواردة عنهم وعند التعرف على صحة نسبة مؤلفاتهم لهم أن يراعى الباحث الترتيب التاريخي المذكور لكتب

(١) يضم كتاب سزكين في الجزء الأول قائمة تسكاد تكون كاملة بمكتبات المخطوطات العربية في العالم وبفهارسها . ويتناول الجزء الرابع والجزء الخامس من الترجمة العربية التراث اللغوي العربي ، صدر الجزء الرابع من تاريخ التراث العربي في ١٩٧٤ .

الطبقات والتراجم. فقد أقيمت الدراسة المقارنة لهذه الكتب أن اللاحق منها ينقل عن السابق نقلا ولا يضيف جديدا ، والكتب المتأخرة لا تعنى بالأسانيد مما يجعل من الصعب دراسة مصدر النص ورواته. وإذا افترضنا صحة النقل في أكثر الكتب المتأخرة فلا جدوى من استخدامها إذا كانت المصادر الأقدم متاحة للباحث الحديث . والواجب العلمي يقتضى أن نستخدم أقدم المصادر ، فلا فائدة من النقل عن نقل عن المصدر الأصلي .

الفصل الخامس

المكتبة النحوية

ذكر السيرافي في « أخبار النحويين البصريين » قصة كتابين نسبها البعض لعيسى ابن عمر (ت ١٤٩ هـ) ، وهما كتاب « الجامع والمكمل » . ثم قال السيرافي بعد ذلك : وهذان الكتابان ما وقعا إلينا ولا رأيت أحدا يذكر أنه رأهما (١) . وأكد ابن النديم هذا بقوله : « وقد فقد الناس هذين الكتابين منذ المدة الطويلة ولم تقع إلى أحد علمنا » ، ولا خبرنا أحد أنه رأهما (٢) .

فاذا افترضنا صحة ما نسب إلى عيسى بن عمر فإن البحث العلمي لا يستطيع القول بشيء في كتابين لم يبق منها أثر . . . وقد اهتم مؤلفو كتب الطبقات بقصة وضع النحو وحاول ابن النديم بحث هذه القصة ، قال : « ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته ، وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ، ترجمتها هذه : فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود . . . ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه فما سمعنا له خبرا » (٣) . والمقصود بذلك الرجل أحد أصحاب غزائن الكتبة ولا يستطيع الباحث أن يخرج بشيء من هذا الخبر عن جهود أبي الأسود الدؤلي في النحو إن كانت له فيه جهود على الإطلاق .

(١) انظر : أخبار النحويين البصريين ص ٢٥ .

(٢) الفهرست لابن النديم (ط فلوجل) ص ٤٢ .

(٣) الفهرست لابن النديم ص ٤١ .

١ - كتاب سيبويه والنحاة البصريون :

يعد د الكتاب ، أو د كتاب سيبويه ، أقدم ما وصل إلينا في النحو العربي. يضم كتاب سيبويه إلى جانب آراء مؤلفه أبي بشر ، عمرو بن عثمان - جهود نحويين آخرين تقدموا سيبويه ، وعرف آراءهم فذكرها في كتابه وهؤلاء النحويون هم :

- | | |
|------------------------------|--------------|
| ١ - عبد الله بن اسحق الحضرمي | (ت ١١٧ هـ) |
| ٢ - عيسى بن عمر الثقفي | (ت ١٤٩ هـ) |
| ٣ - أبو عمرو بن الملاء | (ت ١٥٤ هـ) |
| ٤ - الخليل بن أحمد | (ت ١٧٤ هـ) |
| ٥ - يونس بن حبيب | (ت ١٨٣ هـ) |

وأقدم هؤلاء النحاة عبد الله بن اسحق الحضرمي الذي عدّه ابن سلام صاحب د طبقات الشعراء ، أول من بعج النحو ، ومد القياس ، وشرح العلال (١). ولاشك أن أهم هؤلاء الخليل بن أحمد ، أستاذ سيبويه وأكبرهم تأثيراً في فكره العلمي .

وقد حدد كتاب سيبويه لأجيال النحويين على مدى القرون معالم البحث النحوي ومنهج معالجة قضايا النحو ، وظل فكرهم في إطاره بغض النظر عن اختلافات جزئية بسيطة قامت عليها المدارس النحوية . وقد كان كتاب سيبويه منذ تأليفه في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري أساس دراسة النحو في كل أنحاء العالم الاسلامي ، قال السيرافي د وكان كتاب سيبويه ، لشهرته وفضله ، علماً عند النحويين ، فكان يقال بالبصرة : قرأ فلان الكتاب ، فيعلم أنه كتاب سيبويه ، وقرأ نصف الكتاب ؛ ولايشك أنه كتاب سيبويه (٢). والمتتبع لتاريخ النحويين

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام .

وقارن أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ٢٠

(٢) طبقات النحويين للسيرافي ص ٣٩ .

العرب يلاحظ أن الكتاب كان عمدة الدراسة النحوية حتى القرن الثامن الهجري ،
وكان طلاب العلم يقرأون كتاب سيبويه على نحويين تخصصوا فيه، وعرفوا باجادتهم
له وحسن تدريسهم له .

كان الأخفش سعيد بن مسعدة (ت ٣٢١ هـ) أول من قام بتدريس كتاب
سيبويه ، يقول السيرافي : « الطريق إلى كتاب سيبويه الأخفش ، وذلك أن كتاب
سيبويه لا نعلم أحداً قرأه على سيبويه ، ولا قرأه عليه سيبويه ، ولكن لما مات
قرأ الكتاب عل أبي الحسن الأخفش ، وكان ممن قرأه : أبو عمر الجرمي صالح
ابن اسحق ، وأبو عثمان المازني بكر بن محمد ، وغيرهما (١) . وبذلك كان تلاميذ
الأخفش أول مجموعة من النحاة تطلعت على كتاب سيبويه ، وكان لكل واحد منهم
اهتمام خاص بالكتاب . اهتم أبو عمر الجرمي (ت ٢٢٥ هـ) بدراسة الأبنية
الصرفية التي وردت في كتاب سيبويه و صنف في ذلك كتبا كثيرة لا تعرف إلا
أسماءها ، كما ألف أيضاً في « تفسير غريب سيبويه » ، وكتابا آخر بعنوان « الفرخ
أى : فرخ كتاب سيبويه لم يبق أى كتاب من كتب الجرمي ، ولكنها كانت من
أهم المصادر التي اعتمدت عليها شروح سيبويه للنالية . أما أبو اسحق الزياتي
(ت ٢٤٩ هـ) فهو أول من ألف كتابا بعنوان « شرح كتاب سيبويه » ، ولم يبق
من هذا الكتاب إلا بعض النقول في الكتب التي نقلت عنه .

ويعد كتاب « التصريف المازني » الكتاب الثاني الذي وصل إلينا في النحو العربي
بعد كتاب سيبويه . لقد تولى أبو عثمان المازني (ت ٢٤٨ هـ) على الأخفش ، وقرأ
عليه كتاب سيبويه ، واهتم أيضا بالأبنية الصرفية كما فعل زميله الجرمي . وقد وصل
كتاب « التصريف » المازني مشروحا بقلم أبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ)
وكتاب التصريف أقدم كتاب مستقل وصل إلينا حول الأبنية الصرفية .

(١) طبقات النحويين للسيرافي ص ٣٩ .

يتفق مؤلفو كتب الطبقات على أن أبا العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ) أهم نخاة المدرسة البصرية في القرن الثالث الهجرى . لقد ألف المبرد مجموعة كبيرة من الكتب اللغوية بالمعنى الشامل ، ولكن أهمها هو كتاب «المقتضب» ، وهو كتاب شامل يضم كل الجوانب النحوية والصرفية والقوتية التي تناولها كتاب سيبويه وهذا الكتاب هو الكتاب الثانى بعد كتاب سيبويه فى تناوله لكل هذه الجوانب . وهناك قضايا نحوية ولغوية كثيرة تناولها المبرد فى كتبه الأخرى . وخصوصا فى كتابه «الكامل» . وفضلا عن الكتب التى وصلت إلينا للمبرد فله كتاب آخر مفقود ذكرته كتب الطبقات والتراجم باسم «الرد على سيبويه» . ويعنى تأليف المبرد لكتاب بهذا العنوان عدم اتقافه - وهو البصرى - مع كبير نخاة البصرة سيبويه . أى أن وحدة المدرسة البصرية أمر نسبي . وقد أدى اختلاف وجهات نظر المبرد عن سيبويه فى بعض المسائل إلى ظهور كتاب فى الدفاع عن سيبويه والرد على المبرد . وهو كتاب «الانتصار لسيبويه من المبرد» للنحوى المصرى ابن ولاد (ت ٣٢٢هـ) (١) .

وقد درس على المبرد عدد كبير من النحويين المبرزين الذين كان لهم أثر كبير فى حمل التراث النحوى ودراسته والتعليق عليه . وأهم تلاميذ المبرد أبو بكر بن السراج (ت ٣١٦هـ) وأبو اسحق الزجاج (ت ٣١١هـ) وابن درستويه (ت بعد ٣٣٠هـ) .

٢ - النخاة الكوفيون فى القرنين الثانى والثالث :

هناك أسماء كثيرة تذكرها كتب الطبقات وكتاب الفهرست لنحويين ولغويين كوفيين ، وقد خصص لهم ابن النديم فصلا مستقلا يحتوى على «أخبار النحويين

(١) كتاب الانتصار لسيبويه من المبرد لابن ولاد ، يوجد مخطوطا فى : دار الكتب بالقاهرة ، مخطوط ٧٠٥ نحو تيمور .

واللغويين الكوفيين ، . ويعد الكسائي والقراء وتعلب أكثر أسماء الكوفيين شيوعا في كتب النحو العربي . لم يصل إلينا أى كتاب كامل يوضح منهج الكوفيين في التحليل النحوي (١) ، فلا نعرف لهم كتابا يضارع كتاب سيويوه ، أو : كتاب «المقتضب» للمبرد ، ولكن نتعرف على آرائهم اللغوية من كتبهم التي ضمت موضوعات مختلفة من بينها قضايا النحو واللغة .

فالكسائي (ت ١٤٧) نحوي كوفي مشهور عاصر سيويوه ، وكانت بينهما اختلافات ومشاحنات ، لم يبق من مؤلفات الكسائي إلا رسالة صغيرة في «لحن العامة» ، وقد ضاعت باقي كتبه ولا نستطيع التعرف على آرائه إلا من خلال الكتب النحوية التي نقلت هذه الآراء وحفظتها بذلك من الضياع .

وقد ذكر ابن النديم للقراء (ت ٢٠٧ هـ) كتبا كثيرة في علوم اللغة منها كتاب «الحدود» في النحو ، وقد ضاع هذا الكتاب ، ولم يبق منه إلا فهرس موضوعاته ، فقد نقله ابن النديم في كتاب الفهرست (٢) . وأهم مصدر نتعرف منه على آراء القراء النحوية واللغوية هو كتابه «معاني القرآن» ، وهو أهم كتبه التي وصلت إلينا . وليس كتاب معاني القرآن في التفسير بالمعنى المباشر ، بل هو كتاب في اللغة اتخذ القرآن الكريم موضوعا له . وقد وصلت إلينا ثلاثة كتب أخرى للقراء تناولت موضوعات لغوية ، وهي «المذكر والمؤنث» ، و«المنقوص والممدود» ، و«الأيام والليالي والشهور» .

(١) كتاب الموفى في النحو الكوفي تأليف صدر الدين الكنغراوى الاستانبولى ليس من تأليف أحد نحاة الكوفيين المعروفين ، بل هو بحث علمي لنحوي متأخر حول مذهب الكوفيين في النحو . وقد طبع ضمن مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق .

(٢) نقل ابن النديم فهرست كتاب «أسماء الحدود» في الفهرست ص ٦٧ .

وثالث النحويين الكوفيين المبرزين هو ثعلب (ت ٥٢٩١ هـ) ، وكثيرا ما كان أبو العباس ثعلب بين معاصريه موضع مقارنة مع أبي العباس المبرد . كان المبرد كبير نحاة البصرة بينما كان ثعلب أكبر نحوي كوفي في نفس الفترة . وقد وصلت إلينا عدة كتب لثعلب ، أهمها كتاب الفصيح ، وهو كتاب في المفردات ، ولكن آراءه النحوية واللغوية موجودة أيضا في كتاب « مجالس ثعلب » .

وهناك علماء كثيرون تذكروهم كتب الطبقات ، وكان جهدهم في علوم اللغة مقصورا على جمع المفردات ، وتحديد أبنيتها الصرفية ، وتصنيفها ، وتدوين الملاحظات عليها . ومن هؤلاء أبو عمرو الشيباني صاحب « كتاب الجيم » ، وهو معجم لغوي ، وأبو عبيد القاسم بن سلام مؤلف « الغريب المصنف » وهو كتاب في المفردات ، وإبن السكيت مؤلف « إصلاح المنطق » ، وهو كتاب في التثقيف اللغوي . وكل هذا يشير إلى أن جهد العلماء الكوفيين كاد ينصرف إلى بحث المفردات وتصنيفها ، ولم يكن اهتمامهم ببنية اللغة إلا اهتماما ثانويا لا يرقى إلى مستوى المدرسة البصرية . ولذا فقد سادت آراء البصريين في النحو العربي وحدها دون غيرها في القرون التالية ، وأصبح المنهج النحوي وتعليم النحو يقوم - في المقام الأول - على آراء البصريين .

٣ - نحاة القرن الرابع :

عرف القرن الرابع مجموعة من النحاة أكثرهم في بغداد ، وأهمهم ابن السراج (ت ٥٢١٦ هـ) والزجاج (ت ٥٣١١ هـ) وإبن درستويه (توفي بعد ٥٣٣٠ هـ) ، وأبو سعيد السيرافي (ت ٥٣٦٨ هـ) وأبو علي الفارسي (ت ٥٣٧٧ هـ) والرماني (ت ٣٨٥) وإبن جنى (ت ٥٣٩١ هـ) . وقد وصلت إلينا كتب كثيرة من مؤلفات هؤلاء النحاة .

اهتم ابن السراج (ت ٥٣١٦ هـ) بكتاب سيبويه اهتماما كبيرا ، فقد كان يقوم

بتدريس كتاب سيويه ، وقد لاحظ ابن السراج تعدد نسخ كتاب سيويه فقارن النسخ المتداولة في عصره ، وأثبت مجموعة من الفروق والاختلافات بين هذه النسخ . كان كتاب سيويه حتى ذلك الوقت أساس تدريس النحو ، ولذا كثرت نسخه وكثرت معها التصحيفات والاختلافات ، وأحسن ابن السراج الذي ولد بعد وفاة سيويه بأقل من مائة عام بضرورة المقابلة بين نسخ الكتاب المختلفة للتوصل إلى النص الصحيح ، فقام بذلك ، وسجل ملاحظاته حول اختلاف نسخ كتاب سيويه في كتاب « أصول النحو » (١) . ويعد كتاب أصول النحو لابن السراج الكتاب النحوي الثالث بعد كتاب سيويه والمقتضب للمبرد . فإذا كان ابن السراج هو صاحب أول محاولة لتحقيق كتاب سيويه فهو إلى جانب هذا مؤلف :
أصول النحو .

وقد وصل إلينا من كتب أبي اسحق الزجاج (ت ٣١١ هـ) أكثر من كتاب ، وأهم مؤلفاته التي بقيت لنا كتاب « سر النحو » . ويتناول هذا الكتاب موضوع المتنوع من الصرف . وقد اتضح من مقارنة هذا الكتاب أنه ألف تيسيراً لفهم كتاب سيويه ، وكان الزجاج أراد أن يشرح كتاب سيويه فألف كتابه « سر النحو » . يدل على ذلك أن ترتيب موضوعات « سر النحو » هو نفس ترتيب أبواب كتاب سيويه في موضوع المتنوع من الصرف ، فالترتيب الداخلي واحد في الكتابين .

وفي منتصف القرن الرابع الهجري عرفت بغداد ثلاث شخصيات مرموقة

(١) وصل إلينا كتاب أصول النحو لابن السراج - بعد أن كان في حكم المفقود - في عدة قطع متكاملة ، وجدت في المتحف البريطاني والمغرب وتركيا . وهناك مواضع كثيرة ، نقل بعضها السيرافي في شرحه لكتاب سيويه ، تشهد بمجد ابن السراج في تحقيق نص كتاب سيويه .

من اللغويين والنحويين . لقد عرف أبو سعيد السيرافي (ت ٣٦٨ هـ) بشرحه الكبير لكتاب سيبويه ، كما اشتهر الرماني (ت ٣٨٥ هـ) بشرحه لكتاب سيبويه أيضا . يتفق السيرافي والرماني في إعجابهما بسيبويه والتزامهما بمنهج نحاة البصرة . ولكن شرحيهما يختلفان ، فقد ذكر السيرافي كثيرا من الشواهد والآراء النحوية وعرض في كتابه لمعارفه النحوية واللغوية العميقة . أما شرح الرماني فلا يمس أي اهتمام بالشواهد أو آراء النحاة الذين عاشوا بعد سيبويه وكأنه اكتفى بشرح مضمون كتاب سيبويه بطريقة منطقية . ويمتاز شرح السيرافي باهتمامه بموضوعات لم تنل عند معاصريه نفس الاهتمام ، فقد خصص السيرافي في آخر شرحه لسيبويه بابا خاصا لآراء الكوفيين في الدراسات الصوتية ، وهذا الباب هو مصدرنا الوحيد للتعرف على آراء الكوفيين في الأصوات . أما ثالث الثلاثة فهو أبو هلي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) وقد وصلت إلينا كتب كثيرة له منها والمسائل الشيرازيات ، إلى جانب كتابه في علم القراءات .

لقد تلمذ أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ) على هؤلاء النحاة الاعلام ، فأصبح أم نحاة بغداد في عصره . ألف ابن جني كتبا كثيرة في علوم اللغة منها كتاب « الخصائص » الذي يضم حشدا من القضايا الصرفية والدلالية والنحوية . وكتاب « سر صناعة الإعراب » لابن جني ليس في الإعراب النحوي ، بل هو أول كتاب عربي مستقل في الدراسات الصوتية ، فالإعراب عنده الإبانة نطقا .

بدأت علوم اللغة في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري امتدادا لجهود علماء بغداد . لقد درس ابن ولاد (ت ٣٣٢ هـ) ، وأبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) النحو في بغداد على الزجاج . وأسس علم النحو في مصر ، فابن ولاد أول نحوي مصري ، وقد وصلت إلينا بعض كتبه ، مثل « المقصور والممدود » و « الاتصاف

لسيبويه من المبرد ، أما أبو جعفر النحاس فقد اهتم بالقراءات وبكتاب سيبويه وألف فيها .

وبدأت علوم اللغة في الأندلس تأخذ شكلها الواضح بهجرة أبي علي القالي (ت ٣٥٦ هـ) بعد أن درس علوم اللغة في بغداد . وبذلك نقل أبو علي القالي دراسة كتاب سيبويه وتدرّيس اللغة والأدب إلى الأندلس ، وبه بدأت المدرسة الأندلسية في علوم اللغة .

٤ - الكتب النحوية التعليمية والمنظومات .

عرف القرن الرابع الهجري انجماً جديداً لتأليف كتب تعليمية في النحو . وأول كتاب في هذه المجموعة هو كتاب « الجمل » للزجاجي (ت ٣٣٧ هـ) وقد ضم الزجاجي في كتابه « الجمل » كل أبواب النحو والصرف بأسلوب سهل موجز . وألف ابن السراج (ت ٣١٦ هـ) كتاباً تعليمياً بعنوان « المرجز في النحو » .

ثم ألف أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) كتابين تعليميين هما « الإيضاح » في النحو و « التكملة » في الصرف ، وألف ابن جنّي (ت ٣٩٢ هـ) كتاباً تعليمياً هو « اللمع » . وتختلف هذه الكتب مجتمعة عن الكتب النحوية السابقة عليها ، فالكتب التعليمية كتب موجزة واضحة الشواهد شاملة لسلك الأبواب في عرض سهل وعبارة واضحة . ولذا دارت حولها دروس تعليم النحو عدة قرون ، فكثرت شروحها بتعدد مدرّسي هذه الكتب ، وقد اهتم الأندلسيون بكتاب « الجمل للزجاجي » فألفوا عليه أكثر من عشرين شرحاً .

وزادت الكتب النحوية التعليمية في القرن الخامس الهجري والقرون التالية زيادة ملحوظة . وظهرت محاولات أخرى لوضع منظومات تعليمية تلخص النحو في منظومة أعدت لكي يحفظها التلاميذ . وأشهر هذه المحاولات ألفية ابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) . حاول ابن مالك أن ينظم كل قواعد النحو نظماً ، لتكون في

قصيدة ألفية يسهل حفظها . يتركز جهد ابن مالك في الصياغة وترجيح رأى نحوى على آخر ، فلقد كان ابن مالك وأبناء عصره أبعد الناس عن ملاحظة التغير اللغوى وتسجيل مادة جديدة أو النظر إلى المادة القديمة بمنهج جديد . لقد اعجب معاصروه كما اعجبت القرون التالية ببراعة ابن مالك في صياغة ألفيته التى فاقت غيرها من الألفيات ، فاهتم مدرسو النحو بشرحها ، وبتمليق الحواشى على شروحها . واستمرت حركة تأليف الشروح على الألفية دون انقطاع أكثر من خمسة قرون . ومن أشهر هذه الشروح شرح ابن عقيل (ت ٧٦٩ هـ) والاشموني (ت ٩٢٩ هـ) . وقد وضع الصبان (ت ١٢٠٦ هـ) حاشية على شرح الاشموني . وما تزال هذه المنظومات والشروح والحواشى تشغل ساعات دراسة النحو فى أكثر الماهد العلمية المهمة بذلك .

• - الموسوعات النحوية والشروح :

كانت ظاهرة تأليف الموسوعات النحوية موازية لانجاء تأليف الكتب التعليمية والمنظومات . تقسم الموسوعات النحوية التى بدأت بالمفصل للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) بالتركيز الشديد ومحاولة حشد آراء النحاة والاهتمام بالتقسيمات الداخلية للموضوعات . وقد أدت الصياغة المركزة لهذه الكتب إلى ضرورة شرحها كى تفهم ، وكأنها ألقت موجزة لكى تحفظ حفظا . فكتاب المفصل للزمخشري كتاب مركز يضم بين دفتيه كل أبواب النحو العربى ، وقد شرح المفصل عشرات المرات لم يطبع منها إلا شرح ابن يعين (ت ٦٤٣ هـ) .

ويعد أن ألف ابن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ) منتهى التعليميين : « الكافية » ، فى النحو و « الشافية » ، فى الصرف بدأ الشراح فى تناول الكتابين بالتفصيل والتعليق ، فألفت على كل منهما عشرات الشروح العربية والتركية . وأشهر شروح الكافية والشافية شرح الرضى الاسترأباذى (ت ٦٨٨ هـ) عليها . وهناك محاولات كثيرة لتعليق على شرح الاسترأباذى على الكافية وإيضاح شواهده ، أشهرها كتاب « خزنة الادب » ، لعبد القادر البغدادى (ت ١٠٩٣ هـ) .

ولا شك أن أفضل جهد موسوعي في هذه الفترة هو كتاب «مغنى اللبيب» لابن هشام (ت ٧٦٢ هـ) ، لقد شارك ابن هشام أبناء عصره في الاهتمام بالتأليف المتون التعليمية وشرحها ، فألف متن «شذور الذهب» و«متن وقطر الندى» وشرحهما . وكتاب ابن هشام «أوضح المسالك» شرح لافية ابن مالك ولكن كتابه الأكثر أهمية هو كتاب «مغنى اللبيب» ، فهو أفضل كتاب حول الجملة العربية وتحليلها النحوي .

وشارك السيوطي (ت ٩١١ هـ) في التأليف الموسوعي في النحو بعدة مؤلفات ضخمة ضم فيها آراء السابقين عليه . فالسيوطي في كل كتبه عالم على طريقة الجمع والتأليف . كان يجمع ما أمامه في الكتب المختلفة حول موضوع واحد ، فيؤلف فيه كتاباً ضخماً . ومن أشهر جهوده في النحو كتاب : «معجم الهوامع» ، وقد ألف السيوطي متناً صغيراً هو جمع الجوامع ، ثم شرحه بكتاب موسوعي هو «معجم الهوامع» . وترجم أهمية معجم الهوامع إلى تسجيله لكثير من الآراء والخلافات النحوية وإلى اهتمامه بالنحاة الأندلسيين والذين أتت كتبهم له . نجد في معجم الهوامع في مئات المواضع أسماء النحاة الأندلسيين والمغاربية المتأخرين ، مثل : ابن عصفور وابن خروف وابن الطراوة والشلوبين ولا نعرف اليوم آراء هؤلاء بقدر ما نعرفها خلال اقتباسات السيوطي من كتبهم . ويضم كتاب «الاشباه والنظائر» للسيوطي نقولات كثيرة من الكتب النحوية المشرقية والمغربية التي أتت للسيوطي .

ظلت حركة التأليف في النحو العربي في العصر العثماني في إطار وضع الشروح على المتون والمنظومات التعليمية . وكانت قيمة أي مؤلف في النحو تتركز في إحاطته إن كان يؤلف شرحاً موسوعياً ، أو في حسن صياغته إن كان يشرح متناً تعليمياً . ويعد عبد القادر البغدادي نموذجاً لشرح الشواهد ، وله كتابان ، الأول «خزانة الأدب» في شرح شواهد الكافية ، والثاني في : «شرح شواهد مغنى اللبيب» وكلا الكتابين موسوعة ضخمة تضم كثيراً من المعلومات اللغوية والنحوية والأدبية . وهناك شروح تعليمية كثيرة ألّفها مدرسو النحو في الأزهر مثل الشيخ

حسن المطار . وتناول بعض هؤلاء شواهد الكتب التعليمية فشرحوها مثل شرح شواهد شرح ابن عقيل ، للجرجاوى و شرح شواهد شرح شذور الذهب ، للقيومى .

وظل اهتمام مدرسى النحو فى الأزهر محصورا داخل إطار هذه الشروح المعقمة التى لم تأت بمجديد . وليس مصادقة أن أول من اهتم بكتاب سيبويه فى العصر الحديث وحققه تحميقا عليا هو المستشرق الفرنسى درنور . وارتبطت حركة التجديد فى عرض النحو العربى فى شكل حديث بكتاب التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية ، وقد ألف رفاعه الطهطاوى هذا الكتاب على نمط مؤلفات الفرنسيين فى النحو . لقد أعجب رفاعه الطهطاوى أثناء إقامته فى فرنسا بمنهج الفرنسيين فى عرض النحو ، فخرج على طريقة معاصريه فى الشروح والهرامش والتعليقات والتقريبات ، وألف كتابا بسيطا العبارة سهل العرض ، ليس له متن أو شرح ، بل له نص واحد يقرأ فيفهم . وكان الطهطاوى أول من استخدم الجداول الإيضاحية فى كتب النحو العربى (١) . وبذلك بدأت الكتب التعليمية الحديثة فى النحو العربى . ثم ظهرت بعد ذلك حركة تحقيق التراث النحوى وأخذت الكتب النحوية الأساسية المبكرة تظهر بتحقيق العلماء العرب .

(١) حول الطهطاوى ، انظر : محمود فهمى حجازى : أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى ، عالم الفكر ، أبريل ١٩٧٣ .

الفصل السادس المكتسبة اللغوية

١ - جمع اللغة وتآليف المعاجم :

قامت حركة التأليف في المعاجم العربية على أساس المادة التي جمعها اللغويون في البادية في القرن الثاني الهجري . لقد خرج عدد كبير من اللغويين من البادية ، وأخذ كل منهم يجمع اللغة من أبناء القبائل العربية ، وبذلك تم إنجاز أول عمل لغوي ميداني في الجزيرة العربية . ولاحظ كثير من البدو اهتمام اللغويين بتلقي اللغة عنهم ، فهاجروا إلى جنوب العراق حيث ازدهرت علوم اللغة في البصرة والسكوفة ، وأخذوا يبيعون المادة اللغوية التي عندهم لسكل من يشتد بها من اللغويين . ولم تكن عملية جمع اللغة محاولة شاملة لتسجيل كل الالفاظ التي عرفتها القبائل العربية ، بل كان اللغويون يصدرون في اختيارهم للقبائل واختيارهم للرواة عن مبدأ أساسي ، وهو تسجيل اللغة الفصحى والابتعاد عن الصيغ والالفاظ غير الفصحى . وبهذا المعيار ركز اللغويون عملهم على لغة تلك القبائل التي تقرب كل الاقتراب من العربية الفصحى ، ورفضوا لهجات القبائل البعيدة عن الفصحى ، وبين هذا وذلك صنفت لهجات القبائل المختلفة . وظل هذا الأساس سائداً في عملية جمع اللغة في القرن الثاني الهجري وبذلك حفظت لنا كتب اللغة الاستخدام اللغوي عند مجموعة من القبائل العربية الشمالية .

لقد اهتم اللغويون بقبائل قيس وتميم وأسد وهذيل وبعض بطون قبيلة كنانة وبعض بطون طيء^(١) . وقد تجنب اللغويون أخذ اللغة عن الحضرة أي عن العرب

(١) انظر نص الفارابي المقتبس في المزهرة للسيوطي ٢١١/١ .

المستقرين وعن القبائل العربية التي عاشت بالقرب من جماعات لغوية من غير عربية، فلم يؤخذ من قبيلة لحم ولا من قبيلة جذام، « لمجاورتهم أهل مصر والقبط »، وبالمنزل نجد - اللغويون أخذ اللغة عن قضاة وغسان وإياد، « لمجاورتهم أهل الشام » (1).

وأعرض جامعو اللغة عن قبائل تغلب لاختلاط هذه القبائل بالجماعات اللغوية غير العربية في الشام والعراق ومصر. أما قبائل العرب في اليمن وشرق الجزيرة العربية ومدن الحجاز فقد خرجت أيضاً عن اهتمام اللغويين. وقد فسروا عدم أخذ اللغة عن أهل اليمن أن لغتهم تغيرت « لمخالطتهم للهند والحبشة » ورفضوا أخذ اللغة عن قبائل شرق الجزيرة العربية ومدن الحجاز باعتبار أن لغتهم اختلطت بلغة غير العرب.

والواقع أن اللغويين لم يهتموا في القرن الثاني الهجري بالتنوع اللغوي في الجزيرة العربية، وقصروا اهتمامهم على تقرير فصاحة لغة القبيلة أو عدم فصاحتها، فشفغلتهم قضية الفصاحة عن باقي القضايا السكثيرة التي يمكن طرحها في العمل اللغوي الميداني فسر اللغويون التغير الذي لاحظوه في لهجات بعض القبائل التي رفضوها بأنه ثمرة الاختلاط بأبناء الجماعات اللغوية غير العربية في مصر والشام والعراق وبأبناء الجماعات اللغوية الهندية والحبشية الذين اختلط بهم نفر من العرب. ولكن جامعي اللغة في القرن الثاني الهجري لم يهتموا بالعربية الجنوبية التي كانت دون شك منتشرة

(1) هناك خطأ وقع فيه الفارابي هنا إذ ذكر أن أكثرهم « نصارى يقرأون بالعبرانية » فمعرفة العبرية في القرون الثاني الهجري / الثامن الميلادي كانت مقصورة على رجال الدين اليهود وقلة من المهتمين بالتراث اليهودي. والصحيح أن أهل الشام كانوا في فجر الاسلام من أبناء الآرامية بلهجاتها المختلفة.

في مناطق من الجنوب العربي آنذاك ، بل عدوا ما وجدوه عند قبائل اليمن من ظواهر لغوية مخالفة ضرباً من الاختلاط الذي أصاب اللغة وجعلها غير نقية وغير سليمة . وبذلك لم يكن العمل اللغوي الميداني في القرن الثاني الهجري محاولة لتسجيل جوانب الحياة اللغوية عند أبناء اللغة العربية أو محاولة لبحث جوانب التنوع اللغوي في الجزيرة العربية ، بل كان محاولة للبحث عن الصيغ الفصيحة والكلمات الفصيحة عند القبائل العربية التي يقترب استخدامها لغة من المستوى اللغوي المنشود .

وقد أثمرت حركة جمع اللغة بمجموعة من الكتب والرسائل اللغوية . لقد جمع اللغويون مآثره القبائل الفصيحة من ألفاظ ، وصفوها في مجموعات دلالية ، وألقوا في هذا مجموعة كبيرة من الكتب . ألف الاصمعي (ت ٢١٦ هـ) في « خلق الانسان » و « الابل » و « الخيل » و « الوحش » و « النبات » و « الشجر » وألف أبو زيد الانصاري في « اللبن » و « المطر » و « النبات » و « الشجر » . وظلت الرسائل هي الشكل الوحيد الذي اتخذته دراسة الالفاظ العربية من الناحية الدلالية وقتاً طويلاً إلى أن برزت إلى الدوائر العلمية حركة تأليف المعاجم . وقد كان لما ألفه الاصمعي وأبو زيد الانصاري ومن عاصرهما من اللغويين أكبر الأثر في المعاجم العربية وفي نظرية اللغة عند العرب بشكل عام .

لقد أخذ مؤلفو المعاجم المادة التي دونها علماء القرن الثاني واحتفلوا بكل ما سجله الاصمعي وأبو زيد ومعاصرهما كل الاحتفال ، ولذا تسكرر أسماء هؤلاء اللغويين في المعاجم العربية الكثيرة التي ظهرت في القرون التالية وإذا كان اللغويون في القرن الثاني قد قصروا جهدهم على جمع الصيغ والدلالات الفصيحة أو القريبة كل القرب من الفصيحة فإن الأكثرية المطلقة من علماء اللغة في القرون التالية قد لاحظت تغير الاستخدام اللغوي بعد القرن الثاني . ولذا توقفت حركة العمل اللغوي الميداني توقفاً تاماً . لم يكن العمل اللغوي الميداني في القرن الثاني الهجري هادفاً

إلى دراسة التنوع اللغوي والتغير واللغوي في الجزيرة العربية أو في البيئات العربية الأخرى ، بل اقتصروا على ما اتفقوا على القول بفصاحته . وظل اللغويون في القرون التالية يقرون صلهم على المادة اللغوية التي اعترف علماء القرن الثاني بفصاحتها . وبذلك حددت حركة جمع اللغة في القرن الثاني الهجري إطار النظرية العامة للعمل اللغوي في القرون التالية . وظلت التعبيرات الشائعة في كتب اللغة مثل لغة الحجاز أو لغة أهل الحجاز أو لغة تميم أو لغة هذيل لا تعنى الاستخدام اللغوي عند هذه القبائل هموما ، بل تعنى الاستخدام اللغوي عند هذه القبائل في القرن الثاني الهجري . وبذلك لاختلف الظواهر التي عالجها السيرافي في القرن الرابع الهجري عن الظواهر التي ناقشها السيوطي في القرن التاسع الهجري ، فهما يناقشان مثل باقي النحاة العرب ما سجله الباحثون في القرن الثاني الهجري . وعندما يذكر ابن منظور (ت ٥٧١١) والزيدي (ت ١٢٠٥ هـ) في لسان العرب وتاج العروس مجموعة من الملاحظات حول دلالات الألفاظ ، فانهما لم يسجلا هذه الملاحظات عن الاستخدام اللغوي في القرن السابع أو القرن الثامن للهجرة ، بل نقلها عن كتب تعود بدورها إلى كتب قام أكثرها على أساس ما جمعه اللغويون في القرن الثاني الهجري . وبذلك تعد حركة جمع اللغة في القرن الثاني الهجري أساس المادة اللغوية ونظرية اللغة عند أصحاب المعاجم العربية التالية .

بعد نشاط العلماء العرب في عصر الحضارة الإسلامية لتأليف المعاجم من أبرز مظاهر جهدهم العلمي ، وهم بهذا أهم من ألف المعاجم قبل العصر الحديث على الإطلاق . لقد بدأت حركة تأليف المعاجم العربية موازية لتدوين الرسائل اللغوية في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة .

وفي هذه الفترة أيضا ألف كتاب سيديونة ، وبذلك عرف النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة جمع اللغة وتدوين الرسائل اللغوية وبداية العمل المعجمي وبداية

التأليف النحوي . . . وإذا كان القرن الرابع الهجري قد عرف مجموعة كبيرة من أعلام النحاة فإن نفس الفترة الزمنية أخرجت لنا عدداً كبيراً من المعاجم اللغوية التي تمثل اتجاهات مختلفة في التأليف المعجمي . وكانت حركة تأليف الموسوعات النحوية موازية لتأليف المعاجم الموسوعية مثل لسان العرب ، كما كانت حركة تأليف الحواشي والشروح النحوية مصحوبة بتأليف حواش على المعاجم وشروح لها ، وكان عبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٣) بكتابه « خزائن الأدب » و « شرح شواهد معنى اللبيب » ظاهرة موازية لتأليف مرتضى الزبيدي (ت ١١٤٥ هـ) لتاج العروس شرحاً للقاموس المحيط . وإذا كانت كتب النحو تختلف اختلافاً بسيطاً في تبويبها الداخلى وترتيبها للموضوعات فإن المعاجم العربية تقسم من ناحية ترتيبها للألفاظ الواردة فيها إلى مدارس مختلفة ، لكل منها منهجها الخاص .

٢ - معاجم الترتيب الصوتي :

يعد « كتاب العين » أقدم المعاجم العربية على الإطلاق ورائد أقدم مدرسة في التأليف المعجمي . يختلف « كتاب العين » عن الجهود الأخرى المبكرة في التأليف الغوي في أنه أول محاولة لحصر ألفاظ اللغة العربية على نحو شامل وفي إطار نظام منهجي واضح . يتفق الباحثون على أن خطة « كتاب العين » من عمل الخليل بن أحمد ، ولكن مدى إسهامه وإسهام تلميذه الليث بن المظفر في تنفيذ المعجم ظل موضع خلاف بين الباحثين ، فمنهم من ينسب العمل كله للخليل ، ومنهم من يذكر نسبه للخليل وينسبه لليث بن المظفر (١) . وأغلب الظن أن جهد الخليل

(١) أنظر فهرست لابن النديم ، ٤٢٠ ، والمعجم العربي لحسين نصار ١/٢٥٤ وما بعدها ، المعاجم العربية مع اعتناء خاص بمعجم العين للخليل بن أحمد ، تأليف عبد الله درويش ، القاهرة ١٩٥٦ .

في كتاب العين هو المقدمة المنهجية^(١) ، وهي أهم ما في الكتاب مع محاولة تطبيقها في الأبواب الأولى أما الليث فهو رواية ما أعده الخليل ومؤلف باقي الكتاب .

يقوم منهج الخليل في ترتيب ألفاظ اللغة العربية على مجموعة أسس عامة :

١ - ترتب الكلمات باعتبار حروفها الأصول فقط ، ومعنى هذا أن الخليل بنى معجمه على أساس التمييز بين الحروف الأصول والحروف الزوائد في الكلمة الواحدة ؛ وهو أساس صرفي لم يكن من الممكن تصوره قبل انضاح ملاحج البحث في بنية الكلمة العربية . من هذا الجانب يختلف كتاب العين عن الرسائل الكثيرة التي ألفت في القرن الثاني الهجري والتي صنفت فيها الألفاظ تصنيفا موضوعيا . وقد ظل المبدأ الذي وضعه الخليل في « كتاب العين » باعتبار الحروف الأصول دون الحروف الزوائد في ترتيب الكلمات أساسا متعارفا عليه في كل المعاجم العربية العامة حتى العصر الحديث ، لم تخرج عنه لإفالة من المعاجم الخاصة وبعض المعاجم التعليمية الحديثة .

٢ - ترتب الكلمات المتدرجة في مادة لغوية واحدة ترتيبا داخليا على أساس الابنية ، الثنائي ، الثلاثي (الصحيح والمعتل واللفيف) الرباعي ، الخماسي ، والثنائي مثل : قد ، لم ، هل ، والثلاثي مثل : ضرب ، خرج ، والرباعي مثل : دحرج ، قرطس ، والخماسي مثل : اقشعر ، وقد اتبع هذا الأساس في الترتيب الداخلي لعدد من المعاجم العربية التالية التي التزمت بمنهج الخليل ، وهي « البارع » للقالبي

(١) يقول الأزهرى : « ولم أر خلافا بين اللغويين أن التأسيس المجمل في أول كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد ، وأن ابن المظفر أكمل الكتاب عليه بعد تلقفه إياه عن فيه » تهذيب اللغة ١/١ ، وأنظر مقدمة النسخة المطبوعة من الكتاب رواية الليث عن الخليل ، ومعجم مقاييس اللغة ٣/١ - ٤ .

(ت ٤٥٦) و د تهذيب اللغة ، للازهري (ت ٨٢٧٠) و د ...
و للصاحب بن عباد ، (ت ٣٨٥) و د الحكم والمحيط الاعظم ، لابن سيده (ت ٤٥٨).

٣ - نوضع الكلمة ومقلوباتها في مادة واحدة ، وبذلك ترد الكلمة وقد
جردت من حروفها الزائدة في أول موضع ممكن . فالحروف ك ت ب يمكن أن
تتخذ الترتيبات التالية : (١) كتب ، (٢) كبت ، (٣) تكب ، (٤) تبك ،
(٥) بكت ، (٦) بتك ، وتعد كل هذه المواد بمجموعة واحدة .

ولاشك أن هذه الفروض الرياضية لا تجد لها في اللغة شواهد على كل صيغة
من الصيغ السابقة . وقد أطلق الخليل على الصيغ الموجودة فعلا مصطلح المستعمل ،
وعلى الصيغ غير الموجودة والممكنة نظرياً المهمل ، . وبغض النظر عن نسبة
المستعمل والمهمل من كل مجموعة من الحروف فإن هذه المجموعة تناقش كوحدة
واحدة . وتأتي المجموعة كاملة وفق أحد حروفها ، قد يكون الأول أو الثاني أو
الآخر ، يتحدد ذلك بم جدول المخارج ، فكلما كان الحرف سابقاً في جدول المخارج
جاء بمجموعته كاملة إلى مكانه . وبذلك تأتي أي كلمة بها حرف العين في القسم
الخاص بالعين وهو أول أقسام كتاب العين . وبالمثل لا تأتي كلمة بكت تحت الباء
لان الباء تأتي متأخرة في ترتيب المخارج ولكنها تأتي تحت الكاف لان الكاف
أسبق من الباء والتاء في الترتيب المخارجي .

٤ - رتب الخليل الحروف العربية وفق المخارج ، وبدأ بأصوات الخلق ثم
ذكر باقي الحروف منتبهاً بالحروف الشفوية . وختم ترتيبه بأصوات العلة والهمزة ،
لم يبدأ الخليل بالهمزة أو بالألف لما لاحظته من تغير صوتي يؤدي بها ، ولكنه
بدأ معجمه بكتاب العين باعتبارها الصوت الخلق الأول الذي لا يتغير في الأبنية
الصرفية ، وقد سمي المعجم باسم أول قسم فيه و كتاب العين .

وقد احتفظت مجموعة من المعاجم العربية العامة بمنهج الخليل وطبقته من الجوانب المذكورة ، ولكنها اختلفت في ترتيبها للحروف عن ترتيب الخليل اختلافا يسيرا . وهذه المعاجم هي : « البارع » للقالي (ت ٢٥٦ هـ) و « تهذيب اللغة » ، للأزهري (ت ٣٧٠ هـ) و « المحيط » للصاحب بن عباد (ت ٣٨٥ هـ) و « المحكم والمحيط الأعظم » لابن سيده (٤٥٨ هـ) . وقد ألفت هذه المعاجم في القرنين الرابع والخامس للهجرة في مناطق متباعدة من العالم الاسلامي ، فقد ألف القالي معجمه « البارع » في الأندلس . وألف ابن سيده معجمه « المحكم والمحيط الأعظم » في الأندلس أيضا . ولكن « تهذيب اللغة » للأزهري و « المحيط للصاحب بن عباد معجمان مشرقان ألفا في خراسان والري .

وقد اعتمدت كل هذه المعاجم على المادة اللغوية المتاحة في « كتاب العين » وفي الكتب اللغوية الأخرى ، وتختلف قيمتها باختلاف مصادرها ومدى اعتمادها عليها . فقد اعتمد ابن سيده في المحكم على مجموعة مصادر منها الكتب اللغوية والنحوية وكتب التفسير والحديث ، وبهذا اختلف المحكم من هذا الجانب عن المعاجم المشابهة . ولكن أهم معاجم الترتيب الصوق التي وصلت إلينا هو « تهذيب اللغة » للأزهري . فقد وصل إلينا هذا المعجم كاملا . بينما لم يصل إلينا من المعاجم التي التزمت بمنهج الخليل إلا قطع منها . ولكن أهم سمة تميز تهذيب اللغة للأزهري عن المعاجم المماثلة أن الأزهري جمع مادة جديدة عن البدو الذين عاش بينهم فترة من الزمن . وقد ذكر الأزهري في مقدمته أنه وقع أسيرا أثناء ثورة القرامطة . وعاش بين مجموعة من العرب أكثرهم من هوازن وبعضهم من تميم وأسد ، « ولا يكاد يقع في منطقتهم لحن أو خطأ فاحش فبقيت في إسامهم دهرا طويلا . واستفدت من مخاطباتهم ومحاوراة بعضهم بعضا ألفاظا جمّة ونوادير كثيرة ، أوقعت أكثرها في مواقعها من الكتاب » (١) وبهذا يعتبر الأزهري اللغوي الوحيد الذي اهتم في

(١) تهذيب اللغة للأزهري ١-٧٠ .

القرن الرابع الهجري بالعمل اللغوي الميداني ، وكانت حركة جمع اللغة قد توقفت منذ أكثر من قرن .

٣ - معاجم الترتيب الهجائي :

تنظم المعاجم العربية ذات الترتيب الهجائي في مجموعتين ، فالمجموعة الأولى بدأت بكتاب الحروف ، أو كتاب الجيم ، للشيباني (ت ٢٠٦ هـ) . وترتب فيها الكلمات وفق الحرف الأول من حروفها الاصول . أما المجموعة الثانية فبدأت بديوان الادب ، للفارابي (ت ٣٥٠ هـ) و الصجاح ، للجوهري (ت ٣٩٣ هـ) وترتب فيها الكلمات وفق الحرف الاخير من حروفها الاصول . لقد أفادت معاجم الترتيب الهجائي من منهج الخليل بن أحمد ، فكل هذه المعاجم حذت حذوه في ذكر الكلمات باعتبار حروفها الاصول ، وقد ظل هذا المبدأ سائداً في كل المعاجم العربية العامة قبل العصر الحديث ، التزمت به معاجم الترتيب الصوتي كما التزمت به معاجم الترتيب الهجائي .

ولكن معاجم الترتيب الهجائي اتخذت ترتيب الحروف المتعارف عليه عند جمهور المثقفين أساساً لها ، ويرجع هذا الترتيب إلى نصر بن عاصم الذي طوره عن النظام السامي الشمالي المعروف باسم الابدئية . كان ترتيب الحروف عند الاجريتين والفيثيين والعبريين والآراميين يتخذ النظام التالي : أ ب ج د هـ و ز ح ط ي ك ل م ن م ع ف ص ق ر ش ت (١) . وعندما استخدم هذا الترتيب الابدئي عند العرب وضعوا الحروف العربية التي لم ترد فيه في آخر الترتيب وهي ث خ ذ ض ظ غ .

(١) أنظر :

Mayer, Hebraische Grammatik, Berlin 1966, 1/36 — 38.

والاصفهاني ، حمزة : التنبيه على حدوث التصحيف ، ص ١٥ — ١٦ .

ولكن نصر بن عاصم (ت ٥٨٩) أعاد ترتيب الحروف على أساس شكلي فوضع إلى جانب الباء التاء والثاء ، ووضع إلى جانب الجيم الحاء والخاء وهكذا..

وبذلك ظهر الترتيب الهجائي للحروف العربية وهو الترتيب الذي قامت عليه معاجم الترتيب الهجائي (١) .

يعد كتاب الجيم ، أو كتاب الحروف للشيباني (ت ٢٠٦ هـ) أقدم المعاجم ذات الترتيب الهجائي . لقد رتب الشيباني الكلمات وفق الحروف الأولى من حروفها الأصول . ولم يرتب الشيباني الكلمات الواردة في إطار الجذر الواحد ترتيبا داخليا على نحو ما فعل الخليل . وقد ألف الزخشي معجمه و أساس البلاغة ، على هذا النسق . و فسكتاب الجيم ، و أساس البلاغة ، متفقان من هذا الجانب .

ولكن معاجم الترتيب الهجائي التي ألفت في القرن الرابع الهجري احتفظت بفسكرة الترتيب الداخلي وفق الأبنية . والمعجم المقصودة هي : دجهرة اللغة ، لابن دريد (ت ٣٢١ هـ) و د معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) و د الجمل ، لابن فارس أيضا . تتفق هذه المعاجم في اتخاذها للترتيب الهجائي أساس الترتيب العام للجذور ، ثم في مراعاتها للأبنية باعتبارها أساس الترتيب الداخلي . ولكن ثمة خلافا بين هذه المعاجم .

لجهرة اللغة لابن دريد وهو أقربها زمنا إلى عصر الخليل بن أحمد احتفظ بنظام ذكر الكلمة ومقلوباتها في أقرب موضع ممكن . أي أن ابن دريد أفاد من الخليل من عدة جوانب ، ولكنه عدل ترتيب الحروف .

أما د معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، فقد رتب الجذور وفق نظام الدائرة ،

(١) انظر : المعجم العربي بين الماضي والحاضر لعبدان الخطيب - القاهرة

فمنذما تأتي الكلمات التي تبدأ بالباء تنتظم الجذور فيها على النحو التالي : ب ب ، ب ت ، ب ث . . . ويكون آخر هذه الحروف ب أ . وعندما تأتي الكلمات التي تبدأ بالياء تنتظم فيها الجذور على النحو التالي : ث ث ، ث ج ، ث ح . . . ويكون آخر هذه الجذور ث أ ، ث ت . أى أن ابن فارس يبدأ من الحرف نفسه ، ثم يأتي الحرف مع الحرف الذي يليه في الترتيب الهجائي ، إلى أن تنتهي حروف الترتيب الهجائي ، ثم تأتي الحروف الأخرى السابقة على ذلك الحرف في الترتيب الهجائي .

أما معاجم الترتيب الهجائي التي رتب الجذور فيها وفق الحرف الأخير فقد بدأت بديوان الأدب للفارابي (ت ٣٥٠ هـ) ود الصاحح للجوهري (ت ٥٢٩٣ هـ) . أقام الفارابي معجمه على أساس تقسيم الكلمات العربية وفق أبيئتها ، ويقوم الترتيب الداخلي في كل قسم من أقسام ديوان الأدب على أساس الترتيب الهجائي . أى أن ديوان الأدب معجم للابنية مرتب داخليا على أساس الترتيب الهجائي للحروف^(١) . أما « الصاحح » للجوهري فهو معجم عام اتبع نظام الباب والفصل ، والمقصود بهذا أن الكلمات ترتب بمراعاة حروفها الأصول وفق الحرف الأخير ، ثم ترتب الجذور المنفصلة في الحرف الأخير وفق الحرف الأول . وقد ظل هذا النظام سائدا في المعاجم العربية التي ألفت في القرون التالية ، وأهمها « العباب » للصاغاني (ت ٥٧٧ هـ) و « لسان العرب » لابن منظور (ت ٧١١ هـ) و « القاموس المحيط » للفيروز ابادي (ت ٨١٧ هـ) و « تاج العروس » للزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) ، والمعاجم الثلاثة الأخيرة هي أكثر المعاجم العربية شهرة وانتشارا .

(١) انظر : البحث اللغوي عند العرب لأحمد مختار عمر ، القاهرة ١٩٧١ .

٤ - مصادر المعاجم الموسوعية العامة :

يعد د لسان العرب ، لابن منظور (ت ٧١١ هـ) أول معجم موسوعي ضخم . كان مؤلفو المعاجم قبل د لسان العرب ، ينزعون إلى الاختيار والانتقاء من المادة اللغوية المتاحة لهم في مصادرهم . ومن ثم سميت المعاجم بأسماء تعبر عن هذا الاتجاه الانتقائي : وعبر مؤلفو د جهرة اللغة ، و تهذيب اللغة ، و صحاح اللغة ، في مقدمات معاجمهم عن هذا . أما ابن منظور فقا . أراد تأليف معجم موسوعي كبير ولكنه لم يلبأ إلى جمع المادة جمماً مباشراً كما فعل اللغويون في القرن الثاني وكما فعل الأزهري في القرن الرابع ، بل اعتمد على خمسة معاجم اعتماداً كاملاً ، فأخذ مادتها وحشاً . ما في كتابه . يقول ابن منظور : « وأنا مع ذلك لا أدعى فيه دعوى ، فأقول شافيت أو سمعت أو فعلت أو صنعت أو شددت أو رحلت أو نقلت عن العرب العرباء . أو حملت . . . فكل هذه الذعاوى لم يترك الأزهري وابن سيده لقاتل مقالاً ولم يخليا فيه لأحد مجالاً » (١) . وقد صرح ابن منظور بعد ذلك بمصادره التي اعتمد عليها . وهي :

- ١ - تهذيب اللغة للأزهري . (ت ٣٧٠ هـ)
- ٢ - المحكم لابن سيده . (ت ٤٥٨ هـ)
- ٣ - الصحاح للجوهري . (ت ٣٩٣ هـ)
- ٤ - حواشي ابن بري . (ت ٥٨٣ هـ) على الصحاح
- ٥ - النهاية في غريب الحديث لابن الأثير الجزري (ت ٦٠٦ هـ)

أخذ ابن منظور ما وجدته في هذه المعاجم ونقله نقلاً . قال ابن منظور د ليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمت بها ، ولا وسيلة أتمسك بسببها ، سوى أني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم . . . ونقلت من كل أصل مضمونه ، ولم

(١) مقدمة لسان العرب ، المقدمة ٣/١ .

أبذل منه شيئاً . . . بل أدبت الأمانة في نقل الأصول بالنص ، وما تصرفت فيه
بكلام غير ما فيها من النص ، (١) . وبذلك اعتمد ابن منظور على مصادر تعود
بدورها إلى المادة التي جمع أكثرها في القرن الثاني الهجري ، بالإضافة إلى نقله المادة
الموجودة في معجم متخصص هو النهاية في غريب الحديث لابن الأثير .

ولكن ضخامة حجم « لسان العرب » ، أتاحت « للقاموس المحيط » ، والفيروزابادي
(ت ٨١٦ هـ) أن ينتشر ويصبح عنوانه بعد ذلك علماً على كل معجم عربي
حديث .

وتقابل كلمة قاموس التي فسرها الفيروزابادي بأنها البحر الأعظم إلى الكلمة
اليونانية Oceanos واللاتينية Oceanus وتعني المحيط ، وكان الفيروزابادي
قد عرف كلمة القاموس بهذا المعنى في البيئمة اللغوية الفارسية التي نشأ فيها (٢) .
اعتمد الفيروزابادي على معجمين موسوعيين هما المحكم لابن سيده ، والعياب
للساغاني ويعتمد كل منهما على معاجم أخرى سبقتهما . فالمحكم يضم ما جاء في كتاب
العين وجمهرة اللغة والبارع . أما العياب فيضم مادة معجم مقاييس اللغة والصحاح والمعاجم
المؤلفة حول الصحاح . وبذلك يقوم عمل الفيروزابادي على كل هذه الجهود . ولكنه
لم ينسخ ما أخذه من مصادره ، بل كان يأخذ خلاصة ما فيها ، ويحذف الشواهد ،

(١) لسان العرب ٤/١ .

(٢) هناك عدة معاجم عربية اتخذت أسماء البحر أو صفاته ، منها :

المحيط للصاحب بن عباد .

المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده . العياب للساغاني .

انظر : المعجم العربي لمدنان الخطيب ص ٤٨ .

وقد وردت كلمة القاموس بمعنى ماء البحر — قبل الفيروزابادي — عند

المقدسي ص ٣٧٥ في : أحسن التقاسيم ص ١٢٤ .

ويضيف إلى هذه المادة معلومات جديدة خاصة بالأعلام والنباتات . وبذلك
ضم القاموس المحيط مادة لغوية متنوعة ، قد شرحت شرحاً بسيطاً ، محذوف
الشواهد مطروح الزوائد .

ويعد تاج العروس للزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) أكبر المعاجم العربية على الإطلاق.
لقد ألف الزبيدي تاج العروس شرحاً للقاموس المحيط ، ولكن عمله تجاوز حدود
الشرح اللغوي البسيط ، فأصبح تاج العروس أضخم المعاجم العربية وأكثرها مادة
وشرحاً . اعتمد الزبيدي على المعاجم العربية الكثيرة التي أتت له منها الصحاح
للجوهرى وتهذيب اللغة للأزهري والمحكم لابن سيده ولسان العرب لابن منظور
وأساس البلاغة للزمخشري والمجمل لابن فارس والمعاجم الكثيرة التي ألفت إكمالاً
لهذه المعاجم أو تلخيصاً لها .

ولكن الزبيدي لم يكتف بهذه المعاجم - كما فعل كثير من سبقوه في التأليف
المعجمي - بل اعتمد على المعاجم القرآنية والحديثية ، والكتب اللغوية ، وكتب
الطبقات ، وشروح اللغويين على النصوص الأدبية . اعتمد الزبيدي على مجموعة من
معاجم ألفاظ القرآن والحديث مثل : كتاب الغريبين لابن عبيد الهروى ، والنهاية
في غريب الحديث لابن الأثير الجزرى ، المفردات للراغب الأصفهاني ، ومشكل
القرآن لابن قتيبة ، إلى جانب كتب القراءات ، مثل : الحجة في قراءات الأئمة
السبعة لابن خالويه . واعتمد الزبيدي على مجموعة كبيرة من كتب الدراسات اللغوية
والتنقيف اللغوى ، مثل : فصيح ثعلب ، وإصلاح المنطق لابن السكيت ، والخصائص
لابن جنى ، ورسنائة الإعراب لابن جنى ، والمقصود والممدود للقالى ، والأضداد
لابن الطيب اللغوى ، وتهذيب الأبنية والأفعال لابن القطائع . واعتمد الزبيدي
أيضاً على كتب كثيرة في الطبقات والأعلام والتراجم ، مثل جمهرة الأنساب لابن
حزم ، وطبقات الشافعية للسبكي ، والوفى بالوفيات للصفدى
واعتمد الزبيدي أيضاً على شروح الدواوين والمجموعات الشعرية مثل شرح ديوان

المهديين للسكري وشرح المعلقات السبع لابن الأبيباري الخ (١١) .
ولكن الزيدي أخذ ما أخذ من المصادر المتنوعة دون تعديل أو تعليق أو
إضافة . وكان شرحه لما جاء في القاموس المحيط نقولا من هذه المصادر التي
اعتمد عليها . وفي هذا يقول الزيدي « عن كل كتاب نقلت مضمونه ، فلم أهدل
شيئا ، فيقال فإنما إثمة على الذين يبدلونه ، بل أدبت الأمانة في شرح العبارة بالنص ،
وأوردت ما زدت على المؤلف بالنص » . وإذا كان الزيدي قد شرح القاموس
بالنقل من الكتب فإن مقدمته أيضاً تكاد في بعض فقراتها أن تكون منقولة من
مقدمة لسان العرب (٢) .

الجديد عند الزيدي أنه عاد إلى الكتب المبكرة وأخذ عنها مباشراً في عصر
عزت فيه معرفة التراث العربي القديم . كان معاصرو الزيدي ومن سبقوه بقرون
يعتمدون على الكتب التي نقلت بدورها ما جاء في التراث الأقدم . ولكن الزيدي
عاد إلى هذه الكتب الأقدم ، قال : « نقلت بالباشرة لا بالوسائط عنها » (٣) . ولنا
بعد معجم تاج العروس جامعاً لجهود مؤلفي المعاجم واللغويين والشرح في أكبر
موسوعة معجمية باللغة العربية .

• المعاجم الدلالية الخاصة ذات الترتيب الهجائي :

هناك عدد كبير من الكتب رتب فيها الألفاظ وفق الحروف الأصول ، أو
حروف السكلة كاملة ، أو وفق الموضوعات ، أو وفق الأبجدية وقد تناولت المعاجم

-
- (١) صرح الزيدي بأسماء الكتب التي عليها في مقدمة تاج العروس ٥/١ - ٩ .
 - (٢) قارن عبارة اللسان (٣/١) « وأنا مع ذلك . . . لا أجد مجالاً » ،
وقد نقلها الزيدي (١٠/١ عمود أ) ، كذلك عبارة اللسان (٣/١ - ٤) « وليس
لي في هذا الكتاب . . ما فيها من النص » ، نقلها تاج العروس (١٠/١ عمود ب) .
 - (٣) تاج العروس ٤/١ .

الدلالية الخاصة مستوى يعينه من مستويات اللغة ، فهناك معاجم لألفاظ القرآن الكريم ، ومعاجم لألفاظ الحديث ، ومعاجم للمصطلحات العلمية العربية ، وإلى جانب هذا فهناك معاجم تبحث الألفاظ الدخيلة في العربية من الناحيتين الاشتقاقية والدلالية . وهذه المعاجم الدلالية الخاصة تختلف عن المعاجم العامة في أنها لم تهدف إلى ألفاظ اللغة عموماً أو إلى جمهرة هذه الألفاظ ، بل كانت تتناول مجموعة محدودة من الألفاظ وتبحثها من النواحي الدلالية وتصنفها هجائياً .

ومن أهم المعاجم الدلالية المؤلفة لألفاظ القرآن الكريم : « المفردات في غريب القرآن » ، الراغب الإصفهاني (ت ٥٥٢ هـ) . يختلف كتاب المفردات عن الجمهور السابقة عليه في نفس الموضوع من ناحية الترتيب ، فكتاب « مجاز القرآن » ، لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩ هـ أو ٢٠٣ هـ) يضم بعد مقدمة عامة عن قضايا المجاز تفسيراً للألفاظ القرآنية من الجوانب الدلالية والصرفية مستشهداً على ذلك بشواهد من الشعر والأحاديث والأمثال ولكن مجاز القرآن لم يرتب موضوعاته أو ألفاظه ترتيباً معجمياً ، بل جاء بها وفق السور ، وشرح أبو عبيدة في إطار كل سورة ما ورد بها من قضايا . وقد ظل هذا النهج سائداً عند كثير من المؤلفين الذين بحثوا القضايا الدلالية لألفاظ القرآن الكريم في إطار تفسيرهم للسور ، ولذا لا يعتبر جهدهم معجمياً . نجد هذا أيضاً في كتاب : « تفسير غريب القرآن » ، لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) . لقد ذكر ابن قتيبة في أول كتابه أسماء الله الحسنى ثم الألفاظ الشائعة في القرآن الكريم وأخذ يشرح بعد ذلك الكلمات الغريبة مرتبة وفق السور يذكر الآية القرآنية ويشرح ما بها من غريب شرحاً مختصراً دون إفادة في تفصيلات صرفية أو نحوية أو دلالية . لا يعد مجاز القرآن لأبي عبيدة ولا تفسير غريب القرآن لابن قتيبة من معاجم مفردات القرآن الكريم . فإنها وإن تضمنتا قضايا دلالية كثيرة ، إلا أن الكتابين لم يتخذا منها معجماً في ترتيب الألفاظ التي شرحت فيهما . وبذلك يختلف هذان الكتابان وغيرهما من الكتب عن كتاب

المفردات في غريب القرآن للاصنفاني وقد رتب الراغب الاصنفاني مفردات القرآن باعتبار حروفها الاصول ترتيبا هجائياً . واتبع بذلك ما جرت عليه المعاجم العربية العامة من ترتيب الكلمات وفق حروفها الاصول .

ويعد كتاب : « النهاية في غريب الحديث » لابن الاثير الجزرى (ت ٥٦٠٦)
ثمرة كتب كثيرة تناوت موضوع غريب الحديث ، وقد أشار ابن الاثير إلى هذه
الجمود في مقدمة كتابه . ويرجع الاهتمام بالفاظ الحديث إلى أبي عبيدة معمر بن المنذر
والاصمعي وأبي عبيد القاسم بن سلام وابن قتيبة . ولكن هؤلاء لم يرتبوا الالفاظ
التي شرحوا ترتيبا معجميا ، بل كانت تشرح وفق الاحاديث . وقد اعتمد ابن الاثير
الجزرى في معجمه « النهاية في غريب الحديث » على معجمين ألفا قبله في هذا
الموضوع . ففي القرن الرابع الهجرى ألف أبو عبيد الهروى أول معجم لالفاظ
الحديث ، ثم ألف أبو موسى الاصنفاني معجما مكتملا لمعجم الهروى وقام ابن الاثير
الجزرى بالجمع بين معجمي الهروى والاصنفاني في معجم واحد خاص بالفاظ
الحديث وحدها . وقد رتب ابن الاثير معجمه مثل ترتيب الهروى والاصنفاني وفق
الحروف الاوائل . ولكن منهج ابن الاثير اختلف عن معجمي الهروى والاصنفاني
والمعاجم العربية العامة من ناحية أساسية . فقد وجد أنه من الصعب الالتزام بفكرة
ترتيب الكلمات وفق حروفها الاصول وعدم مراعاة باقى حروف الكلمة . وإذا
كانت المعاجم العربية من كتاب العين إلى تاج العروس قد رتبت الكلمات وفق
حروفها الاصول فقط ، فإن ابن الاثير كان قد وجد في هذا صعوبة عملية . فرتب
الكلمات بمراعاة كل حروفها دون تمييز بين الاصول والزوائد ، وفي هذا يقول
ابن الاثير : « وجدت في الحديث كلمات كثيرة في أوائلها حروف زائدة ، قد بنيت

(١) النهاية في غريب الحديث ١١/١ .

الكلمة عليها حتى صارت كأنها من نفسها فرأيت أن أئتمتها في باب الحرف الذي هو في أولها وإن لم يكن أصليا ، ونهيت عند ذكره على زيادته لئلا يراها أحد في غير بابها فيظن أني وضعتها فيه للجهل بها ، (١) . ومن هذا الجانب أيضا يختلف كتاب النهاية في غريب الحديث عن المعاجم العربية العامة .

وأهم المعاجم العربية الخاصة بالألفاظ الدخيلة هو كتاب «المعرب من الكلام الأعجمي» للجواليقي (ت ١٥٤٠ هـ) . وقد حدد الجواليقي موضوع كتابه بالبحث في الألفاظ الدخيلة من اللغات الأجنبية المختلفة ، والتي استخدمت في القرآن المجيد وأخبار الرسول والصحابة وفي أشعار العرب وأخبارها . وقد أثبت الجواليقي أن هذه الألفاظ الدخيلة من لغات مختلفة ، مثل : الفارسية ، والآرامية التي تسمى عنده بالنبطية . ولذا لم يكن ترتيب هذه الألفاظ باعتبار حروفها الأصول أمراً مقبولا فأجاء الألفاظ غير العربية وغير السامية على النمط الصرفي للغة العربية نوع من التعسف غير المقبول عليا . ولذا رتب الجواليقي الألفاظ التي نأشها في كتابه من الجانبين الدلالي والاشتقائي ترتيبا معجميا يراعى كل حروف الكلمة ، وبذلك خرج الجواليقي على المبدأ السائد في المعاجم العربية العامة .

وهناك عدد من المعاجم الخاصة بالمصطلحات العلمية ، منها التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦ هـ) وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (المؤلف ١١٥٨ هـ) . وبعد كتاب التهانوي أكبر معجم عربي للمصطلحات العلمية ، والتهانوي مؤلف هندي وجد المصطلحات المتداولة في التراث العربي في العلوم المختلفة بحاجة إلى معجم دلالي يوضح معانيها . فإذا كانت المعاجم العربية العامة قد اعتمدت على حركة جمع اللغة والشعر القديم في القرن الثاني الهجري ، فإن المصطلحات العلمية لم تنشأ في البداية عند القبائل التي اعتمد عليها اللغويون . لقد كثرت المصطلحات العلمية العربية مع تنوع جوانب المعرفة العربية واتساع الأفق العلمي في القرن الثالث والقرون التالية .

ولذا كانت المصطلحات خارج إطار اهتمام المعاجم العربية العامة ، وليس مصادفة أن يكون الاهتمام بهذه المصطلحات واضحا عند عدد من العلماء غير العرب فهؤلاء وجدوا صعوبة في فهم هذه المصطلحات ، فأثارت اهتمامهم . وكانت ثمرة هذا الاهتمام معجما كبيرا ، مثل : كشف اصطلاحات الفنون للتهانوى . وفي هذا يقول التهانوى : « ولم أجد كتابا حاويا لاصطلاحات جميع العلوم المتداولة بين الناس وغيرها ، وقد كان يحتاج في صدرى أو ان التحصيل أن أؤلف كتابا وافيا لاصطلاحات جميع العلوم ، كافيًا للمتعلم من الرجوع إلى الأساتذة العالمين بها » (١) .

قدم التهانوى لكتابه بعرض عام حول العلوم وتصنيفها ، أما المصطلحات العلمية فقد جاءت عنده مرتبة ترتيباً معجمياً وفق الحرف الأول من حروفها الأصول ، وبهذا نهج التهانوى نهج بعض المعاجم العربية مثل أساس البلاغة للزمخشري .

٦ - المعاجم الموضوعية :

توجد عدة أنواع من المعاجم الموضوعية في التراث العربي ، فهناك معاجم اهتمت بالألفاظ الغريبة ، مثل : الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٥٢٢٤هـ) . وهناك مجموعة كبيرة من الكتب التعليمية التي كانت تهدف إلى تقريب الألفاظ لمن أراد حصيلة لغوية تعينه على الكتابة العربية الفصيحة ، وتصنف هذه الكتب ألفاظها في موضوعات وتذكر الألفاظ الخاصة بكل موضوع بغض النظر عن حروفها الأصول أو الزائد . وأهم هذه الكتب التعليمية الدلالية ذات التصنيف الموضوعي « كتاب الألفاظ » لابن السكيت (ت ٥٢٤هـ) و« كتاب جواهر الألفاظ » لقدماء بن جعفر (ت ٣٢٧هـ) و« متخير الألفاظ » لأحمد بن فارس (ت ٥٢٩هـ)

(١) كشف اصطلاحات الفنون ١/١ .

و « الالفاظ الكتابية » لعبد الرحمن الهمذاني (ت ٥٣٢٧) و « وفقة اللغة »
للنعماني (ت ٥٤٢٩) . وهذه الكتب التعليمية لا تهتم بالالفاظ الغريبة بل تهتم
بالالفاظ التي ارتضتها الدوائر الثقافية التي كانت تنفر من التفرع كما تنفر من العامية .

ولكن أكبر معجم موضوعي باللغة العربية هو « المخصص » لابن سيده
(ت ٥٤٥٨) ، تناول ابن سيده — بعد مقدمة عامة في قضايا اللغة — المفردات
العربية وصنفها تصنيفا موضوعيا . فعندما ذكر الالفاظ الخاصة بخلق الإنسان
أورد ما يتعلق بجسم الإنسان وحياته الإجتماعية ، ثم جاءت بعد ذلك الأقسام
الخاصة بالأبنية والسلاح والحيل والابل والغنم . . . الخ والانواع . . . والماء . .
والمشاوره . . . والاستعداد . . : والغناء والرقص واللعب . . . الخ وأفراد ابن سيده
قسما كبيرا في آخر كتابه لمجموعة من القضايا الصرفية شغلت السدس الأخير من
كتاب المخصص .

٧ - كتب الأبنية الصرفية :

هناك مجموعات من الكتب في موضوعات صرفية تناوأت الكلمات في إطار
الوزن الصرفي أو الظاهرة الصرفية . وأهم هذه الكتب مجموعة من الكتب الخاصة
بأبنية الأفعال ، ومجموعة أخرى خاصة بالمقصور والممدود ، ومجموعة ثالثة خاصة
بالمذكر والمؤنث .

تناولت كتب الأفعال موضوعا خاصا بصيغتي فعل وأفعل . وألف عدد من
اللغويين كتباً بعنوان « فعلت وأفعلت » ، وأهم هؤلاء أبو حاتم السجستاني
(ت ٢٥٥) (ت ٣١١) . وضمت مجموعة أخرى — من كتب
الأبنية — الأفعال في اللغة العربية ، وقد رتبها بمراعاة بنيتها وحروفها الأصول
ومن هذه الكتب « كتاب الأفعال » لابن القوطية (ت ٥٣٦٧) و « كتاب الأفعال »
للسرقسطي (ت بعد ٤٠٠) و « كتابات الأفعال » لابن القطاع (ت ٥١٥) .

واهتمت الكتب الخاصة بأبنية الاسماء. بموضوع المقصود والممدود، ويسدو أن الفراء (ت ٢٠٧ هـ) كان أول من ألف من ألف هذا الموضوع. وفي القرن الرابع الهجري ألف كتابان هامان في هذا الموضوع هما: كتاب القالي (ت ٣٥٦ هـ) وابن ولاد (ت ٣٢٢ هـ).

وهناك مجموعة أخرى من كتب الأبنية الخاصة بالاسماء تناولت موضوع التذكير والتأنيث. وأهم من ألف كتباً بعنوان المذكر والمؤنث: الفراء (ت ٢٠٧ هـ) وأبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) والمبرد (ت ٢٨٥ هـ) — والمفضل بن سلمة (ت بعد ٢٩٠ هـ) والابنباري (ت ٢٢٨ هـ) والستري (ت بعد ٣٦٠ هـ) وابن جني (ت ٣٩٢ هـ) وابن فارس (ت ٣٩٥ هـ)، وابن الابنباري (ت ٥٧٧ هـ).

وقد خصصت كتب التنقيف للغوى ولحن العامة فصولاً لأبنية الصرف للأفعال والاسماء، واهتمت ببيان الأبنية في الفصحى ومدى اختلافات اللهجات العربية من الفصحى من هذا الجانب.

٨- كتب التنقيف للغوى ولحن العامة:

بدأ الاهتمام بتأليف الكتب الغوية الهادفة إلى تعليم الفصحى والابتعاد عن التأثيرات العامية في الاستخدام اللغوي في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (١). كان

(١) حول التطور الدلالي لكلمة «لحن»، أنظر:

العربية ليوهان فلك، ترجمة: عبد الحليم النجار ٢٣٥ - ٢٤٦، القاهرة ١٩٥١

لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة لعبد العزيز مطر.

لحن العامة والتطور لرمضان عبد التواب ٩ - ٣٣، القاهرة ١٩٦٧.

اللغويون قد اعتبروا اللهجات صوراً فاسدة من الاستخدام اللغوي ، فسجلوا بعض ظواهر اللهجات إيماناً بخطئها وأشاروا إلى ما ينبغي أن يقال بدلاً منها في النصحي ، ولكن البحث اللغوي الحديث يتناول تراث لحن العامة والتثقيف اللغوي باعتباره من مصادر التاريخ اللغوي .

وهناك مجموعة من الكتب التي أنشئت في العراق من القرن الثاني إلى القرن السادس الهجري وتدخل في هذا الإطار . وأهم هذه الكتب ، ما تلحن فيه العامة للكسائي (ت ١٨٩ هـ) ، وإصلاح المنطق لابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) ، وأدب الكاتب لابن قتيبة (ت ٢٦٦ هـ) ، ودرة الغواص للحريزي (ت ٥١٦ هـ) ، والتكملة للجرالقي (ت ٥٢٩ هـ) ، وتقويم اللسان لابن الجوزي (ت ٥٧٩ هـ) ويرجع قسم كبير من المادة المسجلة في كل كتاب من هذه الكتب إلى مؤلف كل كتاب منها ، ولذا يمكن التعرف منها على جوانب الاستخدام اللغوي في جنوب العراق من القرن الثاني حتى القرن السادس الهجري .

وقد وصلت إلينا من المغرب والاندلس وصقلية مجموعة كتب في لحن العامة والتثقيف اللغوي . وأقدم هذه الكتب « لحن العوام » لآل أبي بكر الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ) وهو كتاب أندلسي ، ولكن أكبر هذه الكتب هو كتاب « تثقيف اللسان » لابن مكى الصقلي (ت ٥٥١ هـ) الذي يصور لهجة صقلية العربية آنذاك . وقد وصل من تونس كتاب بعنوان « الجمانة » في إزالة الرطانة ، منسوباً لابن الامام (ت بعد ٨٢٧ هـ) .

وأما مصر والشام فلا نعرف عنهما كتاباً في لحن العامة والتثقيف اللغوي إلا من القرنين التاسع والعاشر للهجرة . فسكتب ابن الحنبلي (ت ٩٧١ هـ) قد تكون المصدر الوحيد للتعرف على لهجة الشام في العصر الإسلامي وما تزال أكثر هذه الكتب مخطوطة (١) . والآثر المصري الوحيد الذي وصل إلينا في لحن العامة

(١) المرجع السابق ص ٢٩٣ وما بعدها .

هو ، كتاب دفع الاصر على كلام أهل مصر ، ليوسف المغربي (ت ١٠١٩ هـ) .
وقد حاول ابن الخبلي والمغربي أن يبحثا جوانب من لهجة الشام ومصر بهدف
إثبات عروبتها والدفاع عنها ، وبذلك تختلف هذه الكتب عن مجموعة كتب لحن
العامة المؤلفة في العراق والاندلس .

٩ - كتب الموضوعات الصوتية :

اهتم اللغويون العرب بتأليف الكتب والرسائل في القلب والإبدال من جانب ،
وفي الضاد والظاء من الجانب الآخر ، ويرجع التركيز على كلا الموضوعين إلى كون
اللهجات العربية كانت تمتد اللغويين بمادة ثرية فيهما .

فهناك عدة مئات من الكلمات العربية ، عرفت اللهجات العربية القديمة كل
كلمة منها في عدة صيغ ، كل صيغة منها في صوت بعينه ، وذلك مثل : متن/متل .
وقد ألفت عدة كتب تناول هذه الصيغ ، وأهم هذه الكتب : القلب والإبدال
لابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) ، والإبدال والمعاقبة والنظائر الزجاجي (ت ٢٣٧ هـ) ،
كتاب الإبدال لأبي الطيب اللغوي (ت ٣٥١) .

وقد أدى الخلط بين الضاد والظاء في اللهجات العربية الوسيطة إلى اهتمام كثير
من اللغويين بتأليف رسائل لغوية تضم الألفاظ التي يرد فيها أحد الصوتين . ومن
أهم من ألف في الفرق بين الضاد والظاء : أبو عمر الزاهد (ت ٥٣٤ هـ) ، والصاحب
بن عباد (ت ٣٨٥) ، وأبو الحسن الصقلي (ق ٥٥٠) . وأبو القاسم الزنجاني
(ق ٥٥٠) ، والحريري (ت ٥٥٦ هـ) وغيرهم .

الفصل السابع

المنهج المقارن وتصنيف اللغات

١ - تصنيف اللغات :

قسم اللغويون الأوروبيون في القرن التاسع عشر اللغات المختلفة إلى مجموعات فهناك أسرة اللغات الهندية - الأوروبية التي تضم عدداً كبيراً من اللغات المنتشرة في منطقة شاسعة من الهند وإيران إلى أوروبا ، وهناك أسرة اللغات السامية التي تنتمي إليها اللغة العربية ، وإلى جانب هاتين الأسرتين الكبيرتين هناك أسر لغوية كثيرة أخرى . ويقوم تصنيف اللغات إلى أسر على أساس أوجه الشبه بين هذه اللغات من الجوانب الصوتية ، والصرفية والنحوية والمعجمية^(١) . قد يحدث تغير في المكونات الصوتية يجعل لغة من اللغات تختلف في مرحلة من مراحل تطورها عن اللغة الأم التي انحدرت عنها ، وهنا يحاول اللغويون تسجيل

(١) حول المنهج المقارن وتصنيف اللغات ، انظر :

R. H. Robins, A short History of Linguistics. London 1967.

وقد خصص المؤلف روبنز الفصل السابع من الكتاب المذكور لبيان تطور

المنهج المقارن :

Comparative and historical Linguistics in the nineteenth Century.

S. Potter, Language in the Modern World. Pelican 1969. 10,
144 — 162.

B. E. Vidos, Handbuch der romanischen Sprachwissenschaft.
München 1968 s. 37 — 56.

هذا التغير الصوتي ويطلق عليها اسم « القوائين الصوتية » ، وقد تنمو الصيغ الصرفية وتغير أشكالها وتنشأ من العناصر القديمة كلمات جديدة ، وهنا يبحث اللغويون مدى الاتفاق والتشابه في الصيغ الصرفية بين اللغات المندرجة في أسرة لغوية واحدة بهدف إثبات اتجاهات التغير الصرفي . ومثل هذا يقال بالنسبة للتغير الدلالي فإن دلالة الكلمات تتغير وتختلف بشكل ما في اللغات المختلفة التي خرجت عن أصل واحد مشترك ، وهنا تكون مقارنة الكلمات المشتركة بدلالاتها المتغيرة في لغات الأسرة الواحدة موضوعاً من موضوعات البحث المقارن .

إن تصنيف اللغات إلى أسرات يعني أن اللغات المندرجة في أسرة لغوية واحدة ترجع إلى لغة واحدة ، هي الأصل الذي تفرعت عنه لغات الأسرة كلها . فعندما يقال بأن العربية والآرامية لغتان ساميتان ، فالمقصود أن اللغتين من أصل واحد ، وأنهما تطورتا عن لغة واحدة هي اللغة السامية الأولى وقد افترض العلماء وجود هذه اللغة في عصور مفرقة في القدم لتفسير انتماء اللغات العربية والآرامية والحبشية الخ . . إلى أسرة لغوية واحدة وعندما يذكر الباحثون أن اللغتين العربية والفارسية من أصلين مختلفين : العربية سامية والفارسية هندية أوروبية ، فالمقصود أن كليهما تطورت عن أصل مستقل وأنهما بذلك من أسرتين لغويتين مختلفتين . وتكون الفارسية مع عدد من اللغات في الهند وأوروبا أسرة لغوية كبيرة ، هي الأسرة الهندية - الأوربية . لقد أدت الدراسة اللغوية المقارنة في القرن التاسع عشر إلى تصنيف اللغات على أساس أوجه الشبه بينها . وكلما زادت أوجه الشبه بين لغتين أو أكثر ، عدت هذه اللغات الأكثر تشابهاً فرعاً لغوياً في إطار الأسرة اللغوية الواحدة . وبهذا المعنى يذكر الباحثون العربية الشمالية والعربية الجنوبية واللغات السامية في الحبشة باعتبارها تكون الفرع الجنوبي من أسرة اللغات السامية ، لأن هذه اللغات أكثر تشابهاً ، وتشارك في صفات أكثر من الصفات التي تشارك فيها مع باقي اللغات السامية . وتنقسم الأسرة الهندية - الأوربية بدورها إلى عدة أفرع ، فإذا قارن أحد الباحثين اللغة الأردية باللغة الفرنسية مثلاً لم يستطع أن

يتبين أوجه شبه تذكر، ولكن أوجه الشبه تتضح بمقارنة اللغات الفرنسية والإيطالية والاسبانية والرومانية ترجع هذه اللغات إلى أصل واحد هو اللاتينية ، ولذا تكون هذه اللغات فرعاً واحداً من أفرع الأسرة الهندية - الأوربية وهو الفرع الروماني وهناك أوجه شبه كبيرة بين الإنجليزية والألمانية وغيرهما من لغات الفرع الجرمانى من الأسرة الهندية الأوربية. تتضح أوجه الشبه بصورة متزايدة كلما كانت النصوص موضع البحث قديمة ، ولذا فقد أمكن عن طريق مقارنة اللغات الأقدم في كل فرع من أفرع الأسرة الهندية - الأوربية إثبات أن هذه اللغات من أصل واحد هو اللغة الهندية - الأوربية الأولى . وكانت مهمة البحث بعد ذلك بيان أوجه الاختلاف بين هذه اللغات وتفسير ذلك بقوانين تاريخية (١) .

يقوم علم اللغة المقارن على دراسة مجموعة اللغات المنتمة إلى أسرة لغوية واحدة وليس المقصود بذلك القدرة على التحدث بهذه اللغات القديمة والحديثة أو القدرة على الكتابة بهذه اللغات ، بل المقصود ببحث هذه اللغات . فعلى الرغم من ضرورة معرفة الباحث المقارن بكل اللغات موضع المقارنة فعليه أن يبحث بشية ومعمج هذه اللغات بهدف إيضاح العلاقات التاريخية التي تربط لغات الأسرة الواحدة وأن يفسر هذه العلاقات بقوانين ثابتة مطردة . لقد أثبت تاريخ الحضارة في الشرق والغرب أن مجرد المعرفة باللغات المتشابهة والمختلفة لا يعنى بالضرورة قياس بحث مقارن فيها ، فلم تؤد معرفة كثير من العلماء على مدى القرون بعدة لغات إلى قيام

(١) حول ملاحم واتجاهات التغير اللغوى :

H. Paul, Prinzipien der Sprachgeschichte. 1886, Tubingen 1960.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية :

Principals of the History of Language. London 1899.

دراسات مقارنة بالمعنى الذى حدث فى القرن التاسع عشر . فى العصور الوسطى كان كثير من العلماء يؤلفون بلغات ويتحدثون فى حياتهم اليومية بلغات أخرى .

٢ - العرب واللغات الأجنبية

فى إطار الحضارة العربية الإسلامية كان كثير من النحويين واللغويين يؤلفون بالعربية ويعرفون الفارسية أو التركية . فسبويه صاحب أقدم كتاب وصل إلينا فى النحو العربى كان يعرف الفارسية^(١) ، والسيرافى مؤلف أقدم شرح وصل إلينا على كتاب سبويه نشأ أيضاً فى بيئة لغوية فارسية^(٢) ، أما أبو الفرج بن العبرى (المتوفى ١٢٨٦ م) فكان يعرف العبرية وألف بالسريانية والعربية . كان ابن العبرى مؤرخاً ولغويًا اهتم بمجهود النحاة العرب ودرس « المفصل » للزمخشري ، وألف فى النحو السريانى على غرار المفصل^(٣) . أما النحاة اليهود فى الأندلس

(١) حول سبويه ومعرفة بالفارسية ، الكتاب ٣/٤٤٢ .

(٢) نشأ السيرافى فى منطقة جنوب غرب إيران المواجهة لدولة عمان الحالية وكانت المنطقة التى نشأ بها تستخدم الفارسية كما تتعامل مع باقى أنحاء الدولة الإسلامية بالعربية . ولم يكن السيرافى من العرب الذين هاجروا إلى هذه المنطقة بل كان أبوه فارسياً بجوسياً أسلم وتغير اسمه . وتدل القرائن ونصوص الرحالة الجغرافيين على أن سكان هذه المنطقة كانوا يعيشون فى بيئة ثنائية اللغة ، حول سيرافى انظر كتاب المسالك للاصطخرى (ليدن ١٨٧٠) ص ١٤٨ ، أحسن التقاسيم للمقدسى (ليدن ١٩٠٠) ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، ٤٢٢ .

(٣) حول الجهود النحوية لأبى الفرج بن العبرى ، انظر :

Oeuvres grammaticales d'Abou 'L faradž dit Bar Hebraeus
épitées par M. L'abbé Martin. Paris 1872.

Barhebraeus Buch der Strahlen.

=

الإسلامية فقد درسا النحو العربي ، وألفوا نحواً للعبرية على أساس معرفتهم بمنهج التحليل النحوي عند العرب^(١) . وإلى جانب هؤلاء جميعاً كان النحوي العربي أمير الدين بن حيان رائد التأليف في النحو التركي ، وربما كان أيضاً أول مؤلف في النحو الحبشي^(٢) .

= ويضم هذا الكتاب ترجمة لكتاب الجمع إلى اللغة الألمانية أعدها A. Moberg وآخر تحقيق للنص السرياني لهذا الكتاب .

Le Livre des Splendeurs la grande grammaire de Grégoire Barhebraeus, texte Syriaque éd. et notés par Axel Moberg, Lund 1922.

(١) حول النحاة العبريين في العصور الوسطى ، انظر :

H. Hirschfeld, Literary history of Hebrew grammarians and lexicographers.

London 1926, 7.

P. Wechter, Ibn Baran's Arabic works on Hebrew grammar and lexicography, Philadelphia, 1964.

(٢) حول أبي حيان النحوي ومؤلفاته :

أبو حيان النحوي للنديجة الحديثي ، بغداد ١٩٦٦ .

ومنهج السالك في الكلام على الفية ابن مالك ، تحقيق : سدي جليزر :

S. Glaser. New Haven [1946].

وقد ألف أبو حيان في نحو عدد من اللغات غير العربية :

١ - الأفعال في لسان الترك (ذكره في الإدراك) .

٢ - الإدراك لسان الأتراك (موجود في مخطوط بالقاهرة ، وطبع بتركيا

١٣٠٩) .

= ٣ - زهو الملك في نحو الترك (مفقود) .

وفوق هذا فقد عرف ابن حزم القرابة اللغوية بين العربية والعبرية والسريانية وشبه هذه القرابة بقرابة لهجات اللغة الواحدة . قال ابن حزم ، الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعه لالغة حمير لغة واحدة تبدلت مساكن أهلها ، تحدث فيها جرش كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نعمة أهل القيروان ومن القيرواني إذا رام نعمة الأندلسي . ونحن نجد من سمع لغة أهل لحص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كأد يقول إنها لغة أخرى غير أهل قرطبة . وهكذا في كثير من البلاد فإنه بجواررة أهل البلدة بأمة أخرى تبدل لغتها تبديلا لا يخفى على من تأمله . . . وإذا تعرب الجليقي أبدل من العين والحاءاء فيقول مهمدا إذا أراد أن يقول عمدا . ومثل هذا كثير . فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة في الأصل ،^(١) وهكذا أتبع لبعض النحاة والمفكرين في الدولة الإسلامية أن يعرفوا لغات متناهية ، ومن أصل واحد مثل العربية والعبرية والسريانية ، وأن يعرف بعضهم إلى جانب العربية لغات أخرى تختلف ببيتها عن بقية اللغات السامية

٤ = — منطق الخرس في لسان الفرس (مفقود) .

٥ — نور الغبش في لسان الحبش = جلاء الغبش عن لسان الحبش

(مفقود) قارن البحر المحيط ٤/١٦٢ — ١٦٣ .

٦ — المخجور في لسان البشمور = المخجور في لسان اليعفور (مفقود) ولم

نستطع التعرف على تلك اللغة التي أشار إليها أبو حيان بكتابه هذا . انظر : خديجة الحديثي ١٧٦ — ١٨٧ . وانظر كذلك النص الهام : « وقد اطلعت على جملة من

اللسان كلسان الأرك ولسان الفرس ولسان الحبش وغيرهم وصنفت فيها كتباً في لغتها ونحوها وتصريفها . » منهج السالك ٢٣٠ .

(١) الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم (ط القاهرة د . ت) راجعه :

أحمد شاكر ٣٠/١ .

مثل اللغة الفارسية ، وهي لغة هندية أوروبية ، واللغة التركية وهي لغة تنتمي إلى مجموعة لغوية أخرى .

٣ - الأوربيون والمقارنات

وفي إطار العصور الوسطى اللاتينية كان النحو أحد الفنون السبعة أى العلوم التي تناولها التدريس والشرح والتعليق في كل أنحاء غرب أوروبا (١) . وكان كثير من أبناء المنطقة الحضارية اللاتينية منتمين أيضاً إلى بيئات لغوية تختلف لغاتها عن اللاتينية اختلافاً بعيداً ، ولانتم إليها إلا بصفة قرابة بعيدة. اهتم عدد من المؤلفين المنتمين للبيئات اللغوية الإنجليزية والإيسلندية والألمانية ابتداءً من القرنين السابع والثامن للميلاد بتأليف المعاجم البسيطة للغة اللاتينية مع الألفاظ المقابلة بلغة أخرى مثل الإنجليزية القديمة ، كما اهتموا بالتأليف في النحو اللاتيني (٢) .

(١) الفنون السبعة « Seven Liberal Arte » هي النحو والجدل والبلاغة من جانب والموسيقى والحساب والهندسة والفلك من الجانب الآخر . وقد أطلق علماء العصور الوسطى اللاتينية على العلوم الثلاثة الأولى « trivium » وعلى العلوم الأربعة الأخيرة « quadrivium » ، ويرجع المصطلحان كما يرجع التصنيف إلى العالم السياسي الروماني Boethius في أواخر القرن الخامس الميلادي أنظر أيضاً :
R.H. Robins, A short History of Linguistics. p. 69.

J. Koch (ed.), Artes liberales. Leiden 1946.

(٢) من أقدم الجهود في النحو اللاتيني في أواخر القرن العاشر الميلادي :

Aelfric's, latin grammar and colloquium .

وقد كان المؤلف أحد رجال الدين الذين اهتموا بتعليم اللاتينية للتلاميذ الإنجليز من أبناء اللغة الإنجليزية القديمة (الآنجلو - سكسونية) ، انظر المرجع المذكور ص ٧٠ . وكذلك تحقيق هذا الكتاب مع المعجم :

J. Supitza (ed.), Aelfrics Grammatik and Glosser, Berlin 1880 (Sammlung englischer Denkmäler I) .

وقد ذكر روبنز في كتابه المذكور كتاباً لنحوى إيسلندي غير معروف ، انظر

ص ٧٢ وما كتبه حول : First grammatical treatise

كان هؤلاء المؤلفون يتعاملون في حياتهم اليومية بلغات تختلف عن اللاتينية اختلافا بعيدا ولكنها تمت إليها بصلته قرابة بعيدة . وعلى الرغم من هذا فلم تؤد معرفتهم بهذه اللغات إلى بحث بنيتها وبيان أوجه الشبه والخلاف أو العلاقات التاريخية بينها . وكل ما عرفه أولئك العلماء بمجموعة ملاحظات عابرة لا تنظم في إطار نظرية علمية . وبدأت أقدم محاولات الباحثين الأوروبيين للتعرف على علاقات القرابة بين اللغات في القرن الرابع عشر الميلادي ، فقد أدرك دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١) ببحث عدد من المفردات في اللغات الأسبانية والبرفسالية والفرنسية والإيطالية أن هذه اللغات ترجع إلى أصل واحد . ولكن دانتي لم يجعل هذه اللغات متفرعة عن اللاتينية ، لأنها في رأيه لغة مصنوعة صنعها العلماء ليتعاملوا بها وأنها لم تكن لغة حية طبيعية في وقت من الأوقات . وإذا كان البحث العلمي قد أثبت خطأ هذا الرأي وأوضح أن اللغات الرومانية المختلفة إنما تطورت عن أصل واحد هو اللاتينية الشعبية ، أي اللاتينية في صورتها المنظورة ، فإن أهمية رأي دانتي ترجع إلى تصنيفه لهذه اللغات في إطار واحد^(١) . وهناك محاولات كثيرة تالية لتصنيف اللغات الأوروبية المختلفة في مجموعات ، ولكن قصور هذه المحاولات يرجع إلى كونها قامت على دراسة المفردات ولم تقم على دراسة البنية الصوتية والصرفية والنحوية . وقد صنف سكاليجر Scaliger (١٥٤٠ - ١٦٠٩) اللغات الأوروبية إلى أربع مجموعات رئيسية . وهي المجموعة الرومانية والمجموعة اليونانية والمجموعة الجرمانية والمجموعة السلافية . وأضاف إلى هذه المجموعات سبع مجموعات فرعية تدخل فيها باقي لغات القارة الأوروبية . وتدخل الفنلندية والمجرية وهما من غير اللغات الهندية - الأوروبية

(١) جاء هذا في بحث دانتي :

Dante, De Vulgari Elequentia I 8.

وكذلك -

B. E. Vidos, Handbuch der romanischen Sprachwissenschaft, 23.24
Munchen 1968.

في هذه المجموعات الفرعية⁽¹⁾ . ولكن نجاخ سكاليجر ومؤلفي المعاجم المتعددة اللغات في القرن السابع لم يتجاوز مجرد التصنيف ، فلم يتجاوز هؤلاء تصنيف المفردات ولم يبحثوا المراحل الأقدم لهذه اللغات من الجوانب الصوتية والصرفية والنحوية . ولذا كان عملهم مجرد ملاحظات جزئية كثيرة لم يخرجوا منها بقواعد هامة أو بقوانين توضح الفروق بين اللغات الأقدم واللغات الأحدث وتفسر مسار التغير اللغوي . لم يحاولوا أبدا استنتاج العلاقات القديمة ، ثم المعرفة في القدم بين هذه اللغات . وظل هؤلاء المؤلفون أمرى الفكرة الموروثة عن العهد القديم القائلة بأن العبرية هي أصل لغات الأرض . وهكذا كان الاطمئنان إلى صحة هذه الفكرة معوقا أمام جهد هؤلاء العلماء في النظر إلى المراحل المورثة في القدم في تاريخ اللغات .

٤ - نشوء علم اللغة المقارن :

لقد بدأ التقدم الحقيقي في علم اللغة المقارن في القرن التاسع عشر بعد أن اكتشف الأوروبيون اللغة السنسكريتية⁽²⁾ ، وهي لغة تراث الهند القديم . إن السنسكريتية لم تمت ، وما يزال بعض العلماء الهنود يقرأون نصوصها ويؤلفون بها . لاحظ

(١) أنظر روبنز : R.H. Robins, p. 167.

وقد أطلق سكاليجر على كل مجموعة من هذه المجموعات مصطلح *Muttersprache* أي اللغة الأم باعتبار أنها اللغة التي خرجت منها لغات أخرى .

(٢) يطلق الباحثون الأوروبيون على معرفة الغرب لأول مرة للغة السنسكريتية إعادة اكتشاف اللغة السنسكريتية ، رغم أنها كانت معروفة بصورة مطردة عند عدد من العلماء الهنود .

وأول أوربي ذكر في العصر الحديث السنسكريتية هو Sir William Jones وكان قاضيا انجليزيا في البنغال . (1746.94)

اللغويون الأوربيون الشبه الواضح السنسكريتية باللغات الأوربية القديمة . ولا تقتصر أوجه الشبه على طائفة من المفردات المتشابهة ، فالألفاظ تنتقل في يسر من لغة إلى أخرى . ولكن الباحثين ركزوا جهدهم على إيضاح جوانب الشبه في بنية اللغة السنسكريتية واللغات الأوربية القديمة من الجوانب الصوتية والصرفية والنحوية .

ومر البحث اللغوي المقارن بعد بدايته الموفقة مع اكتشاف السنسكريتية بعدة مراحل مضى فيها شيئاً فشيئاً نحو استخراج القوانين التاريخية للتغير اللغوي . كان شليجل F. Schlegel أول من طالب بدراسة البنية اللغوية للغة السنسكريتية باعتبارها منطلقاً للمقارنات اللغوية (١) ، لقد درس شليجل اللغة السنسكريتية . وكان إعجابها بها على نحو إعجاب الرومانيين واللاتينيين والألمانيين بكل شيء قديم وغريب ، ورأى اللغات الأوربية القديمة مثل الإغريقية واللاتينية والجرمانية من أصل سنسكريتي . كان شليجل سعيه كل السعادة باللغة السنسكريتية وكأنه قد توصل بها إلى طفولة البشرية وإلى اللغة القديمة النقية والاصيلة . وقد أحرز علم اللغة المقارن في الأجيال التالية لشليجل تقدماً مطرداً حقق للبحث اللغوي درجة من الدقة والعلمية ، وخفت نشوة الوهم بالهند والسنسكريتية ويوم أنها هي الأصل النقي القديم . كان فرانتس بوب F. Bopp أول من ألف كتاباً جاداً في علم اللغة المقارن ، فصدر كتابه النحو المقارن ١٨٣٣ - ١٨٥١ . كان فرانتس بوب يرى الهدف من النحو المقارن إعادة تكوين اللغة الهندية - الأوربية الأولى ، ولم يكن يرى رأى شليجل أن السنسكريتية أصل كل اللغات الهندية الأوربية . فحاول بوب أن يستخرج ملامح اللغة الهندية - الأوربية الأولى اعتماداً على مقارنة اللغات الأوربية المختلفة والمضى من المراحل القديمة إلى المراحل الأقدم في محاولة للتعرف على اللغة الأقدم

(١) أنظر كتاب فردريخ شليجل .

F. Schlegel, Über die Sprache und Weisheit per Indier.

Heidelberg 1808.

في محاولة للتعرف على اللغة الأقدم التي خرجت عنها كل هذه اللغات (١) . وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر كان هدف البحث المقارن التوصل إلى اللغة الأقدم ، ولذا كان البحث مرتبطاً بالنصوص المدونة ، حاولوا بحث النصوص المختلفة التي وصلت إليهم باللغات الهندية الأوروبية عبر التاريخ محاولين الوصول عبر أقدم هذه النصوص إلى اللغة الهندية الأوروبية الأولى . ولم يكن هناك اهتمام جاد بدراسة اللهجات الحية — أول الأمر — ولكن الباحثين تبينوا بعد ذلك أهمية بحث اللهجات الحديثة في إطار علم اللغة المقارن . أي أنهم بحثوا اللهجات لا باعتبارها هدفاً في ذاتها أو موضوعاً متكاملًا في ذاته ، بل باعتبارها أداة توضح جوانب من التاريخ اللغوي القديم أي أنها كانت وسيلة لفهم الماضي (٢) .

ودخل علم اللغة المقارن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مرحلة جديدة ، خبت فيها الروح الرومانتيكية ، ونزع فيها البحث اللغوي إلى العلمية وتطوير المناهج الدقيقة في التصنيف والتفسير واستخراج القوانين الدقيقة ، على نحو ما فعل الباحثون في العلوم الطبيعية . تأثر علم اللغة في هذه المرحلة بالداروينية تأثراً بعيداً . كان اللغوي شلايشر متخصصاً أيضاً في العلوم البيولوجية ، أعجب بأراء دارول في تطور الكائنات ، وألف في محاولة نقل فكرة التفسير التطوري التاريخي في علم اللغة كتاباً بعنوان : نظرية دارون وعلم اللغة (٣) . وقد عد شلايشر نفسه عالماً طبيعياً يبحث اللغة لا بوصف

(١) من أم مؤلفات فرائس بوب المبكرة :

F. Bopp Über das Conjugationssystem der Sanskritsprache in Vergleichung mit jenem der griechischen, lateinischen, persischen und germanischen Sprache. Frankfurt 1816.

(٢) أنظر B. E. Vidos Handbuch, S. 26

وكذلك ص ٣٠ وبها إشارة إلى جهود الباحث الإيطالي G. I. Ascoli (1873)

(٣) أم كتب شلايشر

A. Schleicher, Die Darwinische Theorie und die Sprachwissenschaft. Weimar 1863.

مظهرها الخارجي ، بل بتاريخ جزئيات ظواهرها وتعليل نشوء هذه الجزئيات بقوانين ثابتة . وإذا كان علماء النبات قد نجحوا في تصنيف النباتات إلى أسرّات اعتماداً على بنيتها ومكوناتها ، ووضعوا بذلك مجموعة من قوانين التغير التاريخي - فإن شلايشر حاول أن يتوسل بهذا المنهج في بحث اللغات . ويعد كتاب شلايشر في النحو المقارن للغات الهندية - الأوربية^(١) من أهم الكتب التي جمعت من علم اللغة علماً دقيقاً يحاول تفسير التغير بقوانين واضحة . وكان لهذا الكتاب أثر مباشر في قيام مدرسة النحاة الشبان Junggrammatiker^(٢) . وينتمي إلى هذه المدرسة أهم اللغويين الألمان في الثالث الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . وأعلام هذه المدرسة لسكين A. Leskien وأوستهوف H. Osthoff وبروجمان K. Brugmann في مجال علم اللغات الهندية - الأوربية، وبهم نولدك^(٣) The Noldeke وبروكلمان^(٤) C. Brockelmann في مجال علم اللغات السامية .

إن مدرسة النحويين الشبان أفادت من التقدم المتجهي في العلوم الطبيعية وحاولت

(١) عنوان هذا الكتاب .

Compendium der vergleichenden Grammatik der indogermnischen Sprachen. kurzer Abrisseiner Laut-und Formenlehre der indogermnischen Ursprache. Weimar 1861.

(٢) أطلقت هذه التسمية على هؤلاء النحاة عندما كانوا في فجر شبابهم ثم كما عليهم ثم أعجب بها هؤلاء الشبان فأطلقوها على أنفسهم ، وأكثر هؤلاء النحاة ولدوا في منتصف القرن التاسع عشر مثل (ولد أوستهوف ١٨٤٧ ، وبروجمان ١٨٤٩) .

(٣) أنظر : J. Fuck, Die arabischen Studien in Europa, Leipzig 1955, s: 217-220

(٤) أنظر : محمود فهمي حجازي في مقاله المنشور في مجلة الكتاب العربي - القاهرة، إبريل ١٩٦٩ بعنوان : كارل بروكلمان بين التراث العربي وعلم اللغة المقارن .

استخراج القوانين المقسرة للذخيرة اللغوية ، وعرفت بالتزامها الصارم بفكرة القوانين الصوتية . وأفادت مدرسة التحويين الشبان في مجال اللغات الشرقية أيضا من الكشوف الأثرية الكثيرة التي تمت في القرن التاسع عشر وأماطت اللثام عن لغات قديمة باتت . ويكفي أن نذكر اللغات المصرية القديمة والآكادية والفينيقية والعربية الجنوبية باعتبارها أوضح الأمثلة في الشرق . وبالإضافة إلى هذا وذلك فقد كانت حركة تحقيق النصوص القديمة ذات نتائج مباشرة . فأتاحت للغويين نصوصا كثيرة اعتمدوا عليها وعلى غيرها في بحث اللغات . وتوسلوا في هذا البحث بمنهج دقيق يهدف عن طريق القوانين التاريخية إلى تفسير العلاقات بين اللغات والمستويات اللغوية المختلفة القديمة والحديثة في إطار الأسرة اللغوية الواحدة ، وفي ظل هذه الظروف نشأ علم اللغة المقارن في اللغات الهندية الأوروبية ، ثم في باقي الأسرات اللغوية .

الفصل الثامن

اللغات السامية بين اللغات الأفرو آسيوية

١ - لغات الأفرو آسيوية :

يطلق مصطلح اللغات الأفرو آسيوية على مجموعة كبيرة من اللغات في غرب آسيا وشمال وشرق أفريقيا ، ومنها اللغات السامية (١) . ويعني تصنيف مجموعة من اللغات في أسرة لغوية واحدة اشتراك هذه اللغات في عدد من الخصائص النحوية باعتبار هذه اللغات ترجع إلى أصل واحد تفرعت عنه ، ثم تباعدت خصائصها بعد ذلك على مدى التاريخ . ومعنى هذا أن اللغات العربية والآرامية والكنعانية والآرامية والحبشية

(١) انظر حول العلاقات بين اللغات الأفرو آسيوية في مفهوم جرينبرج :

J. H. Greenberg, Languages of Africa. Indiana University 1966, pp. 42-65.

وحول توزيع اللغات السامية وخصائصها المشتركة ، انظر :

E. Renan, Histoire générale des langues sémitiques, Paris 1855.

Th. Noldeke, Die semitischen Sprachen, eine Skizze 1887.

(ترجمة : رمضان عبد التواب بعنوان : اللغات السامية ، القاهرة ٦٢) وقد

اعتمد على كتاب زيتان المذكور على عبد الواحد وافي في كتابه : فقه اللغة (انظر

مثلا الطبعة الخامسة ١٩٢٢) .

Handbuch der Orientalistik, III, Semitistik.

وكتب مواد هذا الكتاب نخبة من المستشرقين منهم كارل بروكلمان واينوليتيان

E. Littmann

تشكل فرعاً من أسرة لغوية كبيرة ، تضم أيضاً اللغات المصرية القديمة والبربرية والنشادية والكوشية . ويقوم تصنيف هذه اللغات في أسرة لغوية واحدة على أساس الخصائص المشتركة ، وكلما تقاربت هذه الخصائص بين لغتين أو أكثر كوتت اللغتان فرعاً لغوياً داخل الأسرة اللغوية ، ونقل الخصائص المشتركة بالضرورة كلما بحثنا العلاقات بين فرع لغوي وآخر ، ولكن وجود قدر مشترك من الخصائص بين هذه اللغات الباحثين المعاصرين يملون إلى اعتبار اللغات السامية جزءاً من الأسرة اللغوية الأفرو آسيوية .

٢ - اللغات السامية

كان كثير من الباحثين الأوربيين قد لاحظوا منذ قرون أوجه الشبه بين العربية والعبرية ، وكان العارفون بها وبالسريانية في عصر الحضارة الإسلامية قد أدركوا أن هذه اللغات متقاربة ، بل وعرف ابن حزم أنها من أصل لغوي واحد . وعندما بدأ بحث اللغة العربية في أوروبا في القرن السادس عشر بهدف قراءة العهد القديم في نصه العبري أفاد علماء اللاهوت من اللغة العربية لفهم بعض الجوانب الغامضة في النص العبري للعهد القديم . وهكذا ارتبطت بداية الاهتمام الأوربي باللغة العبرية القديمة بحركة الإصلاح الديني التي نادى في هذا الصدد بضرورة بحث العهد القديم في نصه العبري لا في ترجماته اللاتينية . إن العهد القديم نص عبري ، ولكن به سفرين بالأرامية ، ولذا كان الاهتمام المبكر بالأرامية متواضعا بقدر هذه الصفحات الآرامية القليلة في العهد القديم . وبذلك تركز البحث في اللغات السامية القديمة في أوروبا على لغتي الاسفار الدينية وهما العبرية والآرامية . وتوسلوا في فهمها باللغة العربية التي كانت معروفة عند بعض الباحثين الأوربيين بصورة مستمرة .

واتسعت دائرة الاهتمام باللغات السامية في القرن السابع عشر عندما بدأ البحث اللغوي في لغة الجمنز ، أي الحبشية القديمة . بينما استمر الاهتمام بالعبرية والآرامية والعربية .

ولا شك أن العارفين بهذه اللغات قد لاحظوا أوجه شبه كثيرة بينها . لحاول شلوتسر Schlozer (١٧٩٨) تسمية هذه اللغات : العبرية والعربية والآرامية والحيتية - باسم عام يجمعها ، ووجد في العهد القديم تقسيما للشعوب إلى أبناء حام وأبناء سام وأبناء يافث .

لاحظ شلوتسر أن أسماء هذه اللغات ينطبق إلى حد كبير على أسماء أولاد سام ، فسمى هذه اللغات باسم اللغات السامية^(١) .

(١) انظر رأى شلوتسر في :

Aug. Ludwig Schlozer, Von Jen Chaldäern.

وقد ظهر هذا البحث سنة ١٧٨١ في :

J.G. Eichhorn, Repetorium für biblische und morgenländische Litteratur VIII, Leipzig 1781, 161.

والواقع أن لغات الأرض لا يمكن أن تقسم على نحو ما جاء في الإصحاح العاشر من سفر التكوين هذا التقسيم البسيط إلى ثلاث أسر لغوية فقط، فهناك أسر لغوية متعددة، وليس هناك دليل على قرابة هذه الأسر الكثرة . لقد وجد شلوتسر مصطلح اللغات السامية مناسباً ، واستقر هذا المصطلح بعد ذلك على الرغم من اختلاف دلالة مصطلح اللغات السامية في البحث اللغوي عما جاء حول أبناء سام في سفر التكوين . فكاتب سفر التكوين كان يقسم الشعوب لاعتبارات سياسية ، فن صادقهم اليهود جعلهم من غير الساميين ، ولذا ذكر سفر التكوين كنهان من غير أبناء سام في حين أن البحث الحديث يثبت أن الكنعانية فرع من أفرع اللغات السامية . وذكر التكوين أن عيلام من أبناء سام ، وأثبت البحث الحديث أن اللغة المعيلامية ليست من اللغات السامية . انظر عن العيلاميين ولغتهم :

W. Hinz, Das Reich Elam. Stuttgart 1964.

ولكن إدراك العلاقات التاريخية بين هذه اللغات لم ينتظم على أساس منهجي واضح وفي إطار نظرية شاملة إلا بعد تصنيف اللغات الهندية الأوروبية. ففي القرن التاسع عشر نجح العلماء في تصنيف اللغات الهندية - الأوروبية بمنهج علمي واضح. وكان لهذا المنهج أثره المباشر عند الباحثين في اللغات السامية ، فحاولوا التوصل بنفس المنهج لتصنيف اللغات السامية . وفي نفس الفترة زاد الاهتمام بالأبحاث التاريخية والآثرية واكتشفت آلاف النقوش في أنحاء مختلفة من الشرق ، وكشفت هذه النقوش عن لغات قديمة بأدلة منها العربية الجنوبية والآرامية والفينيقية . وثبت أثناء بحث هذه اللغات القديمة أنها تشابه أيضا مع اللغات السامية المعروفة حتى ذلك الوقت . ويتضح اللقاء بين البحث في اللغات السامية المختلفة في عدة شخصيات فاللغوي الألماني جيزينيس Gosenois (1776 - 1842) ألف للعبرية نحواً ومعجمها ، واهتم أيضا بالآرامية . وكان جيزينيس أول من نجح في فك أكثر رموز الخط المسند ، أي الخط الذي كتبت به النقوش اليمينية القديمة ، وقد أفاد الباحثون في القرن التاسع عشر من معرفتهم باللغات العربية والعبرية والآرامية والحبشية في فهم اللغات المكتشفة في النقوش . ولم تقتصر الأبحاث على لغات الكتب الدينية ولغات النقوش القديمة ، بل اهتم عدد من الأوروبيين - ولأسباب عملية غالباً - بدراسة عدد من اللهجات العربية الحديثة ، وبتدوين عدد من اللهجات الآرامية الحديثة واللغات السامية الحديثة في الحبشة . وبكل هذه الأدوات أتيح لعلماء القرن التاسع عشر ما لم يتح لمن سبقهم ، ففي منتصف القرن التاسع عشر كانت اللغات العربية والعبرية والآرامية والحبشية والعربية الجنوبية والفينيقية والآرامية معروفة للباحثين الأوروبيين ، وكان المنهج المقارن الذي صقلته أبحاث اللغات الهندية الأوروبية معروفاً لهم أيضاً . ومعنى هذا أن البحث المقارن في اللغات السامية بدأ بعد أن اتضحت لهم ملامح هذه اللغات وبعد أن اتضح لهم أيضاً منهج علمي لتصنيفها ومقارنتها .

٣ - اللغات السامية واللغة المصرية القديمة

كانت القرابة اللغوية بين اللغات السامية واللغات الأخرى القديمة والحديثة أحد

موضوعات البحث المقارن. لم يتم بهذا الموضوع لصعوبته إلا عدد قليل من العلماء، ورغم هذا فقد طرحت فيه منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر عدة فروض، تتفق في جمل اللغات السامية فرعا من أسرة لغوية أكبر. كان بعض الباحثين قد لاحظوا أن اللغات السامية — بالمعنى الضيق للكلمة — ليست مختلفة كل الاختلاف عن لغة مصر القديمة، وقد افترض بروجش (1867) (١) أن اللغة المصرية القديمة لغة سامية وفسر إرمان أوجه الشبه بين اللغات السامية واللغة المصرية القديمة بأن هذه اللغة قد انفصلت في وقت مبكر عن الأسرة السامية، وشقت طريقها وحدها عدة آلاف من السنين (٢) وشيبه بهذا أمر العلاقة بين اللغات السامية وتلك اللغات المسماة بالحامية. كان البعض يجعل: لغات البربر، والنوبة، ولغة الهوسا، والفولبا، واللغات الكوشية، مثل: لغات البشارية، والبيجه، والماهو، والجالا، والصومالية وغيرها ضمن أسرة لغوية واحدة، أطلقوا عليها اسم الأسرة الحامية. وقد أدت دراسة أوجه الشبه بين هذه اللغات واللغات السامية إلى افتراض أنها جميعا تكون أسرة لغوية كبرى واحدة، وأن اللغات الحامية قد انفصلت عن اللغات السامية (٣) في وقت مفرق في القدم، فشق كل فرع لغوي طريقه المستقل في التغيير اللغوي. ويقول هذا الرأي أيضا بأن اللغة المصرية القديمة قد انفصلت عن الأسرة

(١) انظر:

Brugsch, Hieroglyph - demot. Wörterbuch I, 1867, IX.

(٢) انظر بحث إرمان Erman المنشور في: ZDMC 46, 125 ff.

(٣) انظر الدراسات التالية:

Prätorius. Über die hamitischen Sprachen Ostafrikas, Beiträge zur Assyriologie, II 312-41.

A. Meillet, M. Cohen, les langues du Mond. Paris 1928.

وفي هذا الكتاب عرض مفصل للغات الحامية السامية:

M Cohen, Essai Comparatif du chamitosemitique. Paris 1947.

الكبرى في مرحلة تالية ، واحتفظت لذلك بقدر أكبر من الملامح المشتركة مع اللغات السامية .

٤ - اللغات السامية واللغة الليبية القديمة

وفي السنوات الأخيرة اهتم اللغوي الألماني روسلر ببحث لغة النقوش الليبية القديمة المسماة بالنقوش النوميديّة^(١) . وأثبت روسلر بما لا يقبل الشك أن اللغة النوميديّة لغة سامية انفصلت عن اللغات السامية في الشرق في مرحلة معرفة في القدم، ثم تطورت بعد ذلك في اتجاه خاص جعلها تختلف إلى حد كبير عن باقي اللغات السامية^(٢) . واستطاع روسلر أن يفسر كثيرا من الجوانب الصوتية والصرفية والمعجمية في اللغة النوميديّة القديمة ، باعتبارها تغيرات حدثت فيها بعد انفصالها عن الأصل القديم المشترك . لاحظ روسلر عدم وجود أصوات حلق في اللغة النوميديّة ، ولكنه فسّر هذا باعتبار أن النوميديّة عرفت أصوات الحلق قديما بدليل وجودها في اللغة الصومالية التي اتّمت بصلة قرابة مباشرة للغة الليبية القديمة . فوجود أصوات الحلق في الصومالية دليل على أنها كانت موجودة في اللغة النوميديّة في أقدم مراحلها . وقد أوضح روسلر اشتقاق كثير من الكلمات النوميديّة على أساس المقارنة باللغات السامية في المشرق ، فكلمة « بن » بكسر الباء أو ضمها تعنى في النوميديّة واللغات البربرية التي تطورت عنها ما يعبر عنه في اللغات السامية المشرقية

(١) حول خصائص اللغة النوميديّة ، انظر :

O. Rössler, Die Sprache Numidiens. Festschrift Hans Krahe.

(٢) انظر كذلك بحث روسلر Rössler عن الطابع السامي للغة الليبية :

Der Semitische Charakter der libyschen sprache.

المنشور في : Zeitschrift für Assyriologie العدد ٥٠ .

Libysch — Hamitisch — Semitisch: كذلك البحث التالي :

المنشور في : Oriens Vol. 17, 1964, S. 199-216.

بكلمة « بيت » ، ومعنى هذا أن اللغة النوميديّة اشتقت من المادة اللغوية الخاصّة بالبناء كلمة تدل على البيت ، بينما اشتقت اللغات السامية المشرقية من نفس المادة اللغوية كلمات تدل على الاتصال الجنسي بالمرأة والإنجاب منها . ونجد كلا المعنيين في المادة العربية « بنى » : بنى البيت ، بنى بالمرأة ، فكأى الفعل العرفى « بنى » ضم المعنيين : بناء البيت ، والبناء بالمرأة أى الدخول بها والإنجاب . أما الكلمة العربية « بيت » فترتبط بالفعل « بات » أى قضى الليل ، أى أنها من مادة لغوية مخالفة . وثبتت المواد اللغوية النوميديّة التي بحثها روسلر أن اللغة النومية لغة سامية قديمة ، ولسكنها خضعت لمؤثرات إفريقية جعلتها تتخذ طابعها الخاص المتميز .

وهكذا أوضحت الأبحاث حول اللغات السامية بالمعنى الضيق ، واللغة المصرية القديمة ، واللغة النوميديّة أو الليبية القديمة أوجه الشبه بين كل هذه اللغات وترجع صعوبة البحث في هذا الموضوع إلى طبيعة المادة المدونة المتاحة ، فالمادة المتاحة باللغة المصرية القديمة مدونة في أكثر الأحوال بخط صوري لا يعكس الخصائص الصوتية ، والنقوش النوميديّة قليلة جدا . وتزيد هذه الصعوبة إذا أدخلنا في مجال المقارنة اللغات الأخرى في الأسرة الأفرو آسيوية ، ومنها اللغات التشادية (١) ومشكلة هذه المقارنات أنها لا يمكن أن تقارن بالمنهج التاريخي المقارن المتعارف عليه في بحث اللغات القديمة ، فكثير من هذه اللغات لم يدون إلا منذ سنوات معدودة . ومن الطبيعي ألا يجد الباحث أوجه شبه كثيرة بين هذه اللغات القديمة البائدة والحديثة التي لم تكذب تدون ، شأن هذا البحث شأن من يقارن اللغة الفرنسية واللغة الروسية المعاصرة باللغة السنسكريتيّة . وهذه مشكلة عامة في تصنيف اللغات الإفريقية وغيرها من اللغات التي ليست لها نصوص قديمة مدونة . وقد أثبت اللغوي الأمريكي

(١) : انظر :

J.H. Greenberg, Languages of Africa. Indiana University 1066.

p 42-65.

جرينبرج وجود سمات بنيوية مشتركة في كل أفرع الاسرة الافروآسيوية: السامية والبربرية ، والمصرية القديمة ، والكوشية ، والتشادية . وأهم هذه السمات : التمييز بين المذكر والمؤنث باستخدام التاء للتأنيث ، واستخدام النون الربط بين وحدتين صرفيتين ، مثل نون الوقاية في العربية ، ووجود الضمائر المتصلة ، واستخدام الوار كمصوت علة يسقط كثيرا ، وتكوين عددمن المشتقات بأبنية تبدأ بالميم مثل اسم المسكان واسم المفعول في العربية (١) . وكل هذه الدراسات الصعبة توضح أن اللغات السامية ليست أسرة لغوية مستقلة كل الاستقلال ، وأغلب الظن أنها تشكل فرعا من الأفرع الخمسة للأسرة الافروآسيوية (٢) .

(١) المرجع المذكور ص ٤٦ - ٤٨ .

(٢) لا يدل مصطلح الافروآسيوية عند جرينبرج على ما كان غيره يصفه بمصطلح الحامية السامية ، فهناك ، اختلافات بين رأيه في تصنيف اللغات ورأى الباحثين السابقين عليه . فاللغة الفولانية لا تدخل في تصنيف جرينبرج ضمن اللغات الافروآسيوية ، بينما جعلها باحثون آخرون من اللغات الحامية . ولم يكن ثمة يقين حول انتماء لغة الهوسا إلى السامية - الحامية ، وقد أثبت جرينبرج أن لغة الهوسا وباقي اللغات التشادية تكون فرعا من أفرع المجموعة اللغوية الكبرى (الافروآسيوية) . انظر المرجع السابق ص ٤٥ .

الفصل التاسع

الخصائص المشتركة بين اللغات السامية

١ - الاصوات :

اهتمت كتب النحو المقارن في اللغات السامية — وكما كتب أوربية — ببيان الخصائص التي تنسبها اللغات السامية . ومن الطبيعي أن تتناول هذه الدراسات الجوانب الصوتية — والصرفية والنحوية والمجمعية^(١) . وهناك أصوات لا تكاد تخلو عنها أية لغة ، مثل : الاصوات الشفوية كالباء ، والميم ، والاصوات الانسانية : كالتاء والذال ، إلى جانب أصوات أخرى توجد في لغات ولا توجد في لغات أخرى .

وقد لاحظ الباحثون الأوربيون أن اللغات السامية تضم مجموعة أصوات لا توجد في اللغات الأوربية ، ولذا أبرزوا وجود هذه الاصوات في حديثهم عن الخصائص العامة للغات السامية ، والمقصود بهذه الاصوات مجموعة أصوات الحلق ومجموعة أصوات الاطباق .

-
- (١) انظر :
C. Brockelmann, Grundriss 1 | 5
R. Meyer. Hebräische Grammatik, I, s. 17 ff Berlin 1966
B. Spuler, Der sem. Sprachtypus, in : Handbuch der Orientalistik, Band III.
I, s. 3-25 Von Soden Grundriss der Akkaischen Grammatik. Roma 19 69. s. 1-2 G. Bergsträsser, Einführung, s. 3-19.

أصوات الحلق مثل الغين والحاء والمين والحاء والهاء والهمزة في اللغة العربية. وهي تلك الأصوات التي تخرج من الحلق. وأصوات الأطباق مثل القاف والصاد والطاء وهي أصوات تشترك في سمّة واحدة تلتخص في اتخاذ اللسان شكلاً مقمراً منطبقاً على الحنك الأعلى ويرجع إلى الوراء قليلاً^(١)، والواقع أن هاتين المجموعتين موجودتان بدرجات متفاوتة في اللغات السامية المختلفة، فليست كل لغة سامية تضم كل الأصوات الحلقية والمطبقة الموجودة في العربية، فالعربية مثلاً تضم عدداً أكثر من أصوات الحلق وأصوات الأطباق بالمقارنة مع باقي اللغات السامية، وليست هناك لغة سامية واحدة تخلو من عدد من أصوات الحلق والأطباق. والمقصود هنا بوجود أصوات الحلق والأطباق كونها في اللغات السامية تكون وحدات صوتية متميزة، وتظهر هذه الحقيقة إذا قارنا ولو بصورة شكلية مباشرة أمة لغة سامية، ولتسكن العربية مثلاً بأمة لغة أوربية. فنلاحظ عدم وجود هذه الأصوات الحلقية والمطبقة في اللغات الأوربية كرموز صوتية متميزة، ولكن بعضها مثل الهمزة قد يسمع بصورة ما في بعض اللغات الأوربية ففي اللغة الألمانية نسمع نوعاً من الهمز قبل نطق صوتي (a) في كلمة Abatt، ورغم هذا فلا تشكل الهمزة هنا وحدة صوتية متميزة بل هي مجرد وسيلة نطقية لإبراز نطق الحركة. ولكن اللغات السامية تعرف الهمزة باعتبارها وحدة صوتية متميزة، ففي العربية مثلاً هناك فرق دلالي بين «سأل» و«سال». وشبهه بهذا أمر أصوات الأطباق التي ربما تسمع في كلمات معينة في اللغات الأوربية ولكنها لا تشكل فيها أصواتاً متميزة وظيفياً.

ويعمل أكثر الباحثين إلى اعتبار أصوات الحلق في اللغات السامية موروثاً عن اللغة السامية الأولى. واللغة العربية تعد بصفة عامة أصدق تعبيراً عن اللغة السامية

(١) إبراهيم انيس: الأصوات اللغوية ص ٥١.

الأولى . وتضم كل من العربية الشمالية والعربية الجنوبية ستة أصوات حلقية ، وتضم اللغات السامية الأخرى أصواتا حلقية بـعدد أقل . فاللغة السامية الوحيدة التي تضم كل أصوات الحلق المعروفة في العربية الشمالية هي اللغة العربية الجنوبية القديمة أي لغة النقوش اليمنية ، ففي العربية الشمالية والعربية الجنوبية نجد نفس أصوات الحلق كاملة غير منقوصة . أما في المهرية ، وهي امتداد حديث للعربية الجنوبية القديمة ، فإننا نجد هذه الأصوات عدا صوتا واحداً لأن المهرية تخلو من العين كصوت متميز . ويقل عدد أصوات الحلق في اللغات السامية التي عرفتھا منطقة الشام قبل الإسلام ، فأصبحت الحاء في العبرية مثلا تمثل الحاء العربية والحاء العربية معا ، وبذلك أصبح الصوتان المتميزان الحاء والحاء في اللغة السامية الأولى صوتا واحداً هو الحاء في اللغة العبرية . وهكذا قلت أصوات الحلق في اللغات السامية في الشام قبل الإسلام وهناك لغة سامية فقدت أكثر أصوات الحلق ، وهي اللغة الأكادية في العراق القديم ، ولذا لم يبق في اللغة الأكادية من أصوات الحلق إلا صرتان حلقيتان . هما : الهمزة والحاء . فقد حدثت في هذه اللغات تغيرات قللت عدد أصوات الحلق ، أما اللغة العربية فقد احتفظت بالمجموعة كاملة ، ولذا تعد العربية من هذا الجانب امتداداً مباشراً للغة السامية الأم .

أما أصوات الاطباق وهي في العربية : القاف ، والصاد ، والطاء ، والضاد ، والظاء ، فقد قل عددها أيضا في اللغات السامية الأخرى ، وتوجد هذه المجموعة كاملة غير منقوصة في اللغة الجنوبية القديمة . وتضم كل اللغات السامية الأخرى عددا أقل من أصوات الاطباق ، وأكثر هذه الأصواب ثباتا الصاد والقاف والطاء ، فهذه الأصوات الثلاثة موجودة في كل اللغات السامية القديمة ، ولكن الضاد والظاء قد تعرضتا للتغير الصوتي في عدد من اللغات السامية ، فكل ضاد وكل ظاء وكل صاد عربية يقابلها مثلا صاد في العبرية ، وبذلك حل صوت واحد في العبرية محل ثلاثة أصوات في العربية . ويلاحظ نفس الشيء في الأكادية فالصاد الأكادية تقابل ثلاثة أصوات عربية هي الصاد والظاء والضاد . أما اللغة الآرامية فقد كان

موقفها من الضاد جديرا بالملاحظة ، فقد تحوت الضاد الموروثة عن اللغة السامية الأولى في اللغة الآرامية مرة إلى قاف ثم إلى عين . وبعد هذا التحول من أصعب التحولات الصوتية تفسيرا . ولكن مقارنة أصوات الاطباق الموجودة في اللغات السامية المختلفة أثبتت أن أصوات الاطباق الموجودة في العربية تعد امتدادا مباشرا لأصوات الاطباق الموجودة في اللغة السامية الأولى . ويطلق على تلك التحولات القياسية التي طرأت على بعض الأصوات في اللغات السامية مصطلح « القوانين الصوتية » ، والمقصود بهذا المصطلح أن هذه التغيرات قياسية مطردة تسرى على كل الكلمات دون استثناء . وتعني كلمة قانون [عاز علم اللغة نفس معناها في العلوم الطبيعية ، فالقانون تفسير للظاهرة ، وليس وسيلة التحكم فيها ، فالقوانين الصوتية تفسر التغيرات الصوتية التي حدثت فعلا ، فليس هناك قوانين تفرض على اللغات بل هناك قوانين تفسر ظواهرها .

٢ - بناء الكلمة

ويقوم بناء الكلمة في اللغات السامية على أساس الصوامت ويرتبط معنى المادة اللغوية في اللغات السامية بمجموع الصوامت التي تتكون كل مادة، وأكثر الكلمات في اللغات السامية تتكون من مادة ثلاثية . وقد عبر النحاة العرب عن هذه الصوامت بالفاء والعين واللام ، وتقوم فكرة الميزان الصرفي على أساس التمييز بين الحروف الاصول الممثلة في الميزان الصرفي بالفاء والعين واللام وبين ما يطرأ على الكلمة المفردة من تغيير بالإضافة أو الحذف^(١) ويرتبط معنى الكلمات الكثيرة المشتقة من المادة اللغوية الواحدة في اللغات السامية بالصوامت ، فالكلمات : كتب ، كتب ، كتاب ، مكتب ، مكتبة ، مكاتب ، تتكون أسرة واحدة تقوم وحدتها

(١) انظر مثلا: الممتع في التصريف لابن عصفور ، ط حلب ١٩٧٠ - تحقيق: فخر الدين قباوة ، « باب تبيين الحروف الزوائد والأدلة التي يتوصل بها معرفة زيادتها من أصلاتها ٣٩/١ - ٥٩ .

على أساس وجود هذه الأصوات الصامتة الثلاثة : الكاف والتاء والباء بهذا الترتيب . ويؤدى وجود هذه الأصوات الصامتة الثلاثة إلى تحديد المعنى الاساسى الذى تدور حوله كل معانى الكلمات المختلفة المكونة من تنابع هذه الصوامت . ويتحدد المعنى الخاص لكل كلمة من هذه الكلمات المشتركة فى الحروف الاصولى بمعايير أخرى ، فالمركبات المختلفة من ضم وفتح وكسر تشكل الصيغ المختلفة داخل الإطار الدلالى الذى حددته الصوامت ، وبذلك تختلف كلمة « كَتَبَ » عن كلمة « كَتَّبَ » ، رغم اتحاد الحروف الاصول ، لأن الاولى بوزن قَعَلِ المبنى للمعلوم والثانية فُعِلِ المبنى للمجهول . وتتكون صيغ صرفية كثيرة بإضافة سوابق مثل الميم ، نجد هذا مثلاً فى الكلمات مكتب ، مكتبة . وتتكون صيغ صرفية أخرى عن طريق إلحاق نهاية تؤدى معنى محدد ، وذلك مثل نهاية جمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم بالنسبة للاسماء . وهكذا يقوم بناء الكلمة فى اللغات السامية على أساسين متكاملين : المادة اللغوية ، والوزن .

وتصنف الاسماء فى اللغات السامية وفق معايير ثابتة يمكن تطبيقها على كل اللغات السامية لأنها مستخرجة منها . هذه المعايير ليست انعكاساً لمنطق عقلى عام ليس له وجود ، ولكن واقع اللغات السامية جعل من الممكن تحديد معايير لتغيرات الصيغ فى الاسماء فيها وفق ثلاثة جوانب ، هى : العدد number والحالة الإعرابية case والجنس gender .

والمقصود هنا بالعدد كل ما يتعلق بالافراد والثنائية والجمع . فاللغات السامية تقسم الاسماء وفق هذا التقسيم الثلاثى ، فكل اسم فى اللغات السامية لابد أن يميز عن مفرد أو عن منى أو عن جمع . وليست هذه دائماً حال اللغات الأخرى ، فاللغات الاوربية الحديثة مثلاً تقسم الاسماء من هذا الجانب تقسيماً ثنائياً ، فهناك صيغة للمفرد تسمى singular وصيغة لغير المفرد تسمى plural . وبهذا تختلف اللغات السامية عن اللغات الاوربية المعاصرة . فالاسم الدال على اثنين أو اثنتين

له في اللغات السامية صيغة متميزة هي صيغة المثني القياسية في العربية . ويبدو أن صيغة المثني كانت هكذا في اللغة السامية الأولى ، ولكن استخدام هذه الصيغة قل في بعض اللغات السامية مثل العربية ، فلم تعد صيغة المثني تستخدم فيها إلا في الأشياء التي توجد في الواقع الخارجي مثنى مثنى مثل : البدين والرجلين .

أما الحالة الإعرابية للاسماء في اللغات السامية فذات تنوع ثلاثي . وقد أطلق النحاة العرب على هذه الحالات الإعرابية مصطلحات : الرفع ، والنصب ، والجر . ويعد الإعراب على هذا النحو الثلاثي في العربية امتدادا للغة السامية الأولى . وقد احتفظت اللغة الأكادية بظاهرة الإعراب على هذا النحو أيضا ، فالخط الأكادي يثبت الحركات دائما ، ولذا أمكن التعرف من رموزه المدونة على حقيقة أن الاسم في الأكادية كان يتخذ ثلاثة أشكال ، ينتهي أحدها بالضمة والثاني بالفتحة والثالث بالكسرة . وتطابق هذه الأشكال الثلاثة للاسم الأكادي الأشكال المقابلة في العربية رفعا ونصبا وجرا . لم تحتفظ أكثر اللغات السامية بالنهايات الإعرابية ، وفقدت اللهجات العربية التمييز بين الحالات الإعرابية للاسم أيضا . ولكن الباحثين يرون الإعراب على نحو ما تعرفه العربية وما عرفته الأكادية ظاهرة أصيلة في اللغات السامية الأولى . ولا يعكس التنوع الإعرابي على هذا النحو المعروف في العربية منطقا عقليا عاما يسرى على كل اللغات ، فهناك لغات كثيرة لا تصنف الأسماء أي تصنيف وفق هذا المعيار ، وهناك لغات تصنف الأسماء من هذا الجانب إلى أربع صيغ ، فاللغة الألمانية تميز في إعراب الاسم بين المرفوع *Nominativ* والمنصوب *Akkusativ* والجرور *Dativ* والمضاف إليه *Genitiv* . ولا تكاد التقسيمات العربية تطابق التقسيمات الألمانية إلا في حالات معدودة ، فلكل لغة نطقها الخاص في ذلك^(١) . وتعرف اللغة اللاتينية عددا أكبر من الحالات الإعرابية،

(١) يتضح الاختلاف مثلا بين العربية والألمانية تجاه الاسم التالي لحرف =

منها مثلا حالة النداء Vocative ، وفي بعض اللغات السلافية توجد حالة الاداة Instrumental ، وفي اللغة التركية توجد حالة مكانية Locative . وكل هذه الحالات يعبر عنها في العربية بأداة أو بحرف مع الاسم التالي، فاللغات المختلفة تتباين من هذا الجانب وتختلف اختلافا كبيرا . وبمكس هذا الاختلاف اختلاف الطرق التي تميز بها اللغات المختلفة بين صيغ الاسماء .

وتصنف اللغات السامية الاسماء أيضا من ناحية الجنس إلى ما يطلق عليه المذكر وما يطلق عليه المؤنث . ولا علاقة هنا بين الواقع الخارجى والصيغ اللغوية ، وإنما تعارف النحويون على وصف صيغة الاسم بأنها من المذكر أو المؤنث على سبيل الاصطلاح والتقريب فقط . وتوضح نسبة هذا التقسيم بالنظر في الاشياء التي ليس لها بحكم طبيعتها أى نصيب من التذكير والتأنيث مثل : الكتاب ، والشمس ، والمنضدة . ولسكن كل اسم في اللغة العربية أو في اللغات السامية الاخرى ينبغي أن يصنف من ناحية الجنس ، وهنا تصبح بعض هذه الاشياء من المذكر ، وبعضها من المؤنث لاعتبارات شكلية أحيانا ، وربما يعكس بعضها رواسب من فكر إنسانى قديم . فشكل الاسماء الدالة على جماد والتي تنتهى بتاء التأنيث تصنف في العربية باعتبارها مؤنثة ، وبهذا الاعتبار تصنف كلمة المنضدة ، وعلى العكس منها تصنف كلمة نضد . وقد لوحظ في عدد كبير من اللغات التي تميز الاسماء إلى مذكر ومؤنث أن الكلمتين الداليتين على الشمس والقمر في كل لغة من هذه اللغات لا تتفقان بل تتكاملان من ناحية الجنس ، فالشمس في العربية من المؤنث والقمر من المذكر ، وكذلك كلمة die Sonne

= الجر لجميع حروف الجر العربية يأتي الاسم بعدها بجرورا، ولسكن حروف الجر الالمانية أنواع ، بعضها يأتي الاسم بعدها بحالة النصب Akkusativ ، وبعضها بحالة الجر Dativ ، وبعضها باحدى الحالتين المذكورتين، وبعضها بحالة الاضافة Genitiv

وكلمة der Mond في الألمانية ، أما في اللغة اللاتينية واللغات المتفرعة عنها فإننا نلاحظ العكس ولكن مع الاحتفاظ بالتكامل ، ففي اللاتينية كلمة sol تصنف من المذكر وتدل على الشمس وكلمة luna تصنف من المؤنث وتدل على القمر . ومعروف أنه لا علاقة طبيعية بين الشمس والقمر والتذكير والتأنيث في الواقع الخارجى . وليس من الضروري أن تقسم اللغات الاسماء هذا التقسيم الثنائى ، فهناك لغات مثل التركية لا تصنف الاسماء وفق هذا الاعتبار ، وهناك لغات أخرى تصنف الاسماء من هذا الجانب تصنيفاً ثلاثياً . ففي اللغات الجرمانية يوجد إلى جانب المذكر والمؤنث صيغة ثالثة يطلق عليها neutrum ، ويترجم هذا المصطلح بالمحايد ، ولا علاقة هنا بين الكلمة كصيغة لغوية وما تدل عليه في واقع الحياة . فكل كلمة تنتمى في الألمانية بالنهاية -chen أو بالنهاية -lein- تعد من المحايد ، بغض النظر عن مدلولها في واقع الحياة ، ومن هذا النوع في اللغة الألمانية كلمة Fräulein ومعناها آنسة ، وكلمة Mädchen ومعناها بنت وكلمة Häuschen ومعناها بيت صغير . فكل هذه الاسماء تصنف في اللغة الألمانية من المحايد وذلك وفق الصيغة اللغوية لا وفقاً لما تدل عليه الكلمة في الواقع الخارجى . وكل هذه الامثلة توضح أن تصنيف اللغات للاسماء من هذا الجانب يختلف من لغة لأخرى ، ولكنه في كل حالة لا يخرج عن كونه مجرد تصنيف للكلمات . وقد صنفت اللغات السامية الاسماء من هذا الجانب تصنيفاً ثنائياً ، وهو تصنيف الاسماء لا للاشياء .

وتصنف اللغات السامية الفعل فيها إلى عدة صيغ ، ويطلق على هذه الصيغ الموجودة في العربية : المضارع والماضى والامر . وهكذا حال الفعل أيضاً في اللغات السامية القديمة في الشام والحبيشة ، ولكن اللغة الاكادية طورت لنفسها نظاماً مختلفاً إلى حد ما ، ففيها نجد صيغاً أكثر ، وأغلب الظن أن نظام الافعال في اللغات السامية المختلفة لا يعكس ظاهرة موروثية على نحو مباشر من اللغة السامية الاولى ، فالاختلاف كبير بين نظام الفعل الاكادى ونظام الفعل في اللغات السامية الاخرى . وليس من الصحيح أن تصور أن قدرة اللغة العربية على التعبير عن الزمن غير متنوعة لعدم

تنوع صيغ الأفعال فيها ، فالمضارع لا يعبر بالضرورة عن الحال أو الاستقبال ، بل قد يعبر أيضا بالصيغ المركبة عن الحدث الذي استمر في الماضي : كان يكتب . وبالمثل فإن الماضي لا يعبر بالضرورة عن الزمن الماضي ، فيمكن أن يستخدم الفعل الماضي في اللغة العربية للتعبير عن الحاضر أو المستقبل . لجملة الشرط يمكن أن تتكون بفعلين ماضيين دون أية دلالة عن الماضي : إن كتب كتبت . فالصيغتان الفعليتان الماضي والمضارع في العربية تعبران عن أشياء كثيرة ، ويتحدد معنى الصيغة المستخدمة وفق بنية الجملة .

٣ - بناء الجملة :

أما من ناحية بناء الجملة فالاختلاف كبير بين اللغات السامية في حضورها القديمة واللغات السامية في العصور التالية . ويبدو أن اللغة السامية الأولى لم تكن ذات جمل طويلة ، بل كانت تسودها ظاهرة التوازي Parataxe أى أن الجمل كانت قصيرة وترتبط الجملة بالأخرى عن طريق الواو ، فهذه الجمل القصيرة تتوازي الواحدة بجانب الأخرى (١) . ونجد في اللغة العبرية القديمة ظاهرة التوازي ونجدها أيضا في اللغة العربية في نصوصها القديمة إلى حد كبير . فالجمل قصيرة ، والواو تربط بين جملة قصيرة وأخرى . ولكننا نلاحظ في الوقت أن اللغات السامية أخذت تكون شيئا فشيئا جملا طويلة معقدة ، فالجملة العربية تعقدت مع تطور الفكر ورفقه تمقداً كبيراً ، حتى أننا نجد صيغ الاستثناء والقصر في العربية على نحو لا نجد في اللغات السامية التي دونت قبل العربية . فكلما تقدم الزمن تعقدت الجملة ولم تعد على بساطتها الأولى ظهر نط جديد يطلق عليه التركيب Hypotaxe . ومن الممكن أن نلاحظ إلى اليوم سيادة ظاهرة التوازي في اللهجات العربية ولا سيما عند المتحدثين الذين ام

(١) أنظر ماير : R. Meyer, Hebräische Grammatik, I, s. 22.

يتأثروا بالفصحى كثيراً ، ونلاحظ نفس الظاهرة في اللغة المهرية ، فالجملـة فيها قصيرة تتكون مع بضع كلمات لا تزيد ، وسرعان ما تنتهي الجملة وتبدأ أخرى . فالكلام العادي يتكون من وحدات صغيرة متراسة الواحدة بجانب الأخرى . وهذا شأن اللغات التي لم تدخل بعد إلى مرحلة التعبير عن الفكر المعقد المتنوع . فما أشبه بساطة الجملة المهرية بالجملة التي كتبت في النقوش العربية القديمة ، وما أبعـد هذه الجمل البسيطة عما نقرأه في الشر العربي الحديث . فالجملة تـعقد كلما دخلت إلى مجال التعبير عن الأفكار الكثيرة المتميزة والمتنوعة . وتعقد أنماط الجملة وتنوعها على مستوى التأليف بعد سمة عامة ، تقابلها سمة التوازي على مستوى اللغة المنطوقة . فعندما يكون الحديث باللغة الفصحى في أحد المواقف الكلامية التي يحدث فيها ذلك نلاحظ رغم هذا أن الجمل المنطوقة أقل تركيباً من الجمل المكتوبة . ففي اللغة الألمانية يمكن أن تتكون الجملة المكتوبة الواحدة من خمسة أسطر ، ولكن الجملة المنطوقة الفصيحة لا يمكن في الأحوال الكلامية العادية أن تبلغ نصف هذا الطول . ليست الجملة المكتوبة طويلة لمجرد أن وحداتها كثيرة متوازية ، ولكنها طويلة لأن بها وحدات كثيرة متكاملة في نظام محكم يضمها جميعاً في إطار جملة واحدة مركبة ، ولم تكن الجملة السامية الأولى تعرف مثل هذا التركيب ، فأقدم النصوص السامية تسودها الجمل الصغيرة المتراسة . ما أشبه هذه الجمل الصغيرة المتوازية بالاستخدام اللغوي عند الطفل ، فالطفل يستخدم أيضاً في حديثه العادي جملاً صغيرة كثيرة . وكلما ارتقى فكره عمقت جملة شيئاً فشيئاً .

٤ — اللفاظ الأساسية :

وهناك ألفاظ أساسية تشترك فيها اللغات السامية . وليس المقصود بذلك أن هذه اللفاظ موجودة بنفس دلالاتها في كل اللغات السامية ، فكثيراً ما تتغير الدلالات ، ولكن المقصود أن هذه اللفاظ ترجع إلى أصل اشتقائي واحد في

اللغة السامية الأولى (١) . فكلمة « هلك » في اللغة العربية يقابلها في اللغة العبرية الفعل « هالخ » . ومعنى هذا أن كلا الفعلين يرجع إلى المادة السامية المشتركة (ه ل ك) ولكن ثمة خلافا بين معنى « هلك » في العربية و « هالخ » في العبرية ، إذ تدل « هلك » في العربية على الذهاب ، ومنه الذهاب إلى المدرسة والذهاب إلى العمل ... الخ . فالمقارنات الاشتقاقية بين الألفاظ في اللغات السامية لا تعنى بالضرورة أن معنى الكلمتين أو الكلمات موضع المقارنة هو نفس المعنى ، بل تعنى أن الكلمتين أو الكلمات المقصودة من أصل اشتقاقى واحد . فكلمة « لحم » تدل في العربية على معنى يخالف كلمة « لحيم » في العبرية ، لأن الكلمة العبرية تدل على الخبز وتمتد الكلمتان من أصل واحد باعتبار الاشتقاق رغم اختلاف المعنى . وإذا ما اختلف معنى الكلمتين المشتقتين من أصل واحد كان السؤال عن الدلالة الأقدم موضوع بحث . وهذا البحث يمكن برابط هذه الدلالات المتفرعة ، فيمكن أن تكون كلمة « لحم » قد أدت في اللغة السامية الأولى معنى الطعام اليابس ، أى غير السائل فيكون معنى هذه الكلمة في العبرية ضربا من تخصيص الدلالة ، ويكون المعنى الموجود للكلمة العربية المقابلة ضربا آخر من تخصيص الدلالة . وهكذا ينطلق علم اللغة المقارن في مجال المفردات من الأصول الاشتقاقية ثم ينظر بعد ذلك في الدلالة ومدى اتفاقها وتغيرها .

وقد صنف كثير من الباحثين الألفاظ المشتركة في كل اللغات السامية . وتضم هذه الألفاظ المشتركة عدة كلمات تدخل في مجالات : الأسرة ، وجسم الإنسان

(١) أنظر قائمة الألفاظ الأساسية المشتركة في اللغات السامية ، وقد أعد هذه القائمة برجسترأسر :

G. Bergsträsser. Einführung in die semitischen Sprachen, s. 182-ff2. München 1963

وتسمية الحيوان والنبات ، والأعداد ، وتضم أيضا بعض الأفعال . تضم كل اللغات السامية عدة كلمات متشابهة في كل هذه اللغات ، منها الألفاظ الدالة على العلاقات الأساسية في الأسرة . وهذه الألفاظ مثل : أب ، أم ، أخ ، أخت ، حم ، وتوجد هذه الكلمات في اللغات السامية القديمة مما يدل على كونها موروثة من اللغة السامية الأولى . ويلاحظ مثلا في هذه المجموعة المشتركة أن العم والحال لم يتخذا مكانهما ضمن الألفاظ المشتركة في اللغات السامية الخاصة بالأسرة . غير أن كلمة « عم » ، توجد في أكثر اللغات السامية بدلالات أخرى ، فكلمة « عم » في العبرية تعني الشعب ، وقد وصف الإله الكبير في التين القديم بأنه « عم » ، وكأن هذه الكلمة دلت في اللغة السامية الأولى على الأب الكبير ، وتغيرت دلالاتها بعد ذلك في اللغات السامية . وهناك كلمات مشتركة في كل اللغات السامية ، وتدل على أجزاء من جسم الإنسان . وليس من المتوقع أن نجد ألفاظا تعبر عن تفصيلات تشريحية كثيرة في جسم الإنسان ، بل هي ألفاظ عامة ، فالكلمات : عين ، رجل ، يد ، شعر ، أذن ، رأس مشتركة في كل اللغات السامية . أما أسماء الحيوانات في اللغات السامية فتشترك في كلمات معدودة منها مثلا : ليط وكلب وعجل . وقد لوحظ أن كثيرا من اللغات السامية تتخذ للحيوان الذكر إسماء وللحيوان الأنثى إسماء آخر لا يمت للأول بصلة ، ومثال ذلك في العربية : حمار وأمان ، أسد ولجوة . وهناك عدة أسماء للنباتات تشترك فيها اللغات السامية منها : كمون ، سنبله ، قمح ، ثوم . وتشترك اللغات السامية أيضا في الأعداد الأساسية . وتتفق اللغات السامية كلها اتفاقا شبه كامل في الأعداد من ٢ إلى ١٠ ، ولكن الكلمة الخاصة بالعدد واحد تختلف في الأكدية والمهريّة عنها في باقي اللغات السامية^(١) . ويبدو أن اللغة السامية

(١) انظر حول هذا في الأكدية :

Ungnad-Matous, Grammatik des Akkadischen, München, 2964, s.59.

أما في المهريّة فكلمة واحد يعبر عنها بكلمة « طاد » للمذكر و« وطيط »

للؤنث .

الأولى عرفت هذه الأعداد إلى العشرة ، ثم عرفت كلتین آخرین للعشرة
والآلاف .

إن المتبحر المقارن يفترض أن الظواهر المشتركة في كل اللغات السامية ، أو في
أكثر اللغات السامية ظواهر موروثية عن اللغة السامية الأولى . يصدق هذا على
الأصوات وعلى الأبنية الصرفية وعلى أبنية الجمل وعلى المفردات أيضاً . فتلک
الظواهر المشتركة ميراث سامي قديم ، أضافت إليه كل لغة من اللغات السامية على
مر الزمن . وليس من المفيد أن يسكثر الجدل حول مهد هذه اللغة السامية الأولى
التي سبقت اللغات السامية المختلفة في الوجود⁽¹⁾ . وأعذب الظن أن أبناء اللغة
السامية الأولى كانوا في بيئة تعرف قدرأ من الزراعة وقدرأ من الرعي ، فهناك
قدر كبير من الألفاظ الزراعية والرعية المشتركة في اللغات السامية ، وإذا صح
لنا أن نفترض أن الجماعة اللغوية السامية الأولى قد عاشت في شمال الجزيرة العربية
وبادية الشام والعراق فإن الهجرات التي خرجت من مهد الساميين قد اتجهت في
موجات تاريخية متتالية إلى منطقة الرافدين وإلى أرض الشام وإلى اليمن والحبشة ،
وفي هذه المناطق تكونت اللغات السامية المختلفة .

(1) أنظر حول مهد الساميين والآراء الكثيرة التي قبلت في ذلك :

C. Brockelmann, Grundriss. I/2.

H. Fleisch, Introduction, pp, 22-32.

وتتناخص هذه الآراء في افتراض أن الساميين عاشوا في اليمن أو في شمال
جزيرة العرب أو في العراق أو في الحبشة .

الفصل العاشر

التوزيع الجغرافي والتاريخي للغات السامية

١ - الفرع الآكادي :

يضم الفرع الآكادي من اللغات السامية^(١) كل اللغات واللهجات التي نشأت عن اللغة السامية الأولى التي دخلت أرض العراق مع الوافدين إليها حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م. وقد سميت هذه اللغات واللهجات باسم شامل لها يميزها عن سواها ، وتنسب الآكادية إلى أكد وهي أول مدينة سكنها للساميون الوافدون في شمال بابل ، وقد أطلق هؤلاء اسم الآكادية على لغتهم تمييزا لها عن اللغة السائدة في جنوب أرض الرافدين آنذاك ، وهي اللغة السومرية^(٢) . لقد وجد الساميون المهاجرون إلى أرض العراق شعبا ذا حضارة زراعية سبقهم إلى الإقامة في هذه المنطقة ، وهو الشعب السومري .

وقد أظهرت الاكتشافات الحديثة عددا كبيرا من النقوش السومرية واتضح

(١) انظر المراجع المذكورة في هامش (١) من هذا الباب .

(٢) أنظر : Von Soden, Grundriss der akkadischen

Grammatik, Analecta Orientalia 33/47, Roma 1969. s. 2.

ملاح اللغة السومرية^(١) . وملاح الحضارة التي سجلها السومريون بلغتهم . ولكن اتناء اللغة السومرية لا يزال مشكلة لم تحل ، فالسومرية من أقدم اللغات التي دونت ، وربما تكون أقدم لغة دونت في العالم . ولم تكن الكتابة في التاريخ القديم أمرا شائعا ، بل ولا تزال آلاف اللغات في عالمنا المعاصر منطوقة لا يكتبها أهلها . ولذا لا يستطيع البحث المقارن التعرف على القرابة اللغوية للسومرية ، وربما كانت السومرية متمية إلى أسرة لغوية بادت كل لغاتها ولم يكتبها أهلها . لقد التقى الساميون المهاجرون إلى أرض العراق بالسومريين . كان السومريون أكثر حضارة . كان الأكاديون فيما يبدو لا يقلون عن السومريين عددا . ولذا لم تستطع الأكادية أول الأمر أن تقضى على السومرية ولم تستطع السومرية أن تقضى على الأكادية ، فساد ازدواج لغوي استمر أكثر من ستة قرون (٢٥٠٠ - ١٠٠٠ ق م) . وفي هذه الفترة اختلط الساميون البسطاء بالسومريين الأكثر حضارة . واندج السومريون شيئا فشيئا مع الساميين الأكاديين ، ام يحدث هذا عند دخول السومريين أرض العراق وإنما حدث بعد ذلك وزاد بعض الوقت ، وأدى في النهاية إلى سيادة اللغة الأكادية في كل مناطق العراق وانتهاء استخدام اللغة السومرية . هناك عدد كبير من النقوش السومرية والنقوش الأكادية وصلت إلينا من هذه الفترة التي ساد فيها الازدواج اللغوي . ويطلق على اللغة الأكادية في هذه الفترة اسم الأكادية القديمة تميزا لها عن المراحل اللغوية التي جاءت بعد ذلك ، وهي البابلية القديمة ، والوسيطه ، والجديدة والحديثة ، والمتأخرة ، والآشورية القديمة ، والوسيطه ، والجديدة^(٢) .

(١) حول السومريين وحضاراتهم أنظر :

H.Schmökel, *Sumer et la civilisation sumerienne*, Paris 1964. p 192

Bibliothèque historique.

S.N. Kramer. *The Sumerians*, Chicago 1970.

Von Soden, *Grundriss*, s. 23.

(٢) انظر :

الأكادية القديمة

الآشورية القديمة	البابلية القديمة
١٩٥٠ - ١٥٠٠ ق.م	١٩٥٠ - ١٥٣٠ ق.م
↓	↓
الآشورية الوسيطة	البابلية الوسيطة
١٥٠٠ - ١٠٠٠ ق.م	١٥٣٠ - ١٠٠٠ ق.م
↓	↓
الآشورية الجديدة	البابلية الجديدة والحديثة
١٠٠٠ - ٦٠٠ ق.م	١٠٠٠ - ٦٥٠ ق.م
	↓
	البابلية المتأخرة
	٦٥٠ ق.م - القرن الأول الميلادي

كانت فترة الازدواج اللغوي بين السومرية والأكادية القديمة فترة هامة تركت آثارها في حياة الأكاديين. لقد تعلم الأكاديون الكتابة عن السومريين، ولم يكن الأكاديون يعرفون قبل ذلك أن لغتهم المنطوقة يمكن أن تدون وتتحول إن ظاهرة مرئية. لقد كتب السومريون لغتهم بالخط المسماوي، ويطلق على هذا الخط اسم المسماوي لأنه يشبه المسامير، أي أن وصفه بهذه الكلمة لا يدل طبيعته، بل يشير إلى شكله الخارجي فقط، وقد كتبت شعوب كثيرة بعد السومريين والأكاديين بالخط المسماوي ومن أشهر اللغات القديمة التي كتبت بالخط المسماوي، اللغة الحيثية وهي لغة هندية - أوربية. فالخط المسماوي إذن وسيلة من وسائل التدوين ابتكرها السومريون وقدم غيرهم، فكتبوا بها لغاتهم المتباينة المختلفة، فالسومرية لا تربطها علاقة قرابة بالأكادية، ولا علاقة بين تلك واللغة الحيثية، فهذه لغات مختلفة الانتماء تكتب بخط واحد.

تقوم الكتابة المسبارية - عموماً - على أساس صوتي ، فالكلمة تقسم إلى مقاطع ولكل مقطع رمز يكتب به^(١) . وبذلك يختلف أساس الخط المسباري عن الأساس الذي يقوم عليه الخط الهيروغليفي الذي كتبت به في نفس الفترة الزمنية اللغة المصرية القديمة . فالخط الهيروغليفي لا يقوم - في أساسه - على تدوين الصوت المنطوق بل على أساس الكتابة بالصور . ومن هذا الجانب يوضح الخط المسباري ، كما دونت به اللغة الأكادية ، جوانب كثيرة من طبيعة اللغة الأكادية ، وهو من هذا الجانب أكثر تمبيراً عن واقع اللغة من خطوط كثيرة أخرى لم تكن تدون الحركات بأية صورة مثل الخط العربي الجنوبي القديم . ويمكن إيضاح هذا الأمر ببيان قضية النهايات الإعرابية وقضية أصوات الحلق^(٢) في ضوء النقوش الأكادية التي تدون المقاطع بالرموز المسبارية .

إعراب الاسم في الأكادية

كلمة : « كلب »

المرحلة اللغوية	الأكادية القديمة	الأكادية الوسيطة والجديدة والمتأخرة
الحالة الإعرابية		
الرفع	Kalum	Kalbu
النصب	Kalham	Kalba
الجر	Kalbim	Kalbi

(١) حول نظام الكتابة الأكادية :

von Soden, Das akadische Syllabar. Roma 1948

(٢) انظر الفصول الخاصة بإعراب الاسم والأصوات في كتاب فون زودن ،

هامش (٢٢) .

فالإسم الأكادي يظهر في النقوش المختلفة على ثلاثة أشكال ، تتحدد بوظيفة الإسم في الجملة ، ويطلق أحد هذه الأشكال حالة الرفع في العربية ، ويطلق الشكل الثاني حالة النصب في العربية ، والشكل الثالث حالة الجر . فقد عرفت الأكادية إعراب الإسم على نحو ما عرفت في العربية ، أى بالرفع والنصب والجر ، أما الميم التي تنتمي بها الصيغة المذكورة في الأ^ك كادية القديمة (انظر الجدول) فيقابلها نون التنوين في العربية ، أى أن التميم في الأ^ك كادية يقابل التنوين في العربية .

وإذا كان وجود أصوات الحلق يعد من السمات المميزة للغات السامية عموماً فأغلب الظن أن اللغة السامية الأولى عرفت مجموعة أصوات الحلق بالتنوع الموجود في العربية . أما اللغة السومرية فقد عرفت صوتين حلقيين ، هما الهمزة والخاء ، ولما لم تكن هناك مشكلة تجاه هذين الصوتين . فقد كان السومريون والأ^ك كاديون ينطقون الصوتين ، ولكن الأ^ك كاديين قلدوا السومريين في عدم نطقهم لصوت العين والحاء . ولا يمكننا تصور هذا التأثير إلا إذا لاحظنا الأزدواج اللغوي الذي ساد عدة قرون ، فكان كثير من السومريين يعرفون الأ^ك كادية وينطقونها ، وربما كان بعض الأ^ك كاديين يعرفون السومرية . ومعنى هذا أن نطق اللغة الأ^ك كادية تأثر بكيفية نطق السومريين لها ، وبذلك اختفت العين والحاء من الأ^ك كادية ، بينما ظلت الهمزة والخاء موجودتين .

اختفاء العين والحاء والهاء في الأ^ك كادية

الصيغة السامية	العربية	الصيغة الأ ^ك كادية	الصوت المفقود	التعويض
بعل	دون النهاية الأعرابية	be:l.	العين	مد الحركة
قمح		qe:m	الحاء	مد الحركة
نهر		n:ar	الهاء	مد الحركة

ومثل هذا التغيير الصوتي يفسر في إطار أثر الأساس اللغوي ، والمقصود تأثير اللغة الآرامية في اللغة الروافدية (١) . وقد كان للغة السومرية تأثيرات كثيرة في اللغة الآرامية . لقد انتقلت عدة كلمات من السومرية إلى الآرامية كادية ، وانتقل بعضها من الآرامية إلى العبرية والعربية بعد ذلك ، وأشهر هذه الكلمات كلمة « هيكل » . وأصل هذه الكلمة في السومرية okallum (دون ها .) ، يعنى البيت الكبير ثم انتقلت بالمعنى الآخري إلى العبرية (مع إضافة الهاء) ومنها إلى الآرامية والعربية . أى أن الصيغة العربية لهذه الكلمة فتبدأ بالهاء التي أضيفت إليها في اللغة العبرية .

وامتد التأثير السومري أيضاً إلى بناء الجملة الآرامية . فقد كان الفعل السومري يتخذ مكانه في آخر الجملة ، بينما يكون الفعل في الجملة السامية في أول الجملة لتسكوب الجملة الفعلية أو في وسط الجملة في بعض أنواع الجملة الإسمية . ولكن التصووص النثرية الآرامية تأثرت باللغة السومرية ، فتحرك الفعل إلى آخر الجملة الآرامية . وكان الشعر الآرامي محافظاً فاحتفظ بالنمط السامي لبناء الجملة ، وبذلك ظل في مكانه في أول أو وسط الجملة الآرامية .

واللغة الآرامية كادية من أهم اللغات السامية لغويًا وحضاريًا . فالآرامية كادية أقدم لغة سامية دونت ، ولذا يعد وجود أية ظاهرة لغوية في الآرامية كادية والعربية دليلًا على كون الظاهرة موروثًا عن اللغة السامية الأولى ، وبذلك نستطيع التأريخ لأقدم الظواهر في العربية عن طريق المقارنة بالآرامية كادية .

(١) يطلق على هذا النوع من التأثير Substrat (sub ومعناها تحت strata ومعناها طبقة) . والمقصود بهذا تأثير اللغة الأقدم مثل السومرية في اللغة التي جاءت بعدها في نفس المنطقة وهي الآرامية كادية ، وهذا مثل تأثير الآرامية في اللهجات العربية في الشام والعراق وتأثير القبطية في عربية مصر وتأثير السكتية في اللاتينية الشعبية في فرنسا الخ.

عاشت الأكادية أكثر من خمسة وعشرين قرناً، وبعد انهيار الاستقلال السياسي للمنطقة اللغوية الأكادية ودخول العراق في الإمبراطورية الفارسية ظلت اللغة الأكادية تستخدم في بعض النقوش. لقد ظلت الأكادية لغة الحياة والدولة حتى القرن السابع قبل الميلاد. وبسقوط الدولة الآشورية في القرن السابع قبل الميلاد بدأ احتضار اللغة الأكادية، فقد كانت الآرامية تواصل انتشارها كلغة حديث لغة تعامل، ولكن التغير اللغوي حدث ببطء شديد، فظل الازدواج اللغوي قائماً عدة قرون انتهت بأن تركت الأكادية الحياة مختلفة وراثتها تراثاً أدبياً، مثل ملحمة جاجامش^(١)، وتراثاً قانونياً مثل شريعة حمورابي^(٢) وعدداً كبيراً من النقوش ذات المضمون السياسي والاجتماعي.

٢- الفرع الكنعاني

يضم الفرع الكنعاني من اللغات السامية عدة لغات كانت في منطقة الشام^(٣) وأهم هذه اللغات واللهجات الكنعانية: الأجرية، والعبرية، والفينيقية والبونية،

(١) حول ملحمة جاجامش انظر ترجمة أعدها Schott ونقحها von Soden

وطبعت بعنوان: Das Gilgamech - Epos, Stuttgart 1970.

The Gilgamesh epic and Old Testament Parallels Chicago and London, 6th. impr. 1967.

(٢) حول تاريخ حمورابي أنظر:

R. F. Harper, The code of Hammurabi. Chicago, 1904

(٣) حول الكنعانية ولهجاتها والعلاقات اللغوية بينها، انظر:

R. Meyer, Hebräische Grammatik, I, s. 22-27.

Z.S Harris, Development of the Canaanite Dialects, New Haven 1939 (= American Oriental Series 16).

والمؤابية ، وقد اعتدت بعض هذا اللغات إلى مناطق أخرى خارج أرضها الأولى .
ويمكن تقسيم اللغات واللهجات الكنعانية من الناحية الجغرافية إلى : الكنعانية الشمالية
وتمثلها الأجرية ، والكنعانية المتوسطة وتمثلها الفينيقية ، والكنعانية الجنوبية
وتمثلها العبرية والمؤابية .

الاجرية :

تعد الاجرية اللغة الوحيدة التي نعرفها من لغات الفرع الكنعاني الشمالي ،
وأغاب الظن أن الاجرية لم تكن وحدها في منطقة شمال الشام . فهناك لغات أخرى
شمل العمورية بادت متذمّن بعيد ولم تنون في نقوش ، ولذا فليست لها صورة
واضحة بين اللغات القديمة (١) . وتنسب اللغة الاجرية إلى اسم مدينة عميقة هي
مدينة أجريت ، وقد جاء اسم هذه المدينة الساحلية في مراسلات وجدت بالعراق
ومصر من القرنين الثامن عشر والرابع عشر قبل الميلاد . واللغة الاجرية هي آخر
لغة سامية اكتشفت . وهي اللغة السامية الوحيدة التي اكتشفت في القرن العشرين .
وقد بدأت الكشوف بالقرب من مدينة رأس شمراء على الساحل السوري سنة
١٩٢٩ ، فكشف عن مجموعة كبيرة من النقوش الاجرية . ولم تكن اللغة
الاجرية معروفة قبل هذا التاريخ ، ولذا تخلو كتب اللغات وكتب النحو المقارن
في اللغات السامية المؤلفة قبل هذا التاريخ من أية إشارة إلى اللغة الاجرية (٢) .

(١) هناك أيضا بضع أسماء من لغة أولهجة كنعانية شمالية وصلت إلينا من عهد
حمورابي (١٧٢٨ - ١٦٣٦ ق . م) وكذلك من القرن الخامس عشر قبل الميلاد .
إن هذه الاسماء يتضح منها اتجاؤها إلى لغة كنعانية شمالية .

(٢) حول الاجرية انظر : C.H. Gordon, Ugaritic Manual

Analecta Orientalia 35, Roma 1955.

والطبعة الموسعة المعدلة بعنوان :

C. H. Gordon, Ugaritic textbook. 3 vols (Grammar; glossary and
indices, text in transliteration. Analecta orientalia 38). Reprinted:
Roma 1965 . 67.

J. Aistleitner, Wörterbuch der ugaritischen Sprache. المعاجم
Berlin 1963.

لقد كشفت هذه الحفريات عن عدد كبير من النقوش المدونة على ألواح
 طينية مكتوبة بخط مسباري ، أى أن هذا الخط يشبه من ناحية الشكل ذلك الخط
 الذى كتبت به من قبل اللغات السومرية والأكادية والحيثية ولسكن عدد الرموز التى
 تتكرر فى هذه النقوش الأجرينية الكثيرة يقل كثيراً عن عدد الرموز المستخدمة
 فى الخط المسباري الأكادي . ويرجع هذا إلى سبب يتعلق بطبيعة الكتابة الأكادية
 واختلافها عن الكتابة الأجرينية . لقد كتب الأكاديون بـرموز مسبارية يدل كل
 منها بصفة عامة على مقطع ، ولذا كانت هناك حاجة إلى استخدام مئات الرموز .
 ولكن الأجرينيين كتبوا بـرموز قليلة لا يتجاوز عددها الثلاثين . ومعنى هذا أن
 الأجرينيين بسطوا نظام الكتابة فلم تعد هناك حاجة لتعلم مئات الرموز ، بل بسط
 الأجرينيون الرموز المكتوبة إلى عدد قليل . لقد عبر الأجرينيون عن كل صوت
 من أصوات اللغة بحرف واحد ، ولذا كانت الحروف بعدد الوحدات الصوتية
 الموجودة فى لغتهم ، غير أنهم جعلوا الهمزة المفتوحة ثم الهمزة المضمونة ثم المكسورة
 رموزاً مختلفة ، وهذا القصور فى تدوين الهمزة أصبح ميراناً تناقلته كل الكتابات
 السامية الأجدية بعد ذلك . وبذلك كان الأجرينيون أول من دون أية لغة من
 اللغات تدويناً صوتياً يقوم على أساس استخدام الحرف الواحد — دائماً — للوحدة
 الصوتية الواحدة . وكانت الكتابة قبلهم إما صورية مثل الكتابة الهيروغليفية ، أو
 مقطعية مثل الكتابة السومرية والأكادية ، ولم تكن الكتابة الهيروغليفية صورية
 مئة فى المائة كما لم تسلم الكتابة الأكادية من تأثيرات الكتابة بالمعنى بأن يؤخذ الرمز
 الدال على الكلمة السومرية ويستخدم بمعنىاً فى النقوش الأكادية . وابتكار
 الأجرينيين للأجدية وهى نظام سهل يقوم على أساس صوتى منتظم مكن الإنسانية
 أن تمضى فى ركب الحضارة وأن تصبح المعرفة شيئاً متاحاً لعدد كبير من البشر ،
 بعد أن كانت فى الحضارات الأقدم وفقاً على نخبة من كبار رجال الدولة .

ولكن الكتابة الأجرينية تعد من جانب بعينه متخلفة عن الكتابة الأكادية ،

وقد امتد هذا القصور إلى الكتابات السامية الأبجدية عدة قرون بعد ذلك . كان الأكاديون يدونون الحركات ، فالرمز المقطع كان يدل على الصامت مع الحركة ، وبذلك اختلف الرمز الخاص بالباء المفتوحة عن الرمز الخاص بالباء المنكسورة عن الرمز الخاص بالباء المضمومة . ولذا يمكن التعرف على البنية الصوتية للحركات الأجرية . فالأجريتون لم يدونوا الحركات على الإطلاق ، وتقوم كتابتهم على تدوين الصوامت فقط . وقد ظلت الكتابات السامية تدون الصوامت فقط على نحو ما فعل الأجريتون ولا تدون الحركات عدة قرون بعد الميلاد .

لقد اتبع الأجريتون لأول مرة في التاريخ النظام الأبجدي في تدوين اللغة وترجع كلمة الأبجدية ، إلى ترتيبهم للحروف التي كتبوا بها لغتهم^(١) . فالحروف انتظمت عندهم وفق الترتيب التالي : أ ب ج د هـ و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت . وهذا الترتيب هو الأبجدية لأنه يبدأ بالألف والباء والجيم والذال وقد ظل الترتيب الأبجدي للحروف سائدا عند كل الشعوب التي تعلمت الخط من الأجريتين بصور مباشرة أو غير مباشرة ، وأكثر النظم المعروفة في ترتيب الحروف ترجع بشكل مباشر إلى الترتيب الأبجدي الأجرى ، أخذته كما هو أو عدلت فيه قليلا . فترتيب الحروف على النحو الأبجدي هو ترتيبها في العبرية وفي كل اللهجات الآرامية إلى اليوم .

النقوش الأجرية تلى الأكادية من الناحية الزمنية ، فالأكادية أول لغة سامية دونت ، وكان هذا حوالي سنة ٢٥٠٠ ق . م ، ثم دونت بمد ذلك اللغة الأجرية حوالي سنة ١٤٠٠ ق . م . ولذا تحمل اللغة الأجرية سمات قديمة كثيرة ، بل لأنها تختلف — من هذا الجانب عن باقي لغات الفرع الكنعاني وتقترب بذلك من العربية . فالعربية احتفظت بصفة عامة بالأصوات السامية الأولى ، نجد في العربية مثلا تمييزا واضحا بين الحاء والخاء ، وهذه هي الحال أيضا في الأجرية ، أما في

(١) انظر ما كتبه ماير: R.Meyer, Hebraische Grammatik, I, s. 37-39.

العبرية والفينيقية فقد تحولت كل حاء. وكل خاء إلى صوت واحد هو الحاء. وهناك تمييز بين العين والعين في العربية وكانت الاجريزية تميز بينهما أيضا، ولكن العربية جعلت منهما صوتا واحدا هو العين. ويوضح تمييز الاجريزية بين أصوات اختلطت بعد ذلك في العربية والفينيقية أنها — من هذا الجانب — أقرب إلى اللغة السامية الأولى. ولذا تعد دراسة الاجريزية أداة هامة لدراسة عبرية العهد القديم والفينيقية كما جاءتنا في النقوش. ويمتد الباحثون الماصرون على الاجريزية لبيان المرحلة التاريخية السابقة على العربية والفينيقية، فالاجريزية أقدم لغة وصلت إلينا من المجموعة الكنعانية.

الفينيقية

الفينيقية هي إحدى لغات المجموعة الكنعانية (1)، وقد وصلت إلينا الفينيقية في مجموعة من النقوش، فلا نعرف الفينيقية إلا من هذه النقوش. وأقدم ما وصل إلينا من اللغة الفينيقية بضع جمل وجدت في مجموعة رسائل تل العمارنة بصعيد مصر. وتمثل هذه العبارات الموجزة لهجة منطقة جبيل في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. ولكن أكثر النقوش الفينيقية ترجع إلى الفترة بين سنة 1000 ق.م. وسنة 100 م.

(1) حول الفينيقية :

J. Friedrich. W. Rölling, Phönizisch — Punische Grammatik. Roma 1970.

Z. S. Harris, A Grammar of the Phoenician Language. New Haven 1936.

v. den Branden, Grammaire phénicienne Beyrouth 1969.

ولا يوجد معجم مستقل للفينيقية بل يوجد معجم للنقوش السامية الغربية يفيد بصورة مباشرة في فهم النقوش الفينيقية وهو معجم :

Ch. F. Jean-J. Hoftijer, Dictionaire des inscriptions sémitiques d'ouest Leiden 1965.

كانت الفينيقية لغة الساحل الفلسطيني والسوري واللبناني ، وفي هذه المنطقة وجدت مجموعة كبيرة من النقوش . وقد وجدت نقوش فينيقية كثيرة خارج منطقة الشام ، فقد كان الفينيقيون مهتمين بالتجارة البحرية فكانت لهم محطات تجارية ورجاليتهم في مناطق مختلفة من جزر البحر المتوسط ، ولذا هناك نقوش فينيقية كثيرة من قبرص . وقد انتشرت المحطات التجارية الفينيقية في كل أنحاء حوض البحر المتوسط ، فهناك نقوش فينيقية وجدت في المنطقة الساحلية لآسيا الصغرى وعلى الساحل الاوربي للبحر المتوسط وخصوصا في جنوب أسبانيا (١) .

ويطلق على اللغة الفينيقية في امتدادها في المغرب لإسم اللغة البونية وتقع المنطقة اللغوية البونية على الساحل التونسي ، وأهم المدن التي أسسها الفينيقيون هناك مدينة وقمرت حدشت ، أي القرية الحديثة ، بمعنى المدينة الحديثة (٢) ويقسم تاريخ اللغة الفينيقية

(١) انظر حول توزيع النقوش الفينيقية وغيرها جغرافيا وتاريخيا كتاب :

H, Donner, W. Rölling, Kanaanaische und aramaische Inschriften Wiesbaden 1966 .

ويضم هذا الكتاب الممتاز ثلاثة مجلدات ، أولها للنصوص والثاني للتعليق والثالث معجم لغوي وفهراس ، وبهذا تصبح هذه المجلدات أفضل أداة لدراسة النقوش الفينيقية وغيرها من النقوش التي تناولها الكتاب

(٢) تدل كلمة وقمرت ، هنا على المعنى القديم للكلمة كما جاء في القرآن الكريم فالقرية تعني ما نعتبر عنه اليوم بكلمة مدينة ، انظر المواضع التي وردت فيها الكلمة في القرآن الكريم .

واشارة القرآن الكريم إلى (رجل من القريتين) تدل على أن القريتين وهما مكة والطائف لم تكونا قريتين بالمعنى الحديث بل هما مدينتان . وهناك مدن كثيرة =

في هذه المنطقة الأفريقية إلى مرحلتين : البونية والبونوية الحديثة . تبدأ اللغة البونية بانتشار الفينيقيين في منطقة الساحل التونسي حوالي القرن التاسع قبل الميلاد ، وتنتهي بسقوط الكيان الساسي للدولة البونية سنة ١٤٦ ، فقد قضى الرومان الذين نازعوا الفينيقيين السيادة البحرية ودخلوا معهم في حروب متصلة على مدينة قرطاجنة واحتلوا المنطقة اللغوية البونية . وبعد سقوط قرطاجنة تبدأ الفترة الثانية في حياة اللغة البونية . لقد خصم البونيون للرومان ، وكان الرومان في مركز السيادة ولذا تأثرت اللغة البونية الجديدة باللغة اللاتينية من أكثر من جانب لقد دخلت ألفاظ لاتينية كثيرة إلى اللغة البونية في هذه الفترة ، ويبدو أن الإدواج اللغوي الحادث مع إقامة عدد من أبناء اللغة اللاتينية إلى جوار المتحدثين بالبونوية قد أدى إلى ضعف النطق بأصوات الحلق في اللغة البونية الجديدة . وقد أمكن التعرف على هذه الظاهرة من النقوش البونية الجديدة . فسكتابها يخلطون في التدوين بين السكتات التي ينبغي أن تكتب بحرف العين والسكتات التي يجب أن تكتب بالهمزة ، كما يخلطون بين السكتات التي ينبغي أن تكتب بالحاء والسكتات التي ينبغي أن تكتب بالهاء ، ويرجع هذا الخطأ في الكتابة إلى أنهم في النطق لم يكونوا يميزون بين العين والهمزة وبين الحاء والهاء . وفي عدد من النقوش البونية الجديدة نلاحظ مزيدا من الخلط بين الهاء والألف وفي مرحلة متأخرة من تاريخ البونية الحديثة نجد الحروف التي كانت تستخدم قديماً للتعبير عن أصوات الحلق تصبح وسيلة لكتابة الحركات القصيرة ولا بد أن هذا حدث في فترة لم يمد أحد يحس فيها بأن هذه الحروف تعبر عن أصوات تنطق فعلا ، فوجدوها بلا وظيفة فأفادوا منها لتدوين الحركات ونلاحظ

== يوازي اسمها اشفاقيا مدينة قرط حذشت قدينة نابولي تكون اسمها من الكلمتين Neo+Polio وتعني كلمة Neo جديد أو حديث ، وكلمة Polis تعني المدينة . أما تسمية قرط حذشت باسم قرطاج أو قرطاجنة . الخ ، فيعكس هدم نطق صوت الحاء وهو صوت حلق كان النطق قد ضعف به في البونية الحديثة .

في هذه المحاولة التأثير المباشر لليونان واللاتين فقد قلدتهم البولونيون الخاضعون للرومان في كتابة الحركات داخل الكلمة على نحو ما فعل اليونان والرومان .

كان اليونان قد تعلموا أثناء احتكاكهم بالفينيقيين حوالي القرن التاسع قبل الميلاد الكتابة الأبجدية والكتابة الأبجدية الفينيقية امتداد مباشر للأبجدية الأجرينية . كان الأجرينيون قد بسطوا نظام الكتابة وجعلوها أبجدية . احتفظ الفينيقيون بفكرة النظام الأبجدي ، غير أنهم عدلوا أشكال الحروف لتصبح سهلة في الكتابة واحتفظ الفينيقيون في نفس الوقت بترتيب الحروف كما رتبها الأجرينيون . وعندما تعلم اليونان الكتابة من الفينيقيين بدأت أوروبا حضارتها الراقية القديمة . ففي القرن التاسع قبل الميلاد كان عمر الحضارة في الشرق بضع آلاف من السنين وكان تاريخ الكتابة قد مر بمراحل متتابعة ، ثم أخذ اليونان عن الفينيقيين فكرة التدوين الصوتي بالحروف ، أي أنهم أخذوا الأبجدية ، واحتفظوا أيضاً بترتيب الحروف كما عرفه الفينيقيون . ولكن اليونان وجدوا مجموعة حروف عبرت عند الفينيقيين عن أصوات الحلق وأصبحت بالنسبة لليونان دون فائدة ، وهنا أدخل اليونان تعديداً منهجياً على الخط بأن استخدموا مجموعة الحروف المذكورة للدلالة على الحركات في سياق الكلمة . ويعد هذا التعديل مرحلة هامة في تاريخ الخط بصفة عامة . وقد حدث في الكتابة اليونانية تعديل آخر جعلها تختلف عن الكتابة الفينيقية ، فقد جعل اليونان اتجاه الكتابة من اليسار إلى اليمين ، بعد أن كانت بخلاف ذلك عند الفينيقيين وهذان التعديلان : تدوين الحركات وتعديل اتجاه الكتابة ظلتا سمتين أساسيتين في كل الخطوط المأخوذة عن الخط اليوناني ، وأهمها الخط الكريل الذي انتشر مع انتشار المسيحية الأرثوذكسية في شرق أوروبا ، والخط الروماني الذي انتشر مع الكاثوليكية في غرب أوروبا . وبذلك كان للأجرينيين ثم للفينيقيين دور كبير في تبسيط نظام الكتابة ، وهو ما أتاح تحول المعرفة الانسانية إلى ظاهرة ذات بعد إجتماعي عريض .

اللهجات الكنعانية الجنوبية :

أقدم ما وصل إلينا بالكنعانية الجنوبية مجموعة هوامش مدونة على رسائل أكادية أرسلها بعض أمراء فلسطين إلى حكام مصر ، وترجع هذه النصوص إلى عهد امنحتب الثالث (١٤١٣ - ١٣٧٧ ق م) وامنحتب الرابع (اختاتون) (١٣٧٧ - ١٣٥٨ ق م) . وتعد لغة هذه الهوامش صورة قديمة من اللهجات الكنعانية الجنوبية (١) .

وهناك نقش يعرف باسم الملك ميشع ، ويعبر عن لهجة خاصة به تختلف في بعض الخصائص عن الفينيقية ، كما تختلف في خصائص أخرى عن العبرية (٢) إن هذا النقش الذي يقع في ٣٤ سطرأ يؤرخ بمنتصف القرن التاسع قبل الميلاد . وهو الأثر الوحيد الباقي من تلك اللهجة الكنعانية الجنوبية : المؤابية .

ولكن أهم اللهجات الكنعانية الجنوبية هي العبرية ، وترجع أهميتها إلى أنها دونت في أسفار العهد القديم ، ومرت بازدهار في الأندلس الإسلامية ، وعادت للحياة مرة أخرى في العصر الحديث .

العبرية

تبدأ اللغة العبرية تاريخها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد عندما دخلت قبيلة إسرائيل أرض فلسطين . وقد تعلم أبناء القبيلة الوافدة لهجة المنطقة التي حلوا فيها من فلسطين ، وهي إحدى اللهجات الكنعانية الجنوبية . ويكاد العهد القديم يكون المصدر الوحيد للتعرف على تاريخ العبرية مدة ألف عام ، تبدأ بدخول قبيلة إسرائيل

Meyer, Hebräische Grammatik, I,

(١)

H, Donner, W, Rölling, : (٢) انظر حول نقش الملك ميشع كتاب :

Kanaanäische und aramäische Inschriften, Wiesbaden, 1964, 1/33

وحول الملك ميشع انظر سفر الملوك الثاني ٣/٤٤ - ٢٧ .

لأرض فلسطين وتمضى إلى القرن الثاني قبل الميلاد . وقد أوضحت السكشوف الأثرية في القرن العشرين عددا من النقوش العبرية ، وهو عدد قليل لا يقارن على الإطلاق بعدد النقوش الفينيقية فضلا عن الأجرية أو الأكادية . وفي السنوات الأخيرة ظهرت مجموعة نصوص دينية وأدبية مكتوبة على البردى وعلى الجلد سميت باسم لفائف البحر الميت Dead sea scrolls وترجع هذه الكتابات إلى الفترة ما بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي . وتحاول السلطات الحاكمة في إسرائيل تدعيم ارتباطها بالأرض بالاهتمام بالسكشوف الأثرية ولكن هذه السكشوف لا تؤكد تظهر إلا القليل . وفي سنة ١٩٦٠ وجدت مجموعة رسائل عبرية أرسخها أحد المؤلفين بالقرن الثاني للميلاد^(١) .

اللغة العبرية القديمة هي لغة العهد القديم وهو الكتاب المقدس عند اليهود ، وأحد الكتابين المقدسين عند المسيحيين^(٢) ، يطلق عليه اليهود (تنخ) اختصارا للعناوين العبرية لأقسامه الثلاثة : التوراة والأنبياء والمكتوبات . ويطلق عليه المسيحيون اسم العهد القديم The Old Testament باعتبار أن الأناجيل هي العهد الجديد The New Testament ، ويسكون الكتابان معا الكتاب المقدس عند المسيحيين The Bible . أما التسمية الشائعة في العربية و التوراة ، فتمكس ضربا من إطلاق

Meyer, I, (١)

Introduction to the Old Testament. حول العهد القديم. (٢) أنظر :

G Fohrer, Das Alte Testament. Gutersloh 1969-70.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية بعنوان :

Introduction to the Old Testament.

وهناك كتب كثيرة بنفس العنوان لمؤلفين متعددين منهم :

R K. Harrison, Pfeiffar.

D. Kaiser, Einleitung in das Alte Testament. أنظر كذلك :

Gutersloh 1969.

اسم الجزء على الشكل ، فالنوراة هي الثلث الأول من العهد القديم . ولذلك يمكن اعتبار كلمة النوراة تسمية لهذا القسم وحده ، أو للعهد القديم كله . وليس العهد القديم كله باللغة العبرية ، ففيه عدة صفحات بالأرامية وهي سفر عزرا ٤/٨ - ١٦ و ١٧ ، ١٢/٧ - ٢٦ سفر دنيال ٢/٤ - ٢٨ ، ٧ ، وسفر إرميا ١٠/١١ ، وهناك كلتان آراميتان في سفر التكوين ٣١ ، ٤٧ ، ويطلق على العبرية كما نعرفها في العهد القديم اسم العبرية القديمة أو العبرية السكلاسيكية^(١) تميزا لها عن المراحل التالية في تاريخ العبرية : ومن المعروف أن العبرية المستخدمة في العصر الحديث هي العبرية الحديثة . ولكن هناك خلافا بين الباحثين في تصنيف المراحل التي مرت بها اللغة العبرية بعد العهد القديم وقبل العصر الحديث ، يجعلها البعض فترة واحدة باسم العبرية الوسيطة ، ويقسم بعض الباحثين هذه الفترة إلى مراحل مختلفة .

(١) أهم أدوات البحث في اللغة العبرية القديمة :

W. Gesenius, Hebräisches und aramäisches Handwörterbuch über das Alte Testament. Berlin.

وقد ترجم هذا المعجم إلى اللغة الإنجليزية :

L. Koehler und W. Baumgartner, Hebraisches und aramaisches Lexikon zum Alten Testament. Leiden, 1967.

وقد أهتم المعجمان المذكوران ببيان المقابلات السامية لعدد من الكلمات .

H. Baurer und P. Leander, Historische Grammatik der hebräischen Sprache I. Halle 1922.

وقد طبع الكتاب مرة ثانية سنة ١٩٦٥ ضمن سلسلة Olms paperbacks

W. Gesenius-E. kautzsch, Hebräische Grammatik. Leipzig 1910.

وقد ترجم إلى الإنجليزية ، وطبع بالألمانية عدة طبعات أهمها بعناية برجشتراسر

Bergsträsser في ليزج ١٩١٨ .

لم تكن اللغة العبرية حية تستخدم في التعامل اليومي في كل هذه الفترة الطويلة ، بل كانت لغة التعامل اليومي حتى سقوط سامريا سنة ٧٢١ ق . م . ثم سقوط القدس سنة ٥٨٧ ق . م ، أى أن الحياة الحقيقية للغة العبرية بدأت في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، ثم أخذت اللغة العبرية في الانكماش في القرن السادس قبل الميلاد . وكانت اللغة الآرامية قد أخذت تسود منطقة الشام شيئا فشيئا قبل هذا التاريخ ، وما نكاد نصل إلى القرن السادس قبل الميلاد حتى نجد اليهود يتعاملون باللغة الآرامية في حياتهم اليومية . وأوضح مثال لذلك أن المرتوفة اليهود الذين تركوا فلسطين في القرن السادس قبل الميلاد تقريبا كانوا يتعاملون مع سلطات القدس ، كما ثبتت كتاباتهم البردية باللغة الآرامية . ولم يكن تعاملهم باللغة العبرية (١) ، وعلى الرغم من أن اللغة العبرية قد انكشحت بعد القرن السادس قبل الميلاد كلمة تعامل فقد ظلت لغة الدين اليهودي . اهتم بها رجال الدين ، وكتبت بها بعض الكتب الدينية اليهودية وظل بعض اليهود يهتمون بتعلمها وبقراءة كتبها الدينية .

لم يدون العهد القديم في شكله الحالي في فترة حياة اللغة ، ولكنه دون على مراحل متعاقبة . فن المؤكد أنه لم يجمع وترتب أسفاره قبل القرن الثاني الميلادي . تم ذلك على يد عدد من علماء الدين اليهود الغارفين بالعبرية المتحدثين في حياتهم اليومية باللغة الآرامية . لقد دون العهد القديم — أول الأمر — بالخط العبري غير المضبوط بالشكل ، أى أن النص المدون كان نصا يدون الصوامت ولا يدون الحركات القصيرة . في هذه الفترة كان العهد القديم يتلى بعد أن يحفظ ، فلم تكن

(١) انظر بروكلمان في بحثه عن الآرامية :

Aramäisch, einschliesslich des Syrischen, in : Handbuch der Orientalistik (ed. Spuler), Semitistik. s. 138-139.

كتابته كاملة بل كان النص المكتوب يذكر القارىء بالنطق . وترجع إضافة الحركات إلى النص العبرى إلى مرحلة تالية ، امتدت من القرن الخامس الميلادى حتى القرن التاسع الميلادى . وكانت هناك عدة مدارس تعنى بالنص العبرى للعهد القديم ، ويطلق عليها مدارس الماسورا (1) . وتم عمل رجال الماسورا فى مرحلة لم تكن فيها اللغة العبرية لغة نحية ، ومعنى هذا أن رجال الماسورا كانوا من أبناء اللهجات الآرامية ثم اللهجات العربية . وقد تأثر رجال الماسورا فى محاولاتهم لضبط النص العبرى بالحركات بطريقة النساطرة السريان فى ضبط الخط السريانى . أما النظام المتداول إلى اليوم فى ضبط النص العبرى للعهد القديم والنصوص العبرية بصفة عامة فلا يقوم على جهد المدارس اليهودية فى العراق ، بل يعتمد على جهود مدرسة طبرية فى فلسطين . وقد أبرز البحث الحديث وجود مجموعة أسر اهتمت بالنص العبرى للعهد القديم ، وتوارثت هذه المعرفة ومن أهم هذه الأسر أسرة نفتالى وأسرة ابن أشمر .

وهكذا وصل إلينا العهد القديم بعد أن أُلّف على مراحل ، ودون على مراحل ، وضبط بالحركات فى مدارس مختلفة ، ولذا ينبغى وضع كل هذا فى الاعتبار عند استخراج الصبغ اللغوية من العهد القديم .

وقد أُلّف اليهود باللغة العبرية حتى مدى القرون عدة كتب دينية وتصنيف هذه

(1) حول رجال الماسورا والقضايا الخامسة بضبط النص العبرى للعهد القديم انظر كتاب باول كاله :

P.E. Kahle, Die Kairoer Genisa. Untersuchungen zur Geschichte des hebräischen Bibeltextes und seiner Übersetzungen. Berlin 1962

الكتب من الموضوعات الخلافية بين فرق اليهود وأحبارهم وربانيتهم . ولكن أهم هذه الكتب الدينية العبرية : المشنا (١) ، وهو الكتاب العبرى الثانى بعد العهد القديم . وترجع كلمة المشنا إلى المادة العبرية (ش ن ه) - وهى تقابل المادة العبرية الدالة على التثنية والتكرار . فالمشنا فى رأى اليهود هو النص الثانى من النصوص الدينية . وقد ألفت نص المشنا بين أواخر القرن الأول الميلادى وممتصف الثالث الميلادى . لقد انتهى آخر كيان سياسى لليهود فى فلسطين القديمة سنة ٧٠م عندما قضى الرومان على الاستقلال الداخلى لمنطقة صغيرة حكمها اليهود حتى ذلك التاريخ . وبذلك وجدت ظروف جديدة عاشها اليهود فى اختلاطهم مع أبناء العقائد الأخرى ، فألف رجال الدين لهم نص المشنا ، ليدعم ارتباطهم بأنفسهم على أساس الدين وتمييزهم عن الآخرين تبعاً لذلك . وقد ألفت نص المشنا باللغة العبرية فى

(١) أهم معجم يفيد فى قراءة المشنا :

M, Jastrow, A Dictionary of the Targumim, the Talmud Babli and Yerushalmi, and the Midrashic literature. New York 1926

وحول المشنا ولغتها ، انظر :

Ségal, Mischnaic Hebrew; Oxford 1958,

أما نص المشنا فقد طبع عدة طبعات وحده وطبع طبعات أخرى داخل التلود مثل :

Der Babylonische Talmud, herausgegeben von L. Goldschmidt Deh Haag 1933.

وحول رأى البحث اليهودى فى المشنا ، انظر :

Ch. Albeck, Einführung in die Mishna, Aus dem Hebräischen übersetzt von Tamar und Pessach Galewski, Berlin 1970.

وانظر أيضاً :

Strack, Einleitung in den Talmud, Leipzig 1908.

وانظر بالعربية مقال محمود فهمى حجازى عن : « التلود » ، مجلة المجلة —

القاهرة يناير ١٩٦٨ — ص ٤٤ — ٥٤ .

فترة كانت معرفة اللغة العبرية فيها قاصرة على رجال الدين اليهودي . ولذا فقد كان من الضروري أن يشرح النص بلغة مفهومة لليهود ، فكان رجال الدين يقرأون لعامة اليهود نص المشنا بالعبرية ثم يشرحونه لهم بالأرامية . ولم تكن هناك لغة آرامية موحدة ، بل هناك لهجات آرامية كثيرة . وتمددت الشروح اللغوية الآرامية بتمدد هذه اللهجات ، ثم كتب الاحبار والربانيون هذه للشروح الآرامية على المشنا . وهكذا ظهر التلود ، فالتلود البابلي يتألف من المشنا وهي نص عبري ، ومن الجمارا وهي الشرح الآرامي للنص العبري . والتلود الفلسطيني من المشنا نفسها ، ومن الشرح المدون باللهجة الآرامية الفلسطينية ويسمى الجمارا أيضا . المشنا نص عبري واحد ، والجمارا (أي النص المكمل أو الإكمال) تختلف باختلاف اللهجة الآرامية وباختلاف مؤلفيها .

وفي العصور الوسطى لم تزدهر اللغة العبرية إلا في إطار الدولة الإسلامية ففي الأندلس الإسلامية عاشت جماعات من اليهود . وشارك اليهود في الحياة الثقافية العربية مشاركة حيقة ، فكانوا يتعلمون المعارف العربية . وأراد اليهود أن يؤلفوا بما اكتسبوه من معارف عربية كتبوا عربيا . وبذلك كانت المؤلفات العبرية الأندلسية انمكسا واضحا للثقافة العربية الإسلامية في كل فروع المعرفة . فكتب النحو العبري التي ألفها يهود الأندلس ، مثل : مروان بن جناح القرطبي وحبوج والمعاجم التي ألفوها للعبرية والعربية تمد امتدادا وتطبيقا لما هج البحث اللغوي عند العرب . وقد اهتم اليهود الأندلسيون بالتأليف الأدبي بالعبرية أيضا ، وهنا نلاحظ أن الشعر العبري الأندلسي انمكس واضح للشعر العربي . وكألف العرب في فن المقامة ألف الحريري^(١) بعض مقامات عبرية ، لقد ترجم الحريري وهو يهودي أندلسي مقامات الحريري ، والتزم في الترجمة بالجوانب البيانية والبديعية

(١) ولد يهودا ابن سليمان الحريري حوالي سنة ١١٦٥ ، وتوفي ١٢٣٥ ، عاش =

التي اتسمت بما المقامات في نصها العربي ، ثم حاول الحريزي بعد ذلك أن يوافق مقامات عبرية فألفها عما كياً المقامات العربية . فالتراث العربي الأندلسي هو تراث باللغة العبرية ألفه اليهود في إطار الثقافة العربية الإسلامية .

أما العبرية الحديثة التي يطلق عليها Eivrit ، فهي اللغة الرسمية الأولى في إسرائيل . وتعد العبرية الحديثة محاولة من اليهود الأوربيين لبحث لغة سامية إلى الحياة المعاصرة^(١) . فاليهود الأوربيون هم أصحاب المسكاة الأولى في إسرائيل ، لأنهم أرق حضارياً واجتماعياً ، ولأنهم هم أصحاب الفكرة الصهيونية التي تقوم عليها الدولة . وقد كان لهؤلاء الأوربيين أثر بعيد في تكوين الإطار اللغوي الجديد للعبرية ، فن الناحية الصوتية تأثرت العبرية الحديثة باللغات الأوربية ، فحذف النطق بأصوات الحلق وأصوات الاطباق لأنها غير موجودة في اللغات

== في الأندلس ونفى فترة من حياته مترجماً في البروفانس (وتقع الآن في فرنسا) .

وحول الترجمات العبرية والأدب العبري في العصور الوسطى ، انظر :

M, Steinschneider, Die hebräischen Übersetzungen des Mittelalters und die Juden als Dolmetscher, Berlin 1893.

وانظر كذلك : محمد حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم القاهرة ١٩٧١ ، ص

٩٨ - ١٠١ .

(١) انظر حول العبرية الحديثة :

Haim Blanc, The Israeli konié as an emergent National Standard, in :

Language problems of developing Nations. (ed.) J.A. Fishman, New York 1968, pp. 237-251.

وانظر حول الأدب العبري الحديث :

Pnina Nave, Die neue hebräische Literatur Bern 1962.

الأوربية ، ولم تعد الصاد تنطق مثل الصاد العربية ، بل تأثرت بنطق صوت *z* في الألمانية . ويرجع هذا التأثير الألماني إلى أن لغة اليبديش — التي كان كل يهود وسط وشرق أوروبا يتعاملون بها قبل إحياء اللغة العبرية — هي عبارة عن لهجة ألمانية ، وقد أصبح العارفون بلغة اليبديش أصحاب مكانة في الدولة الصهيونية ، ولكنهم رفضوا جعل لغة اليبديش اللغة الرسمية ، لأن انتماءهم إلى العبرية يربطهم بتاريخهم القديم ولا يفصلهم عاطفيا عن يهود المشرق . وقد دخلت إلى العبرية الحديثة ألفاظ كثيرة من اللغات الأوربية ، ولعل مقارنة بين الالفاظ الأوربية والكثيرة الدخيلة في العبرية الحديثة مع محاولات التعريب في العالم العربي توضح اختلاف النسبة ، فالعبرية الحديثة زاخرة بألفاظ أوربية خصوصا في المجال العلمي . والتأثير الأوربي في العبرية الحديثة لا يقتصر على الأصوات والمفردات ، ولكنه يتضح أيضا في كثير من التراكيب والتعبيرات الأوربية التي نقلت نقلا حرفيا إلى العبرية . وهذا شيء طبيعي بالنسبة للعبرية الحديثة ، فهي تدور بمناصر مأخوذة من العبرية القديمة مع كثير من الإضافات داخل الإطار الفكري الأوربي .

٣ - الفرع الآرامي

يضم الفرع الآرامي من اللغات السامية مجموعة من اللهجات المتقاربة في بنيتها اللغوية تقاربا كبيرا ، وانتشرت هذه اللهجات المختلفة في منطقة الشام والعراق ، وتجاوزتها في بعض المراحل التاريخية عندما استخدمت الآرامية كأداة تعامل دولي في الشرق القديم^(١) . ليست هناك لغة آرامية بالمعنى المتعارف عليه لكلمة لغة في

(١) انظر الفصل القيم الذي كتبه بروكلمان :

C. Brockelmann, Das aramäische, einschliesslich des Syrischen, in: Handbuch der Orientalistik, Band III, Leiden 1954, s. 135-162.

وأفضل مدخل لدراسة اللهجات الآرامية المختلفة :

F. Rosenthal, Aramaic handbook. Wiesbaden 1967.

الاستخدام العام للكلمة ، بل هناك لهجات آرامية متقاربة . لقد ذكر الآراميون في التاريخ في النقوش الآشورية في الألف الثالث قبل الميلاد^(١) . وهذه حال كثير من الشعوب القديمة عندما يراد لها لأول مرة عند جيرانهم الاكثر حضارة . ولكن الآرامية لم تدون - وفق معلوماتنا المعاصرة - إلا بعد ذلك بوقت طويل ، فأقدم النقوش الآرامية ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد . ومرت الآرامية بعد ذلك بمراحل تاريخية متعاقبة . ارتبطت الآرامية في بعض مراحلها التاريخية بامبراطوريات الشرق القديم ، ثم كانت إحدى لهجاتها أداة التبشير المسيحي ووسيلة لنقل معارف اليونان إلى الحضارة الإسلامية ، فالسريانية إحدى اللهجات الآرامية التي كان لها دور كبير في تاريخ الحضارة في الشرق وانحصر استخدام اللغة الآرامية مع الفتح الإسلامي ، ولكنها ما زالت تستخدم في عدة أشكال حديثة في عدد من القرى في شمالي العراق وإيران وسوريا . وهذا التاريخ الطويل يبلغ حوالي ثلاثة آلاف عام منذ أقدم النقوش الآرامية إلى اليوم ، وقد أطلقنا عدة تسميات عليية على اللهجات الآرامية المختلفة عبر التاريخ ، وأهم هذه اللهجات : الآرامية القديمة ، وآرامية الدولة ، والسريانية ، واللهجات الآرامية اليهودية ، والنبطية ، والمندعية واللهجات الآرامية الحديثة .

الآرامية القديمة :

يطلق على مجموعة النقوش القديمة المدونة بالآرامية مصطلح الآرامية القديمة^(٢) ،

(١) أنظر مقال : P.N. Schneider, Aram und Aramaer in der Ur III — Zeit, Biblica 30. 1649 .

(٢) أنظر بروكلمان في المرجع المذكور ١٣٧ .

وكتاب ديجن : Degen, Altaramäische Grammatik der Inschriften des 10-8 Jh. v. Chr. Wiesbaden 1969.

وترجع هذه النقوش إلى الفترة بين القرن العاشر قبل الميلاد والقرن الثامن قبل الميلاد . وقد وجدت هذه النقوش في مناطق مختلفة من الشام والعراق . وأهم ما بين الآرامية القديمة عن اللهجات الآرامية الأخرى ، أنها تستخدم القاف في كلمة «أرقاء» ومعناها «الأرض» ، بينما تأتي هذه الكلمة في اللهجات الآرامية الأخرى «أرعاء» . ومعنى هذا أن الضاد العربية ، وهي الامتداد المباشر للضاد في اللغة السامية الأولى ، قد تحولت في الآرامية القديمة إلى قاف ، وفي اللهجات الآرامية الأخرى إلى عين ، وهذا التحول من أصعب التحولات الصوتية تفسيراً .

آرامية الدولة :

المقصود بها الآرامية المستخدمة في النقوش الكثيرة التي دونت في القرون من السابع إلى الخامس قبل الميلاد . وقد سميت آرامية هذه النقوش باسم آرامية الدولة لأن دولة الفرس الأخمينيين اعترفت بالآرامية لغة رسمية في الدولة ، فالدولة المقصودة هي دولة الفرس الأخمينيين^(١) . كانت اللغة الآرامية قد استخدمت قبل

(١) ترجع هذه التسمية إلى الباحث I. Markwart

انظر المرجع السابق من بروكلان ص ١٣٩ - ١٤٠ وحول الأهمية الدولية للآرامية في تلك الفترة ، انظر : F. Altheim und R. Stiel, *Aramäisch als Weltsprache*, I. Berlin 1964, s. 181-203.

وانظر المواضيع الكثيرة في البحث المذكور ، وكذلك :

A. Cowley. *Aramaic Papyri of the Fifth Century B.C.* 1923. Bauer-Missner, in : *Sitzungsberichte der Preussischen Akademie*, 1937. S. 412 f.

G.R. Driver, *Aramaic Documents of the Fifth Century*. Oxford 1957.

Th. Nöldeke, in : *Zeitschrift für Assyriologie*, 7, 350 f.

ذلك في الدولة الآشورية على نطاق واسع ، فقد لاحظ الباحثون في كثير من العقود المدونة على نقوش من أواخر عهد الدولة الآشورية استخدام الآرامية والآرامية جنباً إلى جنب . وعندما سقطت الدولة الآشورية سنة ٦٢٥ ق م ودخل العراق في إطار الامبراطورية الفارسية دعم الحكام الفرس مكانة الآرامية واعترفوا بها لغة رسمية في كل أنحاء الدولة ، وبهذا دخلت الآرامية إيران أيضاً ، ودخلت مع النفوذ الفارسي إلى كل أنحاء الشرق القديم . وتعد الآرامية في الفترة التي تبدأ في القرن السابع قبل الميلاد لغة دولية لأنها كانت مستخدمة في منطقة واسعة من العالم القديم في التعامل التجاري والسياسي بين أبنائها وغير أبنائها . تشهد بذلك النقوش الكثيرة التي وجدت في إيران والعراق والشام وشمال الجزيرة العربية ومنطقة أسوان في مصر . ووجدت في آسيا الصغرى نقوش ثنائية اللغة ، بعضها آرامي يوناني وبعضها آرامي ليدى . وهكذا كانت الآرامية اللغة الوحيدة التي تجاوزت استخدامها في هذه الفترة التعامل المحلي المحدود وأصبحت تستخدم عند كثيرين عن ينتمون إلى بيئات لغوية مختلفة ، وإذا كان سفر إستير قد ذكر أن أوامر الملك الفارسي كانت تمشي من إيران إلى الهند وإلى الحبشة ، فلا شك أن هذه الأوامر كانت تصل إلى هذه المناطق بالآرامية . وأدى انتشار الآرامية في إيران والمناطق المجاورة لها إلى أن كان رجال الدين البوذي يستخدمونها في مواضعهم الدينية في منطقة الحدود الإيرانية الهندية . وتشير النقوش الكثيرة التي وصلت إلينا من القرون السابع والسادس والخامس والرابع قبل الميلاد من إيران والعراق وآسيا الصغرى والشام ومصر إلى أن اللغة الآرامية أصبحت في هذه الفترة لغة التعامل الدولي في الشرق القديم ، بالإضافة إلى كونها لغة الإدارة في دولة الفرس الأخمينيين . ولكن مكانة اللغة الآرامية أخذت تقل شيئاً فشيئاً ، وعندما انتهت الدولة الأخمينية وأعلنت الدولة الساسانية في مطلع القرن الرابع قبل الميلاد عدل الساسانيون عن استخدام الآرامية في الإدارة ، وبذلك انتهت آرامية الدولة :

ولكن التعامل اليومي باللغات الآرامية ، أو بمعنى آخر باللهجات الآرامية المختلفة ظل يسود الحياة اللغوية في الشام والعراق عدة قرون بعد هذا التاريخ . لقد قلت مكانة اللغة الآرامية في العراق مع انتشار اللغة الآرامية قبيل سقوط الدولة الآشورية . وقل استخدام اللهجات السكتمانية المختلفة في منطقة الشام مع انتشار الآرامية . لقد ظلت الآرامية إلى جوار العبرية والفينيقية واللهجات السكتمانية المختلفة عدة قرون . ولكن استخدام اللهجات السكتمانية قل شيئاً فشيئاً إلى أن حلت الآرامية محل كل لهجة سكتمانية بادت . وما نكاد نصل إلى فترة انحسار الآرامية عن الاستخدام الدولى حتى نجد اللهجات الآرامية قد أصبحت وحدها في العراق والشام . وهنا نجد عدة لهجات آرامية تختلف باختلاف المكان ، فهناك لهجات شرقية وأخرى غربية . وتختلف باختلاف الطائفة الدينية فهناك لهجات لليهود وأخرى للوثنيين والماندعيين . ثم تأتي بعد ذلك السريانية ، وتحول مع انتشار المسيحية إلى لغة من أهم لغات الشرق المسيحي في القرون التالية .

السريانية :

السريانية لهجة آرامية ارتبطت بالمسيحية ، ولذا يجب أنباؤها تمييزها عن اللهجات الآرامية الأخرى . وقد انتشرت السريانية بعد أن كانت في منطقة محدودة في شمال الشام لتصبح لغة جماعة كبيرة في شمال العراق والشام . وتكون السريانية مع لغة التلود البابلي والماندعية بمجموعة آرامية واحدة يطلق عليها المجموعة الشرقية ، فهذه اللهجات الثلاث تتفق في عدد كبير من الخصائص اللغوية ، وهي متقاربة كل التقارب من ناحية البنية اللغوية . ومن الطبيعي أن تتأثر آرامية التلود البابلي بالعبرية ، وأن تأخذ مندعية الصابئة اتجاهها خاصاً بها ، وأن تتأثر السريانية المسيحية بالثقافة السائدة في منطقة الشام وبالأفكار المسيحية .

وقد ازدهرت السريانية مع انتشار المسيحية شيئاً فشيئاً ، ووصل التأليف

بالسريانية والترجمة إليها مع بداية القرن الثالث الميلادي إلى مستوى رفيع .
وقد ازدهرت حركة التأليف بالسريانية في القرن الخامس الميلادي — أى في منتصف
فترة الازدهار — إلى سريانية شرقية وسريانية غربية^(١) . إن السريانية عموماً
هى إحدى لهجات المجموعة الشرقية من الآرامية . ولذا ينبغي ألا يختلط انتهاء
السريانية إلى الآرامية الشرقية بانقسام السريانية ابتداء من القرن الخامس الميلادي
إلى سريانية شرقية وسريانية غربية . لقد حدثت اختلافات عميقة في إطار
المسيحية السريانية أدت إلى انشطارها إلى فرقتين : النساطرة واليعاقبة . والنساطرة
هم السريان الشرقيون الذين كانوا خاضعين آنذاك للدولة الفارسية . أما اليعاقبة فهم

(١) حول اللغة السريانية وآدابها ، انظر :

C. Brockelmann, *Syrische Grammatik*. Leipzig 1952.

ويضم هذا الكتاب القيم نمواً علياً واضحاً للغة السريانية وقائمة ببلوغرافية
بالتراث السرياني والدراسات المؤلفة عنه ونصوصاً سريانية مختارة ودليلاً بالمفردات
الواردة في الكتاب . وما يزال أفضل كتاب في تاريخ التراث السرياني كتاب
باومستارك :

A. Baumstark, *Geschichte der syrischen Literatur mit
Ausschluss der christ. lich. palästinensischen Texte*.
Bonn 1922.

والمعجم الذى يعتمد عليه في السريانية عند الباحثين المعاصرين هو المعجم الذى
أعدته بروكلمان للسريانية واللاتينية بعنوان :
Lexicon Syriacum. Halle 1928.

ويمكن أيضاً لغير العارفين باللاتينية الاستفادة من معجم Smith :

I. Payne Smith, *A compendious Syriac dictionary*. Oxford 1903, 1967.

وقد ظهر بالعربية كتابان بعنوان : تاريخ الأدب السرياني الأول للأب السمعاني

(القدس ١٩٣٣ — ٣٦) والثاني لمحمد حمدي البكري بالقاهرة .

السريان الغربيون الحاضرون آنذاك لحكم الرومان . وقد أدى انقسام الكنيسة إلى انقسام السريانية إلى لهجاتها الشرقية والغربية . وقد أدى هذا الانقسام أيضا إلى تطور الخط السرياني ، وهو خط أمجدى ، في اتجاهين .

وترجع الأهمية التاريخية للسريانية إلى أنها كانت المعبر الذي انتقلت عليه الثقافة اليونانية إلى الحضارة العربية الإسلامية . فبعد غزو الاسكندر لمصر والشام في القرن الرابع قبل الميلاد بدأت هذه المناطق تدخل شيئا فشيئا في إطار الثقافة اليونانية . وهنا تحدث صحوة للتراث الهيليني تميزه بالروح الشرقية فتبدأ مرحلة جديدة للحضارة يطلق عليها الحضارة الهيلينستية . فالحضارة الهيلينية هي حضارة اليونان في جنوب أوروبا في عصرها المبكر ، والحضارة الهيلينستية هي حضارة اللغة اليونانية في مصر والهلل الخصب بعد فتح الاسكندر وقبل الفتح الإسلامي . نقل السريان كتباً كثيرة من التراث اليوناني وشروحها الهيلينستية من اليونانية إلى السريانية ، وكان السريان أيضا نقله هذا التراث إلى اللغة العربية في عصر الحضارة الإسلامية ، ولذا تعدد الترجمات السريانية ذات أهمية في نقل تراث اليونان إلى العربية (١) .

وعقب ظهور الإسلام وقيام الدولة العربية الإسلامية التي ضمت أيضاً الشام والعراق بدأت السريانية والهجات الآرامية الأخرى تفقد قيمتها في التعامل اليومي .

(١) أهم الدراسات في هذا الموضوع :

O'Leary, How Greek Science passed the Arabs.

وقد ترجم الكتاب مرتين إلى اللغة العربية :

— علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب ، ترجمة وهيب كامل ، القاهرة ١٩٦٢

— مسائل الثقافة الأخرى إلى العرب ، القاهرة ١٩٥٧

Brockelmann, S. iysche

ولكن حركة التأليف بالسريانية استمرت في العصر الإسلامي على الرغم من التناقص المتطرد لعدد المتحدثين بالسريانية وبقاى اللغات الآرامية . وكانت هذه المؤلفات السريانية المدونة في العصر الإسلامي انعكاساً لتراث اليونان والسريان من جانب والتراث العربى الإسلامى من الجانب الآخر . ومن أهم المؤلفين السريان الذين عاشوا في عصر الحضارة الإسلامية وتمثلوا جوانب كثيرة من علوم القدماء والعلوم العربية أبو الفرج بن العبرى (المتوفى ١٢٨٦ م) . وقد ألف ابن العبرى كتباً كثيرة . بعضها بالعربية وبعضها بالسريانية . وفي كتب ابن العبرى تلتقى معرفته بتراث اليونان والتراث السريانى المسيحى والتراث العربى الإسلامى ، لتكون الروافد الأساسية لسكتبه في فروع المعرفة المختلفة : التاريخ والطب وعلوم اللغة (١) .

وهناك جوانب اتصال كثيرة بين السريانية والعربية في اللغة والحضارة ، فقد انتقلت كلمات كثيرة من السريانية إلى العربية ، وبعض هذه الكلمات ليس أصيلاً في السريانية . فأكثر الكلمات اليونانية التي دخلت إلى العربية مثل كلمة فيلسوف انتقلت إليها عن طريق السريانية ، وخصوصاً المصطلحات الفلسفية والطبية . أما اللقاء الحضارى بين التراث السريانى والتراث العربى فله جوانب كثيرة ، فهناك عدد كبير من القصص الشعبية نجدها في نصوص سريانية ثم عربية ، أشهرها قصة أهل الكهف ، قصة السندباد ، كليلة ودمنة ، لقمان الحكيم ، قصة الإسكندر ذى القرنين ، قصة القديسين وكرامتهم . وبعض هذه القصص ليس أصيلاً في التراث السريانى بل ترجم إلى السريانية . ومن الأهمية بمكان مقارنة

(١) أنظر قائمة مؤلفات ابن العبرى في :

Brockelmann, Syrische Grammatik, Leipzig 1955, s. 173-175 .

المصياغة العربية لهذه الألفاظ (١٠).

اللهجات الآرامية اليهودية :

هناك عدد من اللهجات الآرامية ارتبطت بكتيب اليهود المقدسة وبالجماعات اليهودية التي عاشت في فلسطين والعراق في فترة ازدهار الآرامية ، وما تزال هناك أفليات لغوية يهودية في شمال إيران تتعامل في الحياة اليومية باللهجات آرامية حديثة. لقد استخدمت الآرامية في بعض أسفار العهد القديم ، وفيه سفران بالآرامية هما سفر عزرا وسفر دانيال . وهذان السفران جزيرة لغوية آرامية في محيط عبري (١١).

(١) حول الأدب الشعبي السرياني ، انظر :

F. Nau, Histoire et sagesse d'Abikar l'Assyrien. Paris 1909.

G. Hunnius. Das syr. Alexanderlied, Diss, Göttingen 1904.

G. Bickell' Kalilag und Dammaq. Alte syr. Übersetzung. Leipzig

وقد كتب المقدمة التحليلية لهذا الكتاب بنق Th Boney استاذ الدراسات

الهندية وصاحب نظرية الاصل الهندي للقصة الشعبية . وتوضح هذه المقدمة

نظريته في ضوء كتاب كلية ودمنة ، وهناك دراسات كثيرة أخرى حول هذا

الموضوع :

Sindbad oder die sieben weisen Meister, syrisch und deutsch von
Fr. Bachtgen. Leipzig 1879

وقد اهتم بعض المسهرقين بدراسة المصادر السريانية للتاريخ الاسلامي ومن

هذه الأبحاث بحث نولدكه :

Th. Noldeke, Zur Geschichte der Araber im I. Jahrh. d.H.
aus syrischen Quellen; ZDMG 29, 76-98.

(٢) حول آرامية العهد القديم :

B. Bauer und P. leander, kurzgefasst biblisch-aramäische

Grammatik. Halle 1929-1969

وعندما قلت معرفة اليهود بالعبرية وأصبح أكثرهم لا يستطيع قراءة نصوصها فضلاً عن التحدث بها ، نجمت ضرورة ترجمة أجزاء من العهد القديم إلى اللهجات الآرامية المحلية التي كان اليهود يفهمونها آنذاك . وبدأت هذه الترجمات الآرامية في صورة نقل شفوي ، فكان رجل الدين يترجم النص العبري ترجمة شفوية إلى لهجة المستمعين الآرامية ، كان ثمة تخرج من تدوين هذه الترجمات حتى لا تكون منافساً للكتاب المقدس الأصلي . ولكن هذا الحرج قل بعض الوقت فدونت هذه الترجمات ، وبذلك ظهر الترجم البابل والترجوم الفلسطيني والترجوم السامري . ويمثل كل ترجم من هذه « الترجوم » ،^(١) لهجة آرامية متميزة ، فلهجة الترجوم

(١) حول الترجوم البابل ، انظر :

Targum Onkelos (ed. Abraham Berliner 1884.

وانظر أيضاً :

M. Ginsburger, Pseudo-Jonathan : Tonathan zum Pentateuch.
Berlin 1903.

وانظر حول اللهجات الآرامية في فلسطين عند اليهود :

G. Dalman, Grammatik des Jüdisch-Palästinischen Aramäisch,
2 Aufl. Leipzig 1904.

W. Stevenson, Grammar of Palestian Jewish Aramaic.
Oxford 1992.

وحول الترجوم ، انظر ما كتبه باومشتارك :

A. Baumstark Die aramäische und syrische Literatur, in :
Handbuch der Orientalistik, (ed spuler) Semistik 162-168.

أهم معاجم الترجوم والتلمود والمدراش :

G. Dalman, Aramäisch-neuhebraisches Wörterbuch. Frankfurt.
1901.

Jastrow, Dictionary of Targumim. the Talmud New York 1926.

البابلي قريبة في كثير من الخصائص من باقي اللهجات الآرامية الشرقية . ولكن الترجوم الفلستيني والترجوم السامري يمثلان مع غيرهما المجموعة الآرامية الغربية، ويلاحظ في كل هذه اللهجات أن اليهود كتبوها بالخط العبري ، وهذا شأنهم مع كل اللغات التي كانوا يستخدمونها في التعامل الداخلي فيما بينهم ، وقد أدى استخدام الخط العبري لكتابة هذه اللهجات الآرامية إلى دخول كلمات كثيرة من العبرية إلى هذه اللهجات الآرامية .

وقد كتب أحبار اليهود وربانيوهم في فلسطين والعراق نصوصاً أخرى باللهجات الآرامية ، ودخلت هذه النصوص في التلمودين البابلي والفلستيني . يتكون التلمود البابلي من النص العبري للمشنا مع الشروح الآرامية عليه . ويتكون التلمود الفلستيني أيضاً من المشنا العبرية والشروح الآرامية ، وثمة اختلاف بين اللهجة المستخدمة في الجمارا وهي الشرح الآرامي في كلا التلمودين . فكلهما يمثل لهجة مختلفة عن الأخرى وكلهما مكتوب بالخط العبري مثل الترجوميم .

النبطية :

النبطية لهجة آرامية كتبت بها النبط نقوشهم حتى أواخر القرن الثالث الميلادي، والنبط شعب عربي عاش في أقصى شمال الجزيرة العربية وجنوب بادية الشام^(١) . عاش النبط حياة رعوية وكان لهم في النشاط التجاري مكانة كبيرة . كانت لغتهم العربية آنذاك لغة محلية ، ولم يكن لها خط فكتب النبط كما كان يكتب جيرانهم . كانت الآرامية لغة التعامل في الفترة التي ازدهر فيها النبط، وكانوا يتعاملون بالآرامية

(١) حول النبط الآرامية عندهم ، انظر :

J, Cantineau, Le Nabatéen, I :Notions générales. Ecriture Grammaire, II : choix de Textes, Lexique. Pais 1930, 1932.

C. Brockelmann, Das aramäische, einschliesslich des Syrischen : Handbuch der Orientalistik III, s. 148.

مع غير العرب . وفرض عليهم نشاطهم التجارى التعامل بالآرامية لكي يفهمهم الآخرون . ولذا كان من السهل على النبط أن يكتبوا نقوشهم باللغة الآرامية التي اعتادوا عليها . تعلم النبط من جيرانهم الكتابة بالآرامية ، وبذلك كان النبط أول شعب عربي شمالي كتب . تظهر عروبة النبط من استخدامهم الفوى ، فهناك ألفاظ تأتي بمعانها العربية في نقوشهم مثل : آل (للدلالة على الانتماء العربى القبلى) ، ولد (بمعنى أبناء) ، آخر (بمعنى ذرية) ، وجر (بمعنى قبر صخرى) ، ضريح (بمعنى حجرة) - إحدى (بمعنى واحدة) ، غير (بمعناها العربى الحالى) ، والأفعال هلك ، صنع ، لمن ، بمعانها فى العربية . وبالإضافة إلى هذا ، فقد أفاد النبط من أداة التعريف العربية د الـ ، وتظهر فى نقوشهم ، بينما لا تستخدم اللهجات الآرامية الأخرى للتعريف إلا الفتحة الطويلة فى آخر الكلمة . وللنبط أهمية كبيرة فى تدوين العربية ، فقد كانوا أول شعب عربى كتب ، وهم معلمو سائر العرب كيف يكتبون فالخط العربى يقوم على الخط النبطى ، والخط النبطى يعود على نحو غير مباشر للخط الأجرى ، فالتطور الذى بدأ عند الأجرىين وصل عن طريق النبط إلى العرب .

المندعية :

المندعية هى لهجة آرامية شرقية ارتبطت بجماعة دينية عرفت باسم الصابئة^(١)

(١) تسمى عند بعض الباحثين العرب : المندائية أو المندية ، وهما تسميتان صحبعتان دون شك . غير أن الاسم القديم للكلمة قد وصل بالعين لانهزمة ، وبعد ذلك فقد المندعيون نطق العين فينطقون بهزمة بدلا منها .

وأهم دراسة لغوية عن اللهجة الآرامية للمندعيين :

Th. Nöldeké, Mandäische Grammatik, Halle 1875.

R. Macuch, Handbook of classical and modern Mandaic, Berlin 1975.

والمندعيين كتاب مقدس يطلقون عليه اسم «جزء»، أى الكنز. وقد جمعوا في هذا الكتاب ترانيمهم الدينية وآراءهم في الدين فأصبحوا بعد الفتح الإسلامى من أهل الكتاب، وبذلك أتاحت لهم في إطار الدولة الإسلامية حقوق أهل الكتاب. وما يزال المندعيون يتعاملون داخليا بلهجتهم الآرامية إلى اليوم، وهم يمشون في عدة قرى في جنوب العراق.

وهكذا ارتبطت اللهجات الآرامية تارة بالمسيحية، وأخرى باليهودية، وثالثة بالصابئة، ولكنها كانت في كل هذه الأحوال - وفي غيرها أيضا - في منطقة سادتها اللغة العربية بعد الفتح الإسلامى.

٤ - العربية الجنوبية :

تكون العربية الجنوبية والعربية الشمالية واللغات السامية في الحبشة الفرع الجنوبية من اللغات السامية. وهناك خصائص مشتركة لانجدها إلا في لغات الفرع الجنوبي من اللغات السامية منها ظاهرة جمع التكسير، فشكل الجموع في اللغة السامية الأخرى يمكن أن توصف بأنها من الجمع السالم. أما المجموعة الجنوبية فقد أفادت من الجمع السالم، وطورت أيضاً عدة أبذية لجموع التكسير^(١) وأول لغة من الفرع الجنوبي كان لها دور في التاريخ هى اللغة العربية الجنوبية القديمة التى عرفت قديماً باسم الحميرية. وقد اكتشفت النقوش العربية الجنوبية القديمة فى القرن التاسع عشر، وأمكن بعد فك رموز خطها المسند التعرف على مضمون هذه النقوش وتحليل

== وحول المندعيين وعاداتهم ودينهم، انظر :

E. Drower, The Mandaeans of and Iran. Oxford 1937, 1962.

K. Rudolph, Mandaeism. Leiden 1937.

(١) انظر دراسات :

Murtonen, Early Semitic. Leiden 1967.

Murtonen, Broken Plurals. Leiden 1964.

خصائصها اللغوية^(١). ترجع النقوش العربية الجنوبية القديمة إلى فترة امتدت أكثر من ألف عام ، فأقدم هذه النقوش من القرن الخامس قبل الميلاد ، ويؤرخه البعض بالقرن الثامن قبل الميلاد . أما آخر هذه النقوش فيرجع باتفاق الباحثين إلى الربع الثالث من القرن السادس الميلادي^(٢) . ومعنى هذا أن النقوش العربية الجنوبية القديمة ترجع إلى أكثر من عشرة قرون ، وعندما قلت النقوش الجنوبية في أواخر القرن السادس الميلادي كانت العربية الشمالية قد بدأت تنتشر في المنطقة اللغوية الجنوبية .

وقد وجدت النقوش العربية الجنوبية في النصف الجنوبي من الجزيرة العربية ، فقد كانت المنطقة اللغوية العربية الجنوبية تضم الأقاليم الحالية لدولتي اليمن والقسم

(١) حول الأبحاث التي أجريت وما ينبغي القيام به في الدراسات العربية الجنوبية ، انظر التقرير ، الذي كتبه ماريما هوفنر :

M. Hofner, Stand und Aufgaben der süd-arabischen Forschung, in , Beiträge zur Arabistik, Semiotik, Hartmann 1944, s. 42ff .

والفصل الذي كتبه ماريما هوفنر أيضا بعنوان :

Das Arabische der Inschriften und der lebenden Mundarten, in : Hand buch der Orientalistik III, 314341.

وقد اهتمت جامعه القاهرة منذ إنشائها (باسم الجامعة) بدراسة النقوش العربية الجنوبية وطبع بجامعة القاهرة كتاب للمستشرق جويدي ، الموجز في علم اللغة العربية الجنوبية (١٩٢٠) ، وقد نشر خليل يحيى نامى عددا من النقوش العربية الجنوبية القديمة .

(٢) حول التوزيع الجغرافي والتاريخ للنقوش للعربية الجنوبية انظر :

A.F.L. Beeston, A Descriptive Grammar of Epigraphic South Arabic. London 1962.

الجنوبي من المملكة السعودية . وهناك عدد من النقوش الجنوبية خارج هذه المنطقة فقد أقام عدد من عرب الجنوب محطات تجارية في شمال عرب الجزيرة العربية ، مثل ديدان التي توجد في مكانها اليوم مدينة العلا . وقد وجدت في الملا عدة نقوش كتبها عرب الجنوب بأنفسهم . وفضلا عن هذا فقد ترك بعض الرحالة والتجار اليمنيين نقوشا دونوها في خارج الجزيرة العربية ، فقد وجدت عدة نقوش في صعيد مصر مكتوبة بالعربية الجنوبية ، كما وجد نقش في جزيرة ديلوس . وقد انتشر عرب الجنوب أيضا في شرق أفريقيا ، فأقدم النقوش التي وجدت في الحبشة ليست مدونة بإحدى اللغات المنسوبة إلى الحبشة ، بل هي بالعربية الجنوبية القديمة .

كتب النقوش العربية الجنوبية القديمة بخط أيهدي يتكون من تسعة وعشرين رمزا . ويقوم الخط المسند على أساس تدوين الصوامت فقط ، فهو خط لا يدون الحركات ، لذا نفل معرفتنا بطبيعة الحركات في اللغة العربية الجنوبية القديمة مجرد افتراض ، يقوم على القياس مع أقرب لغتين إلى العربية الجنوبية ، وهما العربية الشمالية ولغة اليمن الحبشية . وهناك نقوش كتبت بعناية Inscriptions وأخرى دونها أفراد بسطاء بخط أقل وضوحا ويطلق عليها الجرافيتي Graffiti .

وأهم اللهجات العربية الجنوبية القديمة : السبئية والمعينية والقتبانة والحضرية والهرمية . وأكثر النقوش التي وجدت تمثل اللهجة السبئية ، وهي نقوش كتبت في حوالي ألف عام ، ولذا فالمعرفة باللهجة السبئية تفوق المعرفة بباقي اللهجات العربية الجنوبية القديمة . ومن السمات الأساسية في اللهجة السبئية استخدام الهاء في تكوين عدد من الصيغ الصرفية ، فوزن التعدي في العربية الشمالية أفعال يقابلة في السبئية وزن هفعل ، ولذا يعد الفعل أراق بوزن أفعال أصيلا في العربية الشمالية بينما يعد الفعل هراق دخيلا من العربية الجنوبية إلى العربية الشمالية .

أما اللهجة المعينية فقد وجدت نقوشها في منطقة معين قرناو ، وبراقش في اليمن ، كما وجدت أيضا في المستمرة المعينية في ديدان في شمال غرب الجزيرة العربية . ويبدو أن اللهجة المعينية أم تميم طويلا ، فكل نقوشها ترجع إلى الفترة السابقة على الميلاد

بينما ظلت اللهجة السبئية عدة قرون بعد هذا التاريخ ، والسمة الفارقة بين بنيتة المعينية هي استخدام الهاء في السبئية واستخدام السين في المعينية ، فوزن أفعل في العربية الشمالية يقابلة وزن هفعل في السبئية ويقابلة وزن سفعل في المعينية .

أما اللهجات الأخرى وهي القتبانية والحضرية والمهرمية فيبدو أنها كانت أقل انتشاراً . وتنسب اللهجة القتبانية إلى مملكة قتيان في وادي بيحان وحريب ، وتنسب اللهجة الحضرية إلى حضرموت ، وقد وجدت أكثر نقوشها في منطقة شبوة ووادي حضرموت وساحل حضرموت . وقد عمرت اللهجة الحضرية أكثر من اللهجة القتبانية ، فأخر النقوش القتبانية يرجع إلى القرن تقديراً . وكلا اللهجتين تشبهان اللهجة المعينية من ناحية استخدام السين ، ولكلتهما تختلفان عنها من جوانب أخرى .

وأقل اللهجات العربية الجنوبية شأناً هي اللهجة الهرمية المنسوبة إلى منطقة هرم في غرب معين قرناو . وأهم خصائص هذه اللهجة المحدودة الانتشار قديماً استخدام حرف الجر ومن ، على نحو استخدامه في العربية الشمالية ، وبذلك خالفت اللهجة الهرمية باقي اللهجات العربية الجنوبية لأنها تستخدم بدلاً من هذا الحرف كلمة «بن» . وهذا التقسيم يقوم في المقام الأول على الخصائص اللغوية لاعلى التوزيع المكاني ، ففي كل المواضع التي وجدت فيها نقوش عربية جنوبية قديمة تنوعت اللهجات ، فليست كل النقوش الموجودة في مقطعة هرم مكتوبة باللهجة الهرمية بل هي أيضاً بالسبئية والمعينية .

وبعد انهيار سد مأرب هاجرت قبائل عربية جنوبية إلى الشمال ولم تكن القبائل المهاجرة في وضع اقتصادي طيب . ولذا تعربت بعربية الشمال ، ولم يبق لها من الاصل القديم إلا الذكرى والنسب ، حتى أن شعراء هذه القبائل قبل الإسلام مثل امرئ القيس نظموا شعرهم بالعربية الشمالية . يضاف إلى هذا أن ظهور الإسلام قد ساعد على انتشار العربية الشمالية في اليمن فتمزج جنوب الجزيرة العربية شيئاً فشيئاً .

ولكن هذا التعريب لم يشمل إلى اليوم كل مناطق اليمن . فهناك مجموعة لغات عربية جنوبية معاصرة في جنوب الجزيرة العربية والجزر القريبة من الساحل الحضرمي . وأهم هذه اللغات : اللغة المهرية وهي لغة حوالي ثلاث مليون مواطن في جمهورية اليمن الديمقراطية في المحافظة السادسة التي تقع على الحدود مع عمان والربع الخالي . ويعيش بعض المتحدثين بالمهرية في جاليات صغيرة في دول الخليج العربي . أما السقطرية فهي لغة جزيرة سقطرة . وفي كل هذه المناطق التي يتم فيها التعامل الداخلي بلغات المهرة المذكورة يعرف الرجال اللغة العربية بقدر تعاملهم مع جيرانهم بها (١) .

٥ - اللغات السامية في الحبشة :

ليست كل اللغات القديمة والحديثة في منطقة الحبشة من أسرة اللغات السامية ، فقد عرفت المنطقة قديما لغات كثيرة أخرى وما تزال الحبشة تضم لغات غير سامية مثل لغة ساهو ولغة الجالا . والمقصود هنا باللغات السامية في الحبشة تلك اللغات التي نشأت عن العربية الجنوبية القديمة . لقد دخلت اللغات السامية إلى الحبشة عن طريق هجرة بعض القبائل من جنوب الجزيرة العربية ، ويبدو أن هذه الهجرة تمت حوالي القرن السابع قبل الميلاد ، فهناك نقش عربي جنوبي من هذا التاريخ

(١) إهتم الباحث النمساوي بينر Bittner بدراسة المهرية . أنظر دراساته :

stud-zur Laut- und Formehre des Mehri I.V, sitzungsberichte kaiser. lichen Akademie der wisschaften in Wien.

وقد نشرت هذه الدراسات بين ١٩٠٩ ، ١٩١٥ وبخصوص الدراسات المختلفة

والنصوص المسجلة من اللغات العربية الجنوبية الحديثة :

W. Leslau, Modern South Arabic Languages. A Bibliography.
New York 1946 .

ويقوم الآن مؤلف هذا الكتاب بدراسة ميدانية عن المهرية .

وجد في منطقة أريتريا التي يسيطر عليها الاحباش . وعرف الباحثون أسماء بعض القبائل التي هاجرت عابرة باب المنذب إلى أفريقيا ، ونقلت لغتها السامية إلى هذه المنطقة من القارة الافريقية ، وأهم هذه القبائل قبيلة حبشت وقبيلة الاجمازى . وقد سميت هذه المنطقة عندنا باسم الحبشية نسبة إلى القبيلة الاولى ، بينما سميت اللغة باسم الجعز نسبة إلى القبيلة الثانية . فأبناء هذه اللغة وسكان الحبشة يسعون لغتهم القديمة باسم الجعز . وهناك تسميتان أخريان أقل استخداما في مجال العلم . وهما تسمية هذه اللغة باسم الحبشية والاثيوبية . والتسمية الاولى شائعة في الكتب العربية ، أما الثانية فأخوذة من كلمة أثيوبيا التي وصفت بها منطقة البحر الاحمر جنوب مصر في كتب الرحالة الاوربيين القدماء . وقد جاءت كلمة أثيوبيا في الكتاب المقدس فأحبها الاحباش مع تحولهم إلى المسيحية ، فأطلقوها على دولتهم باعتبارها تسمية مقدسة (١) .

(١) حول توزيع اللغات السامية في الحبشة ، انظر :

E.Ullendorff, The semitic Languages of Ethiopia. Oxford 1957.
-The Ethiopians. an introduction to country and people.
375. London 1690.

وقد كتب أوليندورف الفصل السادس من كتابه الاخير عن اللغات في الحبشة

ص ١١٧ - ١٢٥ .

وانظر كذلك الفصل الخاص بالحبشة :

E.Littmann. Aethiopisch, in: Handbuch der Orientalistik III 250.
New York 1046.

والبيبلوجرافيا التي أعدها ليسلاو عن الحبشية :

W.Leslau, Bibliography of the semitic Languages of Ethiopia.
New York 1946.

وأهم أدوات البحث في نحو لغة الجعز ومفرداتها :

A. Dillmann, Grammatik der äthiopschen sprache Leipzig
1899, Lexicon

Aethiopicum. Leipzig 1865.

M. Chaine. Grammaire éthiopienne, Beyrouth 1938.

(م ١٣ أسس علم اللغة)

١٩٣

و لغة الجمز هي أقدم لغة سامية في الحبشة ، ومن الصعب تتبع مراحل نشوء
 هذه اللغة أو بمعنى آخر تمييز هذه اللغة عن العربية الجنوبية القديمة . وهناك خلاف
 بين الباحثين في تصور الحياة اللغوية في الحبشة في القرون الأولى بعد الميلاد فضلاً
 عن القرون السابقة على ذلك . يرى البعض أن الحبشة عرفت تنوعاً لغوياً وأن لغة
 الجمز هي لغة إحدى القبائل التي سيطرت على منطقة الجنوب وأن لغات أخرى
 وجدت إلى جانبها ، ولكنها لم تدون إلا بعد ذلك بقرون طويلة . ويرى بعض
 الباحثين أن كل اللغات السامية في الحبشة ترجع إلى لغة واحدة هي لغة الجمز ،
 وأنها بذلك من أصل واحد لا أكثر . ومن الصعب الوصول في هذه القضية إلى
 رأى واحد مفصل لقلة المصادر ، فالأحباش لم يكتبوا إلا أقل من القليل . فقدمى
 أكثر من ألف عام على هجرة القبائل اليمنية إلى الحبشة قبل أن يكتب هؤلاء الذين
 أصبحوا أحباشاً لغتهم . فالنقوش الجمزية القليلة التي وصلت إلينا ترجع إلى الفترة
 بين القرن الرابع حتى القرن السابع للبلاد وفي بداية هذه الفترة تحول الأحباش
 إلى المسيحية وأطلقوا على بلدهم أسم أثيوبيا وأصبحوا تابعين للكنيسة القبطية
 المصرية . وبعد تحول الأحباش إلى المسيحية أم حدث في تاريخهم القديم ، فتراسم
 من الكتب الجمزية لا يكاد يتجاوز الاطار الديني المسيحي ، كان الكتاب المقدس
 أول كتاب ترجم إلى لغة الجمز : وإلى جانبه ترجمت في هذه الفترة المبكرة من
 تاريخ الأدب الجمزى عدة نصوص دينية قليلة العدد قليلة الأثر ، كما ترجم كتاب
 واحد يضم مجموعة من الأقاصيص الوثنية والمسيحية حول الحيوانات والنباتات
 وخصائصها . وأغلب الظن أن حركة الترجمة إلى لغة الجمز كانت جهد المبشرين
 الذين عرفوا الكتب الدينية في نصوصها السريانية أو اليونانية ونقلوها بعد ذلك
 إلى لغة الجمز . ومضت بعد هذه الفترة عدة قرون تمثل فراغاً في تاريخ اللغة
 الجمزية والأدب الجمزى . فبعد القرن السابع قل التدوين بلغة الجمز . ثم توقف
 الأحباش من الكتابة أربعة قرون كاملة لم يصل منها أى أثر مدون في نقش أو ورقة
 أو كتاب ، وكان الحياة قد توقفت عندهم . ولكن المعرفة بالخط الجمزى ظلت

متوارثة لأن رجال الدين كانوا يقرؤون ، ويعطون في الكنائس بلغة الجمز ،فظلوا
حفظة المعرفة بلغة الجمز المكتوبة وبالخط الجمزى وبذلك القدر المحدود من الكتب
الجمزية المترجمة وهكذا ارتبطت لغة الجمز بالكنيسة .

وأزدهرت لغة الجمز مرقة ثانية بعد طول سبات عندما تأسست الأسرة
السلجانية (١٩٧٠ م) ، فبدأت حركة التأليف بلغة الجمز . ولكن التراث الجمزى
ظل في هذه الفترة أيضا مرتبطا بالكنيسة ، كانت الكنيسة الأم بالقاهرة
قد تعربت ، وأصبح رجال الدين الأقباط يؤلفون بالعربية فترجمت كتب قبطية
عربية كثيرة إلى لغة الجمز . فالأثر المصرى واضح في كل كتب هذه الفترة المترجمة
أو المؤلفة . وتجاوزت هذه الكتب المجال الدينى إلى مجال واحد هو التاريخ ، فقد
دون الأقباش تاريخهم من وجهة نظرهم وتدعيا لشرعية وجود الأسرة السلجانية
الحاكمة . لم تكن لغة الجمز آنذاك لغة الحياة . ولكنها ظلت في الفترة من القرن
الثالث عشر إلى القرن السابع عشر لغة الكنيسة والثقافة الدينية والتسديون
التاريخى^{١١} . وظهرت في بداية هذه الفترة لغات أخرى يد يد بعضها أو تعد كلها
امتدادا للغة الجمز ، وأهم هذه اللغات : الأهمرية والتيجرينية والتجربة والمهرية

(١) ناقش الباحثون قضية النطق التقليدى للغة الجمز اعتمادا على طرق قراءتها
عند الأقباش المعاصرين وأهم هذه الأبحاث :

M Cohen, La prononciation traditionnelle du Cuéze (éthiopien
classique) . journal Asiatique 1621, s. 217—269

E-Mittwoch, Die traditionelle Aussprechedes Aethiopischen.
Berlin und Leipzig 1926.

وآخر هذه الدراسات ما كتبه أوليندروف :

E Ullendorff. The semitic languages in Ethiopia.●

اللغة الامهرية هي أكثر اللغات السامية انتشارا في الحبشة. وقد بدأ تدوين اللغة الامهرية في القرن الرابع عشر ، وهناك عدة أناشيد ملكية امهرية ترجع إلى نفس الفترة تقريبا . ولكن الامهرية ظلت ذات لون شمعي إلى أن حاول اليسوعيون تحويل مسيحيي الحبشة عن مذهبهم الديني إلى الكاثوليكية ، فترجم المبشرون الوافدون المهد الجديد إلى اللغة الامهرية ليفهمه الشعب الذي لم يكن يفهم الطقوس الجعزية في الكنيسة الارثوذكسية . ولكن هؤلاء المبشرين طردوا من الحبشة ، ولم يبدأ ازدهار اللغة الامهرية إلا في منتصف القرن التاسع عشر . واللغة الامهرية هي اللغة الرسمية في الحبشة ، ولذا يطلق عليها هناك « لسان التجاشي » . وتستخدم اللغة الامهرية عند أبنائها وعند غير أبنائها باعتبارها لغة تعامل رسمي في الدولة . ويقدر هذا العدد بما لا يقل عن ثلاثة ملايين وما لا يزيد عن خمسة ملايين . واللغة الامهرية الحالية هي لغة الصحف والكتب المدرسية في الحبشة . وقد حدثت تغيرات كثيرة في الامهرية جعلتها تختلف عن لغة الجعز وعن باقي اللغات السامية ، فلان توجد في الامهرية من أصوات الحلق إلا الهاء والهمزة . وقد دخلت في الآونة الاخيرة ألفاظ أوربية كثيرة إلى اللغة الامهرية بالإضافة إلى الألفاظ التي استعيرت من قبل من اللغات الافريقية المجاورة .

وهناك عدة لغات سامية أخرى في الحبشة منها اللغة التيجرينية التي تعد أقرب اللغات السامية في الحبشة من لغة الجعز القديمة . ويقدر عدد أبناء التيجرينية بحوالي مليون ونصف . وقد أعلنت اللغة التيجرينية لغة رسمية في دستور أريتريا الصادر سنة ١٩٥٢ ، أي قبل استيلاء دولة الحبشة على السلطة في أريتريا . وبعض أبناء التيجرينية مسيحيون . وبعضهم مسلمون . أما لغة التيجري فهي لغة حوالي ربع مليون في الحبشة وفي إقليم كسلا في السودان ، وأكثرهم من المسلمين ، وقد ارتبط مسلمو الحبشة وأريتريا على مر التاريخ بمصر باعتبارها مركز الثقافة الإسلامية . تعدد العربية في كل هذه المناطق الإسلامية لغة الثقافة ولغة التعامل بين القبائل ذات اللغات المختلفة . ومن اللغات السامية ذات الانتشار المحدود في الحبشة لغة جوارج ولغة جَفَتْ ولغة ارجبسا .

ويختلف الخط المستخدم في تدوين السامية في الحبشة عن كل الخطوط السامية المعاصرة له . فقد كتبت لغة الجمز بخط مقطعي يتكون من ١٨٢ رمزا تنظم على النحو التالي : لكل صوت صامت مع الحركة التالية رمز مستقل . وتضم الكتابة الجعزية رموزا لستة وعشرين صامتا يرتبط كل منها بإحدى الحركات التالية : فتحة قصيرة ، فتحة طويلة ، فتحة عمالة طويلة ، فتحة عمالة قصيرة (وهذا الرمز غامض الدلالة وقد يكون مجرد سكون) وضممة طويلة مثل صوت حرف O الاجنبي في اللغات الأوربية وضممة طويلة مثل صوت U في الألمانية وكسرة طويلة: أى أن الرمز الواحد يمثل في الخط الاثيوبي أحد الصوامت الستة والمشرين مع إحدى الحركات السبع . ولذا يعد الخط الحبشى من أكثر الخطوط السامية تمقيداً ، فهو مرحلة تختلف أعادت التقدم الذى أحدثه الاجريتيون مرحلة إلى الخلف . وقد أثبت تاريخ الحضارة في العالم كله أن صعوبة الخط معوق أمام انتشار المعرفة والعلم : واللغة السامية الوحيدة التى تسكتب في الحبشة بخط سهل هى اللغة الهررية فيكتبها أبناؤها ، وهم مسلمون ، بالخط العربى .

الفصل الحادى عشر

العربية فى ضوء اللغات السامية

ذلت لصوص الشعر الجاهلى عدة قرون أقدم لصوص عربية معروفة عند الباحثين . ولكن البحث الحديث فى القرن التاسع عشر أوضح بعد اكتشاف اللغة الأكادية وبحث اللغات السامية بالمنهج المقارن أن خصائص البنية اللغوية للعربية ولهجاتها القديمة يمكن أن تؤرخ فى ضوء علم اللغات السامية المقارن (١) . وبذلك أمكن عن طريق الدراسة المقارنة تأريخ كثير من الظواهر العربية فى مرحلة أسبق من الشعر الجاهلى بأكثر من ألفى عام ، فالظواهر المشتركة فى العربية والأكادية لا يمكن أن تكون إلا موروثه عن اللغة السامية الأولى التى خرجت عنها كل اللغات السامية . ولذا يبدأ البحث فى تأريخ العربية ببيان علاقة العربية باللغات السامية الأخرى وباللغة السامية الأولى . فى محاولة لتأريخ الجوانب الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية للغة العربية قبل تدوينها .

(١) حول المنهج المقارن وتناغمه فى اللغات فى اللغات السامية ومكاتب العربية

بين اللغات السامية :

Brockelmann, Grundriss.

Moscato, Introduction to the comparative Grammar of semitic Languages .

وبرجشتراسر : التطور النحوى للغة العربية . القاهرة ١٩٢٩

يوضع البحث المقارن في اللغات السامية عدداً من الحقائق الهامة حول تاريخ العربية من الجوانب الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية . وإذا كانت اللغة العربية أحدث لغة سامية دونها أبنائها ، فإن اللغات السامية الأخرى قد دونت قبل اللغة العربية بقرون طويلة . فالأكادية دونت حوالي سنة ٢٥٠٠ ق . م . والاجريقية كتبت حوالي سنة ١٤٠٠ ق . م . وتوضح المقارنات بين اللغات السامية المختلفة أن العربية احتفظت بمجموعة من الخصائص المعروفة في القدم والتي ترجع إلى اللغة السامية الأولى . فالخصائص المشتركة في كل اللغات السامية ، أو أكثرها هي الخصائص التي يفترض الباحثون أنها موروثه عن اللغة السامية الأولى التي خرجت عنها كل اللغات السامية .

تسكتب اللغات السامية بعدة خطوط ، ولكل خط منها خصائصه الشكلية وإمكاناته التعبيرية . فالخط المسامري الذي دونت به اللغة الأكادية يدون الكلمات مقسمة إلى مقاطع ، وبذلك احتفظ الخط الأكادي رغم صعوبته بتدوين الحركات مع الصوامت . ومن الجانب تفصح الكتابة وهذا الأكادية عن طبيعة الحركات سواء أكانت في وسط الكلام أم في آخره . وهناك لغات سامية قديمة لم يتح خطها التعرف على الحركات التي كانت بها ، فاللغة العربية الجنوبية القديمة واللغة الاجريقية واللغة الفينيقية دون كل منها بخط متميز من الناحية الشكلية ، فالخط العربي الجنوبي لا يشبه الخط الاجريقي والخط الفينيقى ، ولكن هذه الخطوط تشترك في سمة أساسية ، وهي أنها تدون للصوامت ولا تدون الحركات . وبهذا لا نكاد نتعرف على طبيعة الحركات في هذه اللغات إلا بالقياس على اللغات الأخرى القريبة من كل واحدة منها . أما اللغات السامية الحية وهي العربية والآرامية والعبرية واللغات السامية في الحبشة فنستطيع بشكل متفاوت التعرف من طريقة النطق المتوارث عند أبنائها على النطق القديم لهذه اللغات . وبدل وصف التحليل وسيبويه لنطق الأصوات العربية في القرن الثاني الهجرى على أن النطق الحالي المتوارث

للربية النصحي لا يكاد يختلف إلا من جوانب محدودة عن نطقها آنذاك . أما النطق المتوارث للعبرية عند اليهود الشرقيين والآرامية عند العارفين بالسريانية القديمة من مسيحي المراق والشام ولغة الجمز عند العارفين بها من أبناء الحبشة فينبغي أن يؤخذ بتحفظ شديد . فقد تغير نطق هذه اللغات لعوامل كثيرة أهمها أنها لم تعد اللغات الأساسية عند أية مجموعة بشرية منذ قرون . فاللغة العبرية تستخدم عند هؤلاء استخداماً محدوداً بالطقوس الدينية ، أما استخدامها في إطار الصهيونية فقد تأثر تأثراً حاسماً بنطاق الأوربيين للغة العبرية . وتحدث الأقليات الآرامية بلهجات تختلف كل واحدة منها عن اللهجات القديمة اختلافاً واضحاً . ولم يعد للغة الجمز أى استخدام في الحبشة منذ قرون ، وهى لغة الطقوس الدينية يقرؤها أبناء الامهرية متأثرين بالامهرية . وأبناء لغة التيجرى متأثرين بها وكذلك أبناء لغة التيجرينا . ولسكننا نستطيع رغم كل هذا التعرف بشكل تقريبي على النطق القديم للعبرية والآرامية ولغة الجمز ، وذلك لأن المخطوطات التى كتبت بها هذه اللغات تدون الحركات والصوامت .

وبمقارنة الكلمات الأساسية المشتركة في كل اللغات السامية^(٢) يستطيع الباحث أن يتبين مجموعة من السمات المشتركة المعروفة في القدم . فكل اللغات السامية لا تتمايز أو تختلف من ناحية أصوات الراء واللام والنون والتاء والذال . فالراء العربية يقابلها راء في الأكادية ، وراء في العبرية ، وراء في الآرامية ، وراء في الحبشية دون أدنى تغيير حقيقى . أما اختلاف نطق الصور الصوتية المختلفة للراء تارة بالتفخيم وأخرى دون تفخيم فيخرج عن إطار بحثنا لعدم إمكان التعرف عليها بالنسبة لأكثر اللغات السامية . وشيبه بهذا أمر اللام التى نجدتها في كل اللغات السامية لاما ، وكذلك النون والذال والباء والميم .

(١) انظر القائمة التى أعدها برجسترasser بالألفاظ المشتركة في اللغات السامية :

G. Bergstrasser, Einführung s. 182-192.

ولكن مجموعة من الاصوات المشتركة الثابتة في اللغات السامية كلها قد تعرضت لتغيرات محدودة في النظام الصوتي للعبرية والآرامية . فالباء تنطق مثل الباء العربية إذا كانت في أول الكلام ولكنها تنطق مثل حرف ν . الاجنبي في الإنجليزية لو كانت غير مشددة ومسبوقة بحركة . والكاف العربية في أول الكلام ، وتنطق خاء إذا كانت مشددة ومسبوقة بحركة . وتنطق التاء كما تنطق بهد أي حركة تاء الخ ويلاحظ أن كل هذه التحولات تعبر عن صور صوتية في إطار الواحدة وإذا نظرنا إلى هذه التغيرات التي تشترك فيها العبرية والآرامية لاحظنا أنها تعبر عن تطور داخلي في اللغتين وأن هذه الظاهرة التي لا تعرف في باقي اللغات السامية هي من الظواهر التي جددت في اللغتين . ومعنى هذا أنها غير موروثه عن اللغة السامية الام أما النطق العربي لهذه الاصوات فيعبر عن النطق الموروث عن اللغة السامية الام ، ومن هذا الجانب يعتبر النطق العربي لهذه الاصوات أقدم من الهجرات السامية .

وهناك مجموعة أصوات نجدها واضحة متميزة في كل أفرع اللغات السامية عدا الفرع الاكادي ، وهي مجموعة أصوات الحلق مثل العين والحاء . وهنا يمكن افتراض أحد أمرين ، فإما أن تكون هذه الافرع اللغوية قد عرفت أصوات الحلق في إطار التغير الذي طرأ على هذه اللغات ، وهذا فرض مستبعد ، وإما أن تكون الاكادية قد فقدت التمييز بين أصوات الحلق متأثرة في ذلك باللغة السومرية ، وهذا هو الرأي المرجح . ومعنى هذا أن أصوات الحلق كانت معروفة في اللغة السامية الام وعرفت أكثر اللغات السامية باعتبارها من الظواهر الموروثه عن اللغة الام . وبذلك نستطيع أن نفترض قدم أصوات الحلق في العربية ، وأنها كانت موجودة في اللغة السامية الام قبل أقدم الهجرات أي قبل عام ٢٥٠٠ ق م تقريبا . أي أن أصوات الحلق في العربية يزيد عمرها عن ٤٥ قرنا من الزمن وكذلك كل الخصائص التي نجدها في العربية وتنسبها إلى اللغة السامية الام .

ومن الممكن تطبيق هذا المنهج على باقي الظواهر اللغوية في المجالات الصوتية

والصرفية والنحوية والدلالية . فالظواهر التي تشترك فيها كل اللغات السامية ، أو التي تثبت المقارنات أنها كانت موجودة في اللغات السامية القديمة هي ظواهر ترجع إلى اللغة السامية الأم . وعلى العكس من هذا تكون الظواهر التي تختلف من لغة سامية لأخرى ، وذلك مثل ظاهرة أداة التعريف . فهي في العربية أل سابقة على الاسم ، وهي في العبرية الهاء تسبق الاسم ، وفي الآرامية فتحة طويلة تأتي بعد الاسم . واختلاف هذه الظاهرة من لغة سامية لأخرى معناه أنها غير مورثة عن اللغة السامية الأم ، وأن كل لغة طورت لنفسها أداة للتعريف فاختلقت بذلك أدوات التعريف في اللغات السامية المختلفة .

٢ - القوانين الصوتية:

قد ركز الباحثون جوانب الاختلاف المطرد بين الأصوات في اللغات السامية في شكل قوانين تسجل أوجه التقابل الصوتي^(١) . ويمكن استخراج قوانين التقابل الصوتي في اللغات السامية من مقارنة الألفاظ الأساسية المشتركة في هذه اللغات وذلك تجنباً للإطلاق من ألفاظ غير مشتركة ودخيلة . ونوضح فكرة القوانين الصوتية في ضوء عدد من أم هذه القوانين في اللغات السامية .

الناء العربية ومقابلتها في اللغات السامية :

تدل مقارنة مجموعة من الألفاظ الأساسية في اللغات السامية والتي جاء في صيغها العربية صوت الناء^(٢) أن الأكدية تعرف مكانها صوت الشين ، وأن العبرية تعرف في مكانها الشين أيضاً ، ولكن الآرامية تعرف الناء ، والحبشية تعرف السين في نفس المواضع . ويتضح هذا من الأمثلة التالية :

(١) انظر :

Brockelmann, Grundriss I, 125-136

Bergsträsser, Einführung s. 183.

(٢)

العربية	العربية الجنوبية والحبشية	الآرامية	العبرية	الأكادية
تسوم	somat	tuma	sum	somu
تسور	sor	tsura	sor	suru

وهنا نلاحظ اطراد بعض التغيرات ، فالثاء العربية تقابلها الشين في الأكادية والعبرية ، وتكتب الشين في الخط الصوقي بعلامة السين وفوقها علامة مميزة تكاد تكون بدلياً مرثياً عن نقط الشين العربية بشكل معكوس . وليس من الممكن تصور أن الشين هنا هي الصوت الاصل في اللغة السامية الام ، بل من الممكن تفسير كل الاصوات الموجودة هنا باعتبار أن الثاء تمثل الصيغة الاقدم ، وأن الشين والثاء والسين تمثل تطورات خاصة بكل لغة من هذه اللغات على حدة . ونكتفي هنا ببيان تحول الثاء التي افترضناها في اللغة السامية الام والموجودة في العربية إلى تاء في الآرامية . فهنا التغير عبارة عن تحول نطق الاصوات بين الاستثنائية مثل الثاء والذال إلى المقابلات الاستثنائية التاء والذال ، على نحو ما حدث في تغير العربية الفصحى إلى لهجات مصر والشام . والثاء العربية يقابلها في هذه اللهجات كما يقابلها في الآرامية صوت التاء ، نجد هذا واضحاً في الكلمات اثنين/ اثنين ، ثعلب/ تعاب ، في العربية وكذلك في اسم الاشارة : ذاده ، ذه/ ذى فالتغير الذي حدث لثاء السامية الاولى إلى تاء في الآرامية مواز للتغير الذي حدث بعد ذلك عندما تحولت التاء في العربية الفصحى إلى تاء في اللهجات العربية في مصر والشام . وفي هذا دليل على قدم الثاء العربية وأنها رغم اختلاف مقابلاتها في اللغات السامية الاخرى تعد امتداداً مباشراً لثاء في اللغة السامية الاولى أي قبل الهجرات السامية .

الضاد العربية ومقابلاتها في اللغات السامية :

وصفت العربية بأنها لغة الضاد وكان الضادلم تأت إلا في العربية . والوقم أن

الضاد من الاصوات التي تشترك فيها العربية الشمالية مع العربية الجنوبية القديمة ويقابلها في اللغات السامية الشمالية الصاد في العبرية والاكادية ، والعين في الآرامية . يتضح هذا من المثال التالي (١) .

العربية	العربية الجنوبية	الآرامية	العبرية	الاكادية
أرض	ord	or ca	ères	ersetu
		a ra		

وتعد الضاد هنا سمة من سمات العربية الشمالية والعربية الجنوبية . ويرى أكثر الباحثين أن الضاد تمثل الصوت الأقدم في هذه المجموعة ، ولكن هناك اختلافاً في معرفة كمية نطق تلك الضاد في اللغة السامية الأولى فضلاً عن نطقها العربي القديم الذي ما يزال موضوع خلاف بين الباحثين . وبعد التقابل بين الضاد العربية والعين الآرامية من الظواهر المؤكدة التي يصعب إيجاد تفسير صوتي لها .

وفي كل الأمثلة السابقة لاحظنا وجود ضمة الرفع في الصيغة الاكادية . ويعد الإعراب رفعاً ونصباً وجرّاً من السمات المشتركة للعربية والاكادية مما يشير إلى كونه موروثاً من اللغة السامية الأولى ، كما لوحظ في الأمثلة السابقة إنتهاء الصيغة الآرامية بفتحة طويلة كانت تدل على كون الكلمة مسرفة . وبغض النظر عن عدد من الاصوات التي تغيرت في اللغة العربية عنها في السامية الأولى ، فإن اصوات العربية تعد بصفة عامة إمتداداً مباشراً للاصوات التي افترض العلماء وجودها في اللغة السامية الأولى قبل الهجرات السامية .

٣ - اصوات عربية تختلف عن السامية الأولى :

تعد الاصوات العربية عموماً إمتداداً مباشراً للاصوات في السامية الأولى . وأغلب الظن أن بضعة اصوات في العربية قد اختلفت عنها في اللغة السامية

Bergsträsser, Einfuhrnog s. 185.

(١) انظر :

الأولى ، ومن هذه الاصوات العربية الفاء وبمجموعة أصوات السين والشين (١) .

الفاء العربية والباء المهموسة السامية :

يقابل الفاء فى العربية صوت آخر فى اللغات السامية الأخرى وهذا الصوت الآخر هو الباء المهموسة (P) ويوضح هذا التقابل من الجدول التالى لكلمة فم العربية وما يقابلها اشتقاقيا فى اللغات السامية الأخرى

العربية	الحبشية	الإرامية	العربية	الكادية
فـ (صـ)	of	(pamma)	po	pu

وهنا نلاحظ اتفاق اللغات السامية — عدا العربية — فى وجود صوت الباء المهموسة فى هذه الكلمة ، مما يرجح أن هذا الصوت كان موجودا على هذا النحو فى اللغة السامية الأولى . ومعنى هذا أن صوت الفاء العربية ليس إمتدادا مباشر للغة السامية بل هو ثمرة تغير صوتى فقد تحولت الباء المهموسة وهى صوت شفوى ينطق بالتقاء الشفتين تمام الالتقاء إلى صوت الفاء ، وهو صوت شفوى أسنانى ينطق بالتقاء الشفة السفلى والأسنان العليا ، أى أن الباء المهموسة والفاء لا تختلفان إلا من ناحية المخرج بدرجة ما ، فالشفة السفلى تشترك فى نطقها ، ولذا لم يكن من الصعب حدوث هذا التغير . فالفاء العربية إذن صوت نتج عن صوت الباء المهموسة فى اللغة السامية الأولى .

السين والشين العربيتان وأصولهما السامية :

وهناك فرق آخر بين الاصوات العربية والاصوات التى افترض الباحثون وجودها فى اللغة السامية الأولى ، ويتعلق هذا الفرق بمجموعة أصوات السين

Broekelmann, Grundriss I 136.

(١) انظر :

برجشتراسر : التطور النحوى للغة العربية ص ١٤ .

Bergstrasser, Einführung 184.

والشين . تضم هذه المجموعة في العربية صوتين فقط هما السين والشين ، ولسكنها تضم في لغات سامية أخرى مثل المهرية ثلاثة أصوات هما السين الجانبية والسين والشين ، وتضم الكتابة العبرية رمزا للسين ورمزا للشين ورمزا ثالثا لحرب الساخ مما يشير إلى وجود ثلاثة أصوات في هذه المجموعة في العبرية ، وقد أثبت البحث المقارن أن اللغة السامية الأولى كانت تضم ثلاثة أصوات تحولت في العربية إلى صوتين اثنين (١) لقد نشأت السين العربية عن صوتين اثنين أحدهما السين السامية الأولى والثاني الشين السامية الأولى . أما ذلك الصوت الثالث الذي افترض وجوده في اللغة السامية الأولى فقد ظل موجودا في المهرية ، وتحول في العربية والحبشية والأكادية إلى شين . ويتضح توزيع هذه الأصوات من الجدول التالي .

السامية	العربية	العربية	الحبشية	الأرامية	العبرية	الأكادية
الأولى	الجنوبية	الشمالية				
	والمهرية					
السين	السين				السين	السين
			السين	السين	الشين	
الشين	الشين				الشين	
						الشين
السين	السين	السين	السين	السين		
الجانبية	الجانبية				(الساخ)	

ويوضح هذا الجدول مدى تعقد العلاقات بين هذه الأصوات ، ونسكتفي هنا

Brockelmann, Grundriss I, 128.

(١) انظر :

ترجمة شتراوس : التطور النحوي للغة العربية ص ١٤ - ١٥

بملاحظة أن السين العربية تمثل السين السامية الأولى من جانب كما تمثل الشين السامية الأولى من الجانب الآخر ، أما الشين العربية فتمثل السين الجاثية المفترضة في اللغة السامية الأولى .

وهكذا أوضحت الدراسة المقارنة لأصوات اللغات السامية عدة قوانين تلخص التقابل الصوتي وأثبتت هذه القوانين الصوتية أن اللغة العربية تمثل بصفة عامة أصوات اللغة السامية الأولى ، غير أن بعض أصوات العربية ثمرة تغير لغوي في العربية جعلها تختلف عن السامية الأولى .

٤ - الضمائر :

يتناول التحليل المقارن لبنية الكلمة كل مفردات اللغة ، وبهذا يتناول المنهج المقارن أنواعا من الكلمات كانت خارج إطار التحليل الصرفي عند النحاة العرب . وأهم هذه الأنواع الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة وأسماء الاستفهام . ويصنف علم اللغة الحديث كل هذه الأنواع تحت اسم « الضمائر » ، وتضم الضمائر الشخصية بالمعنى الحديث الضمائر الشخصية وضمائر الإشارة والضمائر الموصولة ، وضمائر الاستفهام .^(١) وإذا كان التحليل الصرفي عند النحاة العرب لا يتناول هذه الكلمات ، فإنها تكون أحد موضوعات البحث في علم اللغة المقارن إلى جانب البحث في الأسماء (الأخرى) والأفعال والأدوات .

ويقوم تحليل الضمائر العربية في ضوء اللغات السامية على أساس تحليل صيغة كل ضمير إلى مكوناتها .

(١) انظر القسم الخاص ببحث *Pronomina* في كتاب : Brockelmann, Grundriss I 1297 ff.

— وكذلك : برجستراسر : التطور النحوي للغة العربية ص ٤٧ وما بعدها .

التفسير	النهاية	الضمير الأساسي	الضمير في العربية
هذه النهاية مأخوذة من حرف المضارعة :	(a)	na أن	أنا (= أن)

an + 'a → ana
هذه النهاية مأخوذة عن
حرف المضارعة : اكتب :

na + ta = anta
حرف التاء مأخوذة عن

تاء المضارعة + كسر نهاية
المضارع

na + ti + i ← anti
الماء عنصر اشارى ثم ،
خففت الهمزة

ha + 'a ← huwa

hi + 'a ← hiya (y)a

يلاحظ من الجدول السابق أن الضمائر الشخصية المنفصلة للفرد تربط عناصرها
المكونة بأحرف المضارعة ويتضح أيضا من مقارنة صيغ الضمائر الشخصية المنفصلة
في اللغات السامية أنها تتكون بعناصر مأخوذة من السوابق التي يتكون بها صيغ
الفعل المضارع (أحرف المضارعة) أو من اللواحق التي يتكون بها صيغ الفعل
الماضي (ضمائر الرفع المتصلة) .

التفسير	النهاية	الاساس	الضمير	اللفظة	اللفظة
هذه النهاية موازية لسابقة المضارع للمتكلم : اكتب	'a		أن	أنا	العربية
				(أو تقصير الحركة)	

هذه النهاية هي الضمير	ku	أن	anaku	الأكادية
-----------------------	----	----	-------	----------

المتصل بالفعل الماضي
المضمومة في الاكادية .

ومعنى هذا أن صيغ الضمائر الشخصية المنفصلة في اللغات السامية تضم عناصر أساسية تشترك فيها اللغات السامية ، وهذه عناصر موروثية مفرقة في القدم . وقد كونت اللغات المختلفة الصيغ المختلفة للضمائر الشخصية المنفصلة من عناصر مأخوذة من سوابق المضارع كما هي حال الصيغ العربية المذكورة ، أو عناصر مأخوذة من الضمائر الشخصية المتصلة كما هي حال الضمير الاكادي المذكور .

وتختلف صيغ الضمير الشخصي المتصل بالماضي للمتكلم المفرد من لغة سامية لآخري ، فهو في بعض اللغات يتكون من (الكاف) وفي لغات أخرى يتكون من (التاء) .

العربية	العبرية	الأكادية	الحثبية	المهريية
tu	-ti	.ka	-ka	.k

ويرجع الباحثون هنا أن اللغة السامية الأولى كانت تستخدم (الكاف) في هذا الموضع ، وأن العربية والعبرية اختلفتا بذلك من هذا الجانب عن اللغة السامية الأم . ويقوم هذا الرأي على أساس أن الكاف كانت ضمير المخاطب وأن التاء كانت ضمير المتكلم في اللغة السامية الأم ، ثم استخدمت العربية التاء للمتكلم والمخاطب معا ، وميزت بعد التاء بالضممة والفتحة والكسرة بين الصيغ المختلفة .

وهكذا يوضح المنهج المقارن العناصر المكونة لصيغ الضمائر من جانب ، كما يوضح عناصرها القديمة الموروثة عن اللغة السامية الأولى ، وعناصرها المتكونة في إطار اللغة العربية .

٥ - الأسماء الثنائية :

تقوم فكرة الميزان الصرفي عند النحاة العرب على أساس أن أكثر الالفاظ

العربية من أصل ثلاثي ، وقد أثبت البحث المقارن في اللغات السامية أن الاصل الثلاثي كامن وراء أكثر كلمات اللغات السامية وفي نفس الوقت ظهر عن طريق المقارنة أن مجموعة من الكلمات يمكن أن ترد إلى أصول ثنائية . والاصل هنا هو للصيغة الأقدم التي خرجت عنها الصيغ الأخرى ، وهناك فرق بين منهج النحاة العرب ومنهج علماء اللغات السامية بخصوص تحديد الاصل . كان العلماء العرب يحاولون التوصل إلى أصل الكلمة بتقليب الكلمات المشتقة من نفس المادة في العربية ، ولكن علم اللغة المقارن يحاول التعرف على الاصل التاريخي بمقارنة كل الكلمات السامية المنتهية إلى جذر واحد في محاولة لتحديد الاصل الذي صدرت عنه كل هذه الكلمات . ولا شك أن الضمائر وأكثر الأدوات تخرج عن إطار الاصل الثلاثي ، والبحث في قضية الثلاثية والثنائية يتناول الاسماء والافعال التي يمكن أن ترد إلى أصل ثنائي (١) .

ويمكن تصنيف الالفاظ التي يردها العلماء إلى أصل ثنائي إلى عدة مجموعات من أهمها مجموعة الاسماء الدالة على القرابة ، ومجموعة الاسماء الدالة على أعضاء جسم الإنسان .

تعد الكلمات أب ، أم ، أخ ، حم ، ابن ، من أصل ثنائي وقد تطورت هذه الكلمات في اتجاه الثلاثي لإحداث ضرب من التوازن ولكي تصبح بمثابة لا أكثر الكلمات العربية وهي الكلمات الثلاثية . وحدث هذا التطور في عدة اتجاهات . أحدها يجعل حركة الاعراب طويلة فيكون الرفع بضمة طويلة (أبوك) والنصب بفتحة طويلة (أباك) والجر بكسرة طويلة (أبيك) ، غير أن هذه الكلمات تحتفظ بثنائيتها عندما تضاف إلى ضمير المتكلم (أبي ، حمي ، أخى) . والاتجاه

(١) أهم الدراسات حول قضية الاسماء ذات الاصل الثنائي ما كتبه نولدكه :

Nöldeke, Zweiradikalige Substantive, in: Neue Beiträge zur Semitischen Sprachwissenschaft, s. 109-178.

الثاني لجعل هذه الكلمات متوازنة مع الثلاثي كان بتشديد الصامت الثاني في الكلمات أب ، أم ، أخ ، حم . ونجد هذا في لهجات عربية كثيرة . أما كلمة « بن » فقد وُسِّمت صيغةً بألف الوصل . وتظهر هذه الكلمة بالباء والنون في الاشورية والعبرية والعربية ، ولكنها في الآرامية والمهربية بالباء والراء . وتدل صيغة الجمع في الآرامية والمهربية بالإضافة إلى صيغة المفرد والجمع في اللغات السامية الاخرى على أن أصل هذه الكلمة هو الباء والنون ، كما في العربية . وأما صيغة المفرد في الآرامية والمهربية فهي تطور خاص باللغتين ولا يعكس الصيغة الموروثة من اللغة السامية الام .

هناك مجموعة الفاظ ذات أصل ثنائي في اللغات السامية وتدل على أعضاء جسم الإنسان منها كلمة « يد » ، وكلمة « دم » ، رثة وكلمة « لثة » .

ترد كلمة يد في اللغات السامية كلها مكونة من الياء والذال كما يشير إلى ثنائية أصل هذه الكلمة . غير أن بعض اللهجات العربية حاولت جعل هذه الكلمة في شكل الثلاثي بأن شددت الذال ، وحاولت لهجات عربية أخرى جعلها ثلاثية بإضافة همزة في أول الكلمة .

أما كلمة « دم » فهي من أصل ثنائي أيضا كما تشهد بذلك الصيغ في العربية الفصحى وغيرها من اللغات السامية . أما الصيغة التي تعرفها بعض اللهجات العربية بتشديد الميم فترجع إلى الاتجاه العام لجعل هذه الكلمة الثنائية الاصل في شكل ثلاثي مثل أكثر الكلمات العربية .

أما الكلمات « رثة » و « شفة » فتعد من أصل ثنائي تطور بإضافة تاء التأنيث إلى الاصل الثنائي .

وهناك كلمة ترد إلى أصل أحادي . وهي كلمة الفم (فوك . فيك ، فاك) . قالواصل المشترك هو الفاء التي ترد في اللغات السامية أصلا لهذه الكلمة وقد تكونت الصيغة العربية من هذه الفاء مع حركة طويلة في الرفع والتنصب

والجر . أما الميم التي تظهر في كلمة فم فيمكن أن تكون راسباً من رواسب ظاهرة التميم ، وهي ظاهرة تقابل التنوين في بعض اللغات السامية .

وقد أوضح البحث ثنائية كلمات أخرى كانت موضع خلاف بين النحاة العرب . وقد اختلفوا قديماً في كلمة و اسم ، أهي مشتقة من السمة أم من السموا^(١) ، وأثبت البحث المقارن أن الأصل ثنائي ، هو الشين والميم في اللغة السامية الأم بدليل الصيغ السامية المختلفة . وبمراعاة أن الشين السامية الأم قد تغيرت إلى سين عربية يتضح أن الصيغة ذات أصل ثنائي ، أما ألف الوصل التي أدخلت على الصيغة العربية فكانت لجمل الكلمة مشابهة للإلغاف الثلاثية ولإحداث نوع من التوازن مع أكثر الكلمات العربية .

٦ - الأفعال :

هناك مجموعة من الأفعال التي نعرفها في شكل ثلاثي ، ويمكن ردها بالمقارنة إلى أصل ثنائي وتنظم هذه الأفعال في مجموعتين :

(أ) أفعال تبدأ بالسين مثل : سكب بالمقارنة مع كب ، فواضح هنا تقارب المعنيين ، وتقارب الصيغة مما يشير إلى كون الأصل السكاف والباء وأن الصيغة قد وسعت في اتجاه الثلاثي بإضافة السين في أولها أو بتشديد الحرف (قارن خف ، سخف)

(ب) أفعال تبدأ بالنون مثل : نقص بالمقارنة مع قص ، فعنى الكلمتين متقارب ، والصيغتان ترجعان إلى أصل وُسَّح بإضافة النون قبل الأصل الثنائي أو بتشديد الحرف الثاني من الأصل . (قارن جس ونجس وكذلك ذل ونذل) .

(١) انظر : ابن الأنباري : الانصاف في مسائل الخلاف بين التحويين ، (المسألة الأولى) في تحقيق فايل ص ١ - ٦ .

وتولذلك (البحث المذكور في ٩) ١٤٠ - ١٤٣ .

ويمكن جمع مزيد من الامثلة بتتبع الظاهرتين في المعجم العربي .

٧ - تحديد الجدور في ضوء المقارنات :

توضح الدراسات المقارنة عدة حقائق تجاه تحديد الجدور في بعض الكلمات . لقد ورد الفعل « هرق » في اللغة العربية وكأنه من الجذر « هرق » (١) والواقع أن الهاء هنا ليست أصلية ، بل هي هاء وزن هفعل ، وهذا الوزن قياسي في العربية والعربية الجنوبية في مقابل وزن « أفعل » في العربية الشمالية ولعل مقارنة كلمة « أراق » وكلمة « هراق » بنفس المعنى توضح لنا أن الأولى بوزن أفعل وأن الثانية بوزن هفعل ، وكلا الوزنين للتمدية في اللغات السامية . وعلى ذلك فكلمة هراق بوزن هفعل ، ومن الممكن أن تكون دخيلة من العربية الجنوبية ، ومن الممكن أيضا أن تكون راسبا من اللغة السامية الأولى إذا افترضنا أنها عرفت أيضا وزن هفعل للتمدية ، ويصدق ما ذكرناه حول كلمة « هراق » على كلمات أخرى في العربية مثل : هجرع ، هبلع . . الخ . وقد يكشف بحث الكلمات المبدوءة بالهاء في العربية عن أمثلة كثيرة من هذا النوع ، الهاء فيها زائدة لأصلية .

وإذا كان ثمة خلافا في تحديد الحروف الاصول في كلمة « مدينة » (٢) فإن بحثها في ضوء اللغات السامية يوضح أن الميم زائدة ، ففي العربية والعبرية نجد كلمة « دين » بمعنى القانون ، وفي الآرامية « دينا » . كما نجد في العبرية « بيت دين » بمعنى المحكمة ، وفي العربية والعبرية « ديسان » بمعنى القاضي ، وقد عبرت كلمة مدينة في الآرامية في منطقة الشام قبل الإسلام بمعنى المنطقة الإدارية أو الدائرة

(١) انظر : فصيح ثعلب . مادة : هرق .

في باب : « فعلت بغير ألف » .

(٢) انظر : مادة (مدن) ، ومادة (دين) في المعاجم العربية .

القضائية مرتبطة بهذا المعنى القضائي الذي مازلنا نجد في كلمات عربية مثل دائن ، مدين ، أدان ، إدانة . . الخ . وعندما أطلق الرسول (ص) على يثرب اسم المدينة كان هذا الاستخدام مرتبطاً بظهور الدولة الإسلامية الصغيرة حول الرسول وهو يحكم في المدينة . وهكذا توضح الدراسة المقارنة جوانب مختلفة في تحديد الجذور في كلمات عربية مختلفة .

٨ - الألفاظ المشتركة :

العلاقة بين الألفاظ العربية وما يقابلها اشتقاقياً في اللغات السامية الأخرى تناول موضوعين اثنين . فهناك ألفاظ تشترك فيها اللغات السامية بصفة عامة وترجع إلى اللغة السامية الأم . وإلى جانب هذه فهناك ألفاظ دخلت من إحدى اللغات السامية إلى لغة سامية أخرى ، كأن تدخل كلمة عربية إلى الحبشية أو كلمة عبرية إلى الآرامية . . الخ . ومعنى هذا أن البحث يتناول الألفاظ السامية المشتركة من جانب ، والألفاظ الدخيلة من لغة سامية لأخرى من الجانب الآخر .

وهناك مجموعة من الألفاظ المشتركة في اللغات السامية . والمقصود بذلك أن جذورها الاشتقاقية مشتركة . وليس معنى هذا أن معناها متفق في اللغات السامية المختلفة كل الاتفاق ، فالتغير الدلالي ظاهرة معروفة في إطار اللغة الواحدة فضلاً عنه في إطار الأسرة اللغوية الواحدة فكلمة لحم ، تعني في العربية شيئاً مخالفاً لما تعنيه كلمة Léhem ، في العبرية ، فالأخيرة تعني الخبز . واضح أن الكلمتين العربية والعبرية من جذر اشتقائي واحد هو ل ح م . ويتفق معنى هذا الجذر اتفاقاً بعيداً في أن المقصود هو الأكل اليابس غير السائل ، ولكن اختلاف معنى الكلمتين قد جعل كلا منهما تخصص بمعنى محدد ، فأصبحت كل منهما ذات دلالة مختلفة عن الأخرى . وهناك مثال آخر يوضح فكرة وحدة الأصل الاشتقائي وتغير دلالات الكلمات المشتقة منه في اللغات السامية المختلفة . فكلمة د أهل ، في العربية يقابلها في العبرية Ohél . هما من أصل اشتقائي واحد هو همزة وهاء

ولام . ولكن الكلمة العبرية تعني « الخيمة » ولا تعني أي شيء آخر، أما الكلمة العربية فتعني الأسرة عموماً أو الزوجة بصفة خاصة . وهناك علاقة بين المعنيين يمكن تصورهما بأن المجتمع البدوي أو شبه البدوي وصف الخيمة أو الزوجة التي بها أو الزوجة والأولاد الذين بها بنفس الكلمة . لقد تغير المعنى وتحدد باختلاف دلالة الكلمة العبرية عن الكلمة العربية المقابلة لها اشتقاقاً . فلا شك أن الزوجة تختلف عن الخيمة . فالمعجم الاشتقاقى للغات السامية وأية دراسة للمقابلات السامية من ناحية المفردات تبحث الكلمات التي انحدرت من أصل اشتقاقى واحد ثم يبحث مدى الاتفاق أو الاختلاف الدلالي بعد ذلك .

٩ - الدخيل في ضوء القوانين الصوتية :

وتحديد كون أية كلمة مشتركة في لغتين ساميتين أصيلة موروثية فيهما من اللغة السامية الأم أو دخيلة من إحدى اللغتين إلى اللغة الأخرى إنما يتم بمعياري لغوي في المقام الأول . وهذا المعيار الذي ارتضاه البحث الحديث يدخل في إطار التطبيقات المباشرة لفكرة « القوانين الصوتية » . وليس هذا المعيار جديداً كل الجدة ، فقد عرف اللغويون العرب وجود مقابلات مطردة بين العربية والآرامية . وهناك مثالان ذكرهما الجواليقي (ت ٥٤٠ هـ) في كتابه « المرعب » (١) ، ويوضحان أنه طبق فكرة القوانين الصوتية لإثبات كون الكلمة دخيلة في العربية . ذكر الجواليقي أن كلمة « الناطور » من المرعب وأنها تعني « حافظ النخل والشجر » وقد استدل على كونها غير عربية الأصل بما ذكره الأصمعي أن المقابل العربي لهذه الكلمة هو « الناطور » بالطاء . والواقع أن الطاء العربية يقابلها طاء في الآرامية ، وهذا قانون من القوانين الصوتية المطردة . وكان الجواليقي قد لاحظ إطراد المقابل

(١) انظر المرعب للجواليقي ، ص ٣٣٤ ، ص ٦٨ .

بين الظاء العربية والطاء الآرامية . فالمادة «نظر» في العربية لا بد وأن يقابلها «نظر» في الآرامية . يقول الجواليقي : « والنبط نجعل الظاء طاء » وتدل كلمة النبط عند الجواليقي على البيئمة اللغوية الآرامية ، ويبدو أن هذا يرجع إلى أن النبط كانوا من أقرب مستخدمى اللغة الآرامية إلى العرب . واستدل الجواليقي على إطراد هذا القانون الصوتى بكلمة : « برطلة » وتعنى « ابن اظل » . والواقع أن كلمة «بر» في الآرامية تعنى « ابن » في العربية ، أما الكلمة الثانية فتتمى بفتحة طويلة ، دونت تاء مربوطة ، للدلالة على التعريف . وباقى الكلمة متفق مع الكلمة العربية « ظل » إلا فى التقابل بين الظاء العربية والطاء الآرامية . وبهذا عرف الجواليقي معتمداً على ملاحظات اللغويين فى القرن الثانى الهجرى مثل الأصمعى فكرة القوانين الصوتية بين العربية والآرامية وطبقها تطبيقاً محدوداً للتعرف على عدم أصالة الكلمة فى العربية ولتحديد أصلها .

وقد ارتضى البحث الحديث تطبيق فكرة القوانين الصوتية باعتبارها المعيار الأول لتحديد أصالة الكلمة أو عدم أصالتها من الناحية الإشتقاقية (١) . ونوضع هذه الفكرة بمجموعة أمثلة تنتمى إلى المادة العربية «نفر» وما يقابلها وفق القوانين الصوتية فى اللغات السامية المختلفة . التاء العربية تعبر عن التاء فى اللغة السامية الأم . ويقابلها الشين فى العبرية والتاء فى الآرامية . أما العين العربية فيقابلها فى الآرامية والعبرية صوت العين . ومعنى هذا أن المقابل الإشتقاقى المباشر للمادة العربية (ث غ ر) هو (ش ع ر) فى العبرية و (ت ع ر) فى الآرامية . وهذا ما نجد فى الكلمات «نفر» فى العبرية ، ear فى العبرية ، و tar'a فى الآرامية . وواضح أن هذه الكلمات من جنس إشتقاقى واحد ، وقد طرأ على الكلمة الآرامية قلب مكانى وألحقت بها الفتحة الطويلة التى كانت أداة التعريف فى الآرامية . أما معنى

(١) أنظر مثلاً . برجشتراسر : التطور النحوى للغة العربية ص ١٤٠-١٥٤ .

الكلمة ذات الأصل الإشتقاقى الواحد . المعنى الأساسى لكل هذه الكلمات هو معنى الفتحة فتدل كلمة « نغر » فى العربية على منافذ الدولة نحو الخارج ونقط الحدود فكانت توصف منطقة الحدود العربية البيزنطية بأنها الثغور ، وعندما تطورت دلالة هذه الكلمة إلى معناها الحديث فى العربية تحدد معناها بالمنافذ البحرية للدولة وكانت من قبل تدل على المنافذ البحرية أو البرية دول تخصيص . يضاف إلى هذا استخدام كلمة « نغر » بمعنى فتحة الفم . أما فى العبرية فتدل كلمة (شمر) على الباب أو المدخل . وتدل للكلمة الآرامية (ترعا) على الباب أو المدخل أو الثنى . الموصل إلى شىء آخر . وعندما انتقلت الصيغة الآرامية المذكورة إلى العربية احتفظت بسمتين أساسيتين دلنا على كونها غير أصيلة فى العربية ودخيلة من الآرامية ، وهما وجود التاء - لالتاء - ووجود الفتحة الطويلة فى آخر الصيغة وكلاهما من السمات المميزة للصيغة الآرامية . وحدث تخصيص دلالى عندما انتقلت هذه الصيغة الآرامية إلى العربية ، فأصبحت تدل فى العربية على المجرى المسائى الموصل من منطقة إلى منطقة .

١٠ - المقارنات اللغوية وتاريخ الالفاظ :

وتوضح المقارنات اللغوية تاريخ كثير من الالفاظ العربية . فالالفاظ التى وردت فى الشعر الجاهلى أو فى المعاجم العربية أو فى القرآن الكريم لاترجع من الناحية الإشتقاقية التاريخية إلى مرحلة واحدة ، ففيها ألفاظ مغرقة فى القدم وفيها ألفاظ أحدث عهداً . ويمكن بصفة عامة إعتبار الالفاظ المشتركة فى اللغات السامية عموماً أو المشتركة بين العربية والأكادية بصفة خاصة من ذلك التراث اللغوى الذى عرفته اللغة السامية الأم قبل أن تبدأ الهجرات إلى العراق والشام ، أى أن هذه الالفاظ ترجع إلى ما قبل سنة ٢٥٠٠ ق م . أما الالفاظ التى نجدتها فى الشعر الجاهلى أو القرآن الكريم أو المعاجم العربية ولانجد مقابلهما الإشتقاقى فى اللغات السامية القديمة فهذه ألفاظ دخلت العربية أو كونتها العربية فى الفترة ما بين الهجرات وتأليف الشعر الجاهلى أو نزول القرآن الكريم . ونوضح هذه القضية ببحث مجموعة ألفاظ

دلت في مستويات لغوية متعاقبة على الرجل والمرأة وعلاقتها . تشترك اللغات السامية كلها في كلتي ذكر وأنثى ، وينطبق على صيغ الكلتيين في الأكادية والعبرية والآرامية القوانين الصوتية الخاصة بالأصوات المكونة دون أدنى شذوذ . وهذا يدل على أن كلتي ذكر وأنثى من المعجم السامي المفقود في القدم الذي عرفته اللغة السامية الأم قبل أن تبدأ الهجرات السامية حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م . ولكننا نجد في العربية كلتيين آخرين هما « بعل » و « زوج » ، تدل كلمة « بعل » على الرجل المرتبط بعلاقة زواج ، مع المرأة « الزوج » ، ولكل كلمة من الكلتيين نشأة مفايرة ولكن معناها يفهم كوحدة تضاد دلالي . نرجع كلمة « بعل » إلى المعجم السامي القديم وهي معروفة في أكثر اللغات السامية وتغنى الإله أو الرب أو السيد . ولكن إستخدامها بمعنى الرجل المتزوج ارتبط بوجود كلمة « زوج » ، وترجع كلمة زوج إلى أصل سامي فهي من الكلمة اليونانية Zeugos التي دخلت الآرامية أول الأمر فكانت بصيغة تنهى لابلانهاية اليونانية os بل بالنهاية الآرامية وهي الفتحة الطويلة ، ولذا فالصيغة الآرامية زوجا تكونت إلى جانب الصيغة غير المنتهية بإداة التعريف « زوج » . ثم انتقلت هذه الكلمة إلى العربية واتخذت فيما ذلك المعنى المقابل لمعنى كلمة « بعل » ، فالبعل هو الرجل المتزوج وزوجته هي « الزوج » . وظل هذا الإستخدام سائداً إلى أن لاحظ الاصمعي أن بعض أبناء عصره يستخدمون كلمة زوجة ، وأنكر الاصمعي هذه الصيغة واعتبرها خطأً . ويمكن تفسير ظهور هذه الصيغة أحد تفسيرين : أحدهما أنها الصيغة العامية التي استمرت من الآرامية ، والثاني أنها محاولة لإضافة علامة التأنيث إلى صيغة دالة على المؤنث . وفي القرون التالية لما لاحظ الاصمعي أصبح التقابل الدلالي بين كلمة زوج الدالة على الرجل المتزوج وكلمة زوجة الدالة على المرأة المتزوجة . أي

(١) حول رأى الاصمعي في هذه الكلمة ، انظر :

الموشح للمرزباني ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

أن وجود كلمتي زوج وزوجة جنباً إلى جنب أدى إلى أن تختص الكلمة الأولى بالذكر والثانية بال مؤنث . وهذا المعنى استمر استخدام الكلمتين في النصوص العربية إلى اليوم .

ويعكس التحول في التسمية من (ذكر / أنثى) إلى (بعل / زوج) تحول الإنسان من الوصف البيولوجي البسيط الذي حددته « الطليعة » إلى العلاقة الاجتماعية التي جمعت منه إنساناً يسهم في تكوين الحضارة . أما التحول في (بعل / زوج) إلى (زوج / زوجة) فقد أدى إلى إختفاء كلمة « بعل » فلم يبق لها وجود حتى في اللغة العربية إلا في بعض أسماء الأماكن في لبنان مثل بعلبك (إله البقاع أو الإله باخوس) ، وبعل شمشية (= إله السماء) واختلفت الكلمة (١) عندما ظهر التقابل الجديد بين (زوج / زوجة) .

ولكن اللغة العربية ذات قدرة كبيرة على الاستفادة من الجذور الأصلية والدخيلة فيها . ولذا صيغت كلمات كثيرة من مادة (ز - و - ج) كما لو كانت هذه المادة عربية سامية . ولذا ظهرت الكلمات التالية : زوج - تزويج - زواج - مزوجة - مزدوج - ازدواج ... الخ .

وبهذا يمكن عن طريق القوانين الصوتية وتقع المجموعات الدلالية وإنتقال الألفاظ من اللغات السامية وغير السامية إلى العربية تأريخ جوانب مختلفة من حياة الألفاظ العربية .

(١) لم أدخل في الاعتبار وجود كلمة « بعل » في لهجات العراق ، وفي اللغة المهرية - دون عين ، وفي صيغة النسبة : « بعلي » الموجودة في لهجات منطقة الشام وصفا للراضي التي تروى بمياه الأمطار . وفي هذه الأمثلة نجد كلمة « بعل » بمعنى السيد الزوج ، أو الإله ، « بعلي » بمعنى ما يأتي به الإله .

الفصل لثاني عشر

العربية في جزيرة العرب

١ - النقوش العربية القديمة :

كشفت الدراسات المبدائية التي قام بها عدد من الاوربيين في منطقة شمال الجزيرة العربية لبنداء من منتصف القرن التاسع عشر الى اليوم من عدة آلاف من النقوش (١). وقد لوحظ أن بعض هذه النقوش مكتوب بعناية وابتقان ، فلعل حرف شكله الواضح المتميز ، ولكن بعض هذه النقوش لم تكتب بعناية ، ولذا لا يتخذ كل حرف ملاح واضحة متميزة . ويطلق على النوع الاول مصطلح نقش inscription ، بينما يسمى النوع الثاني باسم الجرافيتي Graffiti (٢) أي المخربشات وقد أمكن تقسيم هذه النقوش الكثيرة الى عدة مجموعات ، أهمها : مجموعة النقوش

(١) بدأ اكتشاف هذه النقوش على يد Doughty (١٨٦٧ - ١٨٧٧) .

وانشرت أقدم مجموعة من هذه النقوش في : Ch. Doughty,

Documents épigraphiques recueillis dans le Nord l'Arabie.
Paris 1884 .

وحول تاريخ هذه الكشوف انظر ما كتبه ليتان :

E. Littmanns, Thamud und Saba, s. 1.6, 62-95 Leipzig 1940.

(٢) يرجع مصطلح inscriptions الى الكلمة اللاتينية المركبة inscriptio ،

وتعني الكتابة أو الكتابة الغائرة . أما كلمة Graffito وجمعها Graffiti فهي

اصطلاح أوربي يرجع الى الإيطالية .

التمودية ، مجموعة النقوش الصفوية ، ومجموعة النقوش اللحيانية . ويقوم هذا التقسيم على عدة معايير متكاملة أهمها : أماكن وجود النقوش ، الخصائص اللغوية ، خصائص الكتابة . ومجموع هذه المعايير يحدد لنا كون نقش بعينه صفوياً أو تمودياً أو لحيانياً .

النقوش التمودية :

تنسب النقوش التمودية^(١) إلى قبيلة تمود ، التي ورد اسمها في هذه النقوش كما ورد اسمها في آيات كثيرة من القرآن الكريم وجاءت قصة أهلها فيه . وقد أثار بعض الباحثين قضية كون كتاب هذه النقوش قبيلة واحدة أم عدة قبائل تعاملت بنفس اللغة^(٢) ، وليس لهذا التساؤل أية إجابة ، لأن النقوش هي مصدرنا الوحيد للتأريخ لكتاب هذه النقوش ، وليس هناك تحديد واضح لكلمة قبيلة ، فإذا كان كل تجمع بشري يحس بنوع من الإلتحاق العرقي يمكن أن يعد قبيلة ، فن الممكن أن نشطر القبيلة الواحدة إلى قبيلتين أو أكثر . ولكن الثابت أن التموديين كونوا جماعة لغوية واحدة ، وهذا ما يهتد في إطار البحث اللغوي .

وجدت النقوش التمودية في منطقة مدائن صالح في شمال غرب الجزيرة العربية وفي مناطق أخرى مجاورة لها مثل مدينة الملا (= ديدان ، في التاريخ القديم) كما وجدت في حائل وتبوك . وهناك عدة نقوش تمودية وجدت خارج

(١) أهم مجموعات النقوش التمودية المنشورة :

A. van den Branden, les inscriptions thamoudéennes, Louvain 1950.

(٢) حول هذه القضية انظر ما كتبه :

A. van den Branden, Histoire de Thamoud. p. 21. Beyrouth 1966.

الجزيرة العربية ، وأهمها في شبه جزيرة سيناء . وأكثر النقوش الثمودية تتناول أشياء شخصية لا ترتبط بقرائن تاريخية أو أحداث هامة تمكن من تأريخ هذه النقوش ، ولذا فليس من الممكن تحديد زمن تدوين أكثر هذه النقوش على نحو مباشر ، والتاريخ الوحيد المؤكد هو تاريخ نقش ثمودى مراد لنقش نبطى وكلاهما من سنة ١٦٢ بعد سقوط دولة النبط ، فقد كان عرب شمال الجزيرة العربية يؤرخون بسقوط دولة النبط سنة ١٠٥ م ، أى أن النقش الثمودى المقصود يرجع إلى سنة ٢٦٧ م . ويميل الباحثون إلى تأريخ النقوش الثمودية اعتماداً على قرائن أخرى خاصة بأشكال الحروف ، فالحروف المتشابهة تكون من فترة زمنية واحدة ، وكلما تباينت أشكال الحروف كانت من فترات زمنية متباعدة ، ووفق هذا المعيار يؤرخ أقدم النقوش الثمودية بالقرن الخامس قبل الميلاد ويؤرخ أحدثها بالقرن الرابع الميلادى ، أى أنها امتدت وفق هذا التقدير حوالى تسعة قرون (١)

النقوش الصفوية :

تنسب النقوش الصفوية إلى المسكان الذى وجدت فيه ، فبالقرب من منطقة جبل الصفا الواقع جنوب شرق دمشق وجدت مجموعات كبيرة من هذه النقوش ، فسميت باسم « النقوش الصفوية » . وقد وجدت بعد ذلك نقوش كثيرة في مناطق مجاورة لهذه المنطقة ، ولكنها تنفق معها في الخط والخصائص اللغوية ،

(١) حول أماكن وجود النقوش الثمودية ، وقضية تأريخها انظر :

E Littmann, Thamud Safa. Leipzig 1940.

وقد تناول ليتمان في كتابه المذكور الموضوعات الأساسية الخاصة ببحث هذه النقوش . ص ١ - ٣٩ ثم جاء بمجموعة من النقوش المختارة مع شرحها والتعليق عليها ص ٤٠ - ٩١ .

ولذا عدت أيضا من النقوش الصفوية (١) وأكثر النقوش الصفوية يخلو من أية إشارة تاريخية ، ولكن بعضها يشير إلى بعض الأحداث المعروفة . فقد ذكرت النقوش أحداثا كثيرة من القرن الثاني الميلادي ، ولا شك أن الصفويين كانوا في هذه المنطقة قبل هذه الأحداث بوقت طويل . وهناك مجموعة من النقوش بها أسماء بعض الشخصيات المعروفة في تاريخ المنطقة ، فالملك أذينة كان يحكم في تدمر في منتصف القرن الثالث الميلادي ، وقد جاء اسمه في نقوش معاصرة له . وترجع نقوش أخرى جاءت فيها بعض أسماء شخصيات رومانية مثل Alexander Severus, Septimus Severus إلى القرن الثالث الميلادي أيضا . وهناك نقش به ذكر لامرى. التيس ملك العرب ، فإن صح هذا فهو من أوائل القرن الرابع الميلادي . وهكذا تمكن بعض النقوش من تحديد زمن تدوينها في القرن الثاني أو الثالث أو أوائل الرابع بعد الميلاد ، ولكن بداية كتابة النقوش الصفوية ما يزال يكتنفها الغموض .

النقوش الليمانية :

تنسب النقوش الليمانية (٢) إلى دولة لحيان التي تذكرها النقوش باعتبارها كيانا سياسيا يحكم منطقة في شمال غرب الجزيرة العربية . وقد وجدت مجموعات من هذه النقوش في منطقة العلا (= ديدان) ، ويبدو أن ظهور مملكة لحيان

(١) حول النقوش الصفوية وقضايا البحث فيها انظر الكتاب المذكور للتيان الصفحات ٩٢ - ١٢٠ ، وقد جاء لتيان بمجموعة نصوص مختارة مع شرحها والتعليق عليها ١٢١ - ١٤٣ .

(٢) حول النقوش الليمانية ودولة لحيان ، انظر :

W. Gaskel. Libyan und Lihyynish, Köln 1954.

ويضم الكتاب المذكور مجموعة مختارة من النقوش مع شرحها .

ارتبط بسقوط الدولة المعنية ، وهي دولة عربية جنوبية كانت لها مستعمراتها في الشمال ، وفي القرن الثاني قبل الميلاد أخذت منطقة ديدان تمس باستقلالها فبدأوا يكتبون على نحو متميز ، وهناك نقوش لحياينة تسمى بنا حتى أواخر القرن الثالث الميلادي ، أى أن هذه النقوش كتبت على مدى خمسة قرون بدأت باستقلال الحبان وانتهت بنهاية ملكة الحبان على يد الرومان .

الخط :

كتبت النقوش النمودية والصفوية والمحيانية بخط أبجدي يقوم على أساس الخط العربي الجنوبي القديم^(١) . ورغم الاختلاف الكبير في شكل الحرف الواحد في كل مجموعة من مجموعات النقوش السكثيرة إلا أن كل هذه الأشكال تمد إمتداداً مباشراً لشكل الحرف في الخط العربي الجنوبي القديم . وهناك نقوش مدونة من اليمن إلى اليسار ، وأخرى من اليسار إلى اليمن ، فأنجاه الكتابة يختلف من نقش لآخر ، وهناك نقوش مكتوبة بخط المحراث boustrophedon بأن يكتب السطر الأول من اليمن إلى اليسار ثم يكتب السطر الثاني من اليسار إلى اليمن ثم يكتب السطر الثالث من اليمن إلى اليسار وهكذا .

تنفق كل النقوش العربية القديمة في تدوينها للصوامت مثل الباء والتاء والسين ، لكل صوت منها حرف متميز ، ولكن الفرق الأساسي بين كتابة هذه النقوش والخط العربي الحالي أن هذه النقوش لا تدون الحركات الطويلة ، فضلاً عن عدم تدوينها للحركات القصيرة . فمتدا يرد في أحد النقوش (آل) فقد يكون المقصود كلمة (آل) الدالة على الإتياء القبلي ، وقد يكون المقصود كلمة (ايل) الدالة على الآله ، وقد يكون المقصود حرف الجر (إلى) . ومعنى هذا أنه من الصعب التعرف على النطق الكامل لأية كلمة وردت في هذه النقوش ، فالحركات الطويلة ناقصة والحركات القصيرة أيضاً . وتؤثر هذه السمة في عدم بروز أوزان كاملة ، فالفرق

(١) انظر الفصول الخاصة بالكتابة في كتاب ليمان المذكور .

بين وزن فَعَلَّ ووزن فاعَل يقتصر على وجود فتحة قصيرة بعد فاء الأول وفتحة طويلة بعد فاء الثاني، وكلاهما لا تدون في هذه النقوش، وعلى ذلك فالفعلان (سعد) و(ساعد) يكتبان بنفس الحروف (س ع د) ومعنى هذا أنه إذا وجدت الواو مكتوبة فهي تدل بالضرورة على صوت صامت لاعلى حركة طويلة، فإذا دونت النقوش (ج و ر) فالمتصور اسم العلم (جوير). وبالمثل إذا دونت الياء فهي تدل على صوت صامت لاعلى حركة، فمثلاً (ي خ ل د) تدل فيها الياء على صوت صامت (تقبه فتحة). ويؤدي عدم تدوين الحركات القصيرة إلى عدم معرفتنا بطبيعة هذه الحركات داخل الكلمة وفي آخرها، وعلى ذلك فلا يمكن بحث قضية النهايات الاعرابية وهل كانت موجودة أم لا في ضوء هذه النقوش. وبالمثل فالتنوين لا يدون هذه النقوش، حتى إن إفتراضنا وجوده فيها. وعلى ذلك فكيفية تدوين هذه النقوش تجعل الاستفادة منها للتعرف على الخصائص اللغوية محدودة، وهي تفتيد في التعرف على وجود بعض الكلمات في هذه النقوش وفي التعرف من السياق على معانيها فيها، كما تفتيد أيضاً في التعرف على بعض خصائص الجملة.

اللغة

عندما يجد الباحث مجموعة من النقوش في شمال الجزيرة العربية بالقرب من منطقة الشام والعراق تطرح دائماً عدة فروض حول لغة هذه النقوش، فقد تكون عربية وقد تكون كنعانية وقد تكون آرامية، وقد تكون امتداداً للغة أخرى من خارج هذه المنطقة مثل العربية الجنوبية. وقد أثبتت الدراسات المبدئية للغة هذه النقوش أنها عربية، ومن الممكن دون صعوبة قراءة هذه النقوش باعتبار أنها نصوص عربية.

ترد في النقوش مجموعة أفعال نعرفها بصيغها ومعانيها في العربية، وأهم هذه الأفعال: علم، حل، بات، رعى، ذكر، نسم، خط، تشوق، كتم، ود، قنص، صاد، قاد، حب. ويضم معجم الأسماء في هذه النقوش ألفاظاً كثيرة

تعرفها الحياة الصحراوية ، مثل : وعل ، حمل ، لجمع ، أثر ، دار. وتضم هذه النقوش مجموعة من الحروف المعروفة في العربية منها : إلى ، من ، لم ، الباء ، الفاء ، اللام . وهكذا تتفق النقوش من الناحية المعجمية مع عربية الجاهلية (١) .

وثمة ظاهرتان جديرتان بالملاحظة في لغة هذه النقوش وهما : استخدام الاسم الموصول (ذ) ، واستخدام أداة التعريف (هـ) . وكلتا السمتين موجودة في بعض اللهجات العربية . أما (ذ) المدونة في النقوش فقد تكون متصرفة إعرابياً (ذو ، ذا ، ذى) وقد تلزم حالة واحدة من الحالات المذكورة دون تصريف إعرابي . ومع هذا فلا شك أن استخدام هذه البكلمة كاسم موصول هو ما عرف قديماً عند قبيلة طيء ، فقد ذكر النحاة أن قبيلة طيء كانت تستخدم بكلمة (ذو) اسماً موصولاً (٢) . وأما استخدام الهاء كأداة للتعريف تحمل الدلالة الإشارية فهو ما تعرفه لهجات عربية كثيرة في الشام وجزيرة العرب إلى اليوم ، عندما يقولون (هالولد) و (هالبت) .

إن الخصائص اللغوية للنقوش الثمودية والصفوية واللحيانية . تثبت أن كتابها كانوا من البيئة اللغوية العربية ، وتثبت أسماء الأعلام الواردة في هذه النقوش أن كتابها عرب جاهليون وثيون نجد فيها أسماء مركبة منسوبة إلى معبودات الجاهلية مثل : عبد مناة ، وزيد شمس ، وعبد ايل ، وعبد يغوث ، وتميم يغوث ، وتميم اللات . فهذه أسماء عربية جاهلية ، عاش أصحابها حياة تشهد النقوش بأنها قبلية .

(١) حول لغة النقوش الصفوية انظر ما كتبه ليتمان في :

Semitic Inscriptions, Leiden 1904.

وكذلك ما كتبه حول النقوش الثمودية في :

Thamud und Safa, s 31-34.

(٢) حول (ذو) الطائفة انظر : ابن هشام : مغنى اللبيب ٢/٤٧٠

فأصحاب هذه النقوش يذكرون أنسابهم ويعرفونها معرفة تفصيلية ، فسلال الانساب أبرز ما أتى به النقوش . وكتاب هذه النقوش ينسبون أنفسهم إلى قبائلهم في عدد كبير من النقوش مستخدمين كلمة (آل) المعبرة عن الإلتواء القبلي . وهكذا ثبتت الخصائص اللغوية لهذه النقوش وأسماء الأعلام الواردة فيها وسلاسل النسب فيها أن كتاب هذه النقوش عرب وأن لهجاتهم اليومية تدخل في إطار اللهجات العربية .

٢ - اللهجات العربية واللغة الفصحى :

المصادر القديمة التي تمدنا ببعض الظواهر اللغوية في اللهجات العربية القديمة تنقسم إلى مجموعتين رئيسيتين ، أولاهما: كتب النحو واللغة الثانية: كتب اللغة والمعاجم ومعظم المادة التي جاءت في كتب النحو واللغة إنما جمعت من لهجات البادية في القرنين الأول والثاني . حاول اللغويون الذين جمعوا هذه المادة النظر بعميار الخطأ والصواب إلى كل الظواهر اللغوية التي عرفها عصرهم ، ولذا رفضوا أخذ اللغة عن القبائل التي عاشت في مناطق متاخمة للحضر في بادية الشام أو العراق ، كما نظروا إلى اللهجات العربية في الجنوب بعين الشك ، ولم يأخذوا اللغة عنها . لم يحاولوا جمع الظواهر بهدف بحثها بحثاً شاملاً ينسب لسكل قبيلة كل ما عندها من ظواهر ، وإنما قصروا مهمهم على تسجيل بعض الظواهر التي لفتت نظرهم عند بعض القبائل . ومن هنا نستطيع أن نقول إن كتب النحو واللغة لم تقدم لنا إلا قطاعاً صغيراً محدوداً من الحياة اللغوية حتى القرن الثاني للهجرة ، وهذا القطاع هو بعض لهجات البدو .

أخذ النحاة واللغويون اللغة عن بعض قبائل شبه جزيرة للعرب ، واستبعدوا عدداً كبيراً من القبائل التي اختلطت في حياتها بغير العرب ، واستبعدوا كذلك اللهجات الناشئة في الأمصار المفتوحة ، كما رفضوا أخذ اللغة عن القبائل الجنوبية . والناظر في كتب النحو واللغة يلاحظ أن أكثر المادة التي جاءت بها هذه الكتب

تنسب إلى لهجات الحجاز وتميم وهذيل وطى . ، وهناك ظواهر كثيرة جاءت دون نسبة إلى قبيلة بعنما . إنخذ جامعو اللغة موقفاً مختلفاً عن موقف الباحث اللغوي الحديث ، فقد نظروا إلى هذه اللهجات وقاسوها بمبار اللغة الفصحى واعتبروا أى اختلاف عنها خروجاً على النمط الصحيح وخروجاً على الضوابط وفساداً لغوياً لا يجوز أن يقبل عن يندرج ضمن المثقفين . ومن ثم فقد أهملوا تلك اللهجات التي أصبح اليون بينها وبين الفصحى شاسعاً ولم ينظروا ويهتموا إلا باللهجات التي تقرب في خصائصها من العربية الفصحى وهذه هي لهجات الحجاز وتميم وهذيل وطى . .

وسنحاول دراسة بعض الظواهر التي جاءت في كتاب سيويوه منسوبة إلى هذه اللهجات دراسة لغوية وصفية وسنبداً بالأصوات ، ثم نمضى بعد ذلك إلى بناء الكتابة فبناء الجملة .

الهز بين التحقيق والتخفيف :

أول ما يلفت النظر في لهجة الحجاز من الناحية الصوتية أنها لا تعرف تحقيق الهمز ، أى النطق بالهمزة باعتبارها صامتاً . والكاتب العربية تتحدث دائماً عن تحقيق الهمز ونفسه إلى لهجة تميم ، وعن تخفيف الهمز أو نطق الهمزة نطقاً بين بين ، ونفسه إلى لهجة الحجاز .

قال سيويوه : « أعلم أن كل همزة كانت قبلها فتحة فإنك تجعلها إذا أردت . تخفيفها بين الهمزة والألف الساكنة . . . ، وذلك قولك سال في لغة أهل الحجاز إذا لم تحقق كما يحقق بنو تميم ،^(١) . وواضح من هذا النص أن تحقيق الهمزة عند بني تميم كان يقابله التخفيف عند أهل الحجاز ، ويمبر سيويوه عن

(١) الكتاب ١٦٣/٢ .

الهمزة المخففة قائلاً بأنها تنطق نطقاً يجعلها بين الهمزة والالف الساكنة ، وإذا سألنا فهم كلامه على نحو صرتي لاحظنا أن الهمزة ، ويعنى بها الهمزة المحققة ، إنما تنطق نتيجة التقاء تام يحدث إنغلاقاً لحظياً في أقصى الخنجرة يتبعه انفراج مفاجئ . فيصدر هذا الصوت الذي نعرفه بالهمزة . وهذا النطق يختلف اختلافاً أساسياً عن نطق الفتحة الطويلة ، وهو ما يطلق عليه سيويوه والالف ، فالفتحة الطويلة إحدى الحركات ، والحركات تختلف عن الأصوات الساكنة في اتساع مخرجها ، وأنه لا يحدث ضيق شديد بسبب عقبة في سبيل تيار الهواء ، فظهور هذه العقبة ثم انفراجها من خصائص النطق بالأصوات الصامتة ، أما الحركات فيمضي في النطق بها تيار الهواء من الداخل إلى الخارج دون عقبة والهمزة من الأصوات الصامتة ، ولكن الحركة الطويلة التي تكتب في الخط العربي بالالف ليست من الأصوات الصامتة . ويبدو أن تخفيف الهمزة كان يعنى عند سيويوه أن الالتقاء التام الذي يحدث إنغلاقاً لحظياً في أقصى الخنجرة لم يحدث ، وأن الهواء المندفع إلى الخنجرة كان يعضى من دون أن يعترضه هذا الإغلاق الخنجري .

الإمالة :

من الظواهر التي ذكرها سيويوه ظاهرة « الإمالة » . والإمالة إحدى الظواهر الخاصة بنطق الفتحة الطويلة نطقاً يجمها بين الفتحة الصريحة والكسرة الصريحة يقول سيويوه في هذا :

« الألف تمال إذا كان بعدها حرف مكسور ، وذلك قولك : طاب ، وعالم ، ومساجد ، ومقايص إنما أمالوها للكسر التي بعدها أرادوا أن يقرئوها منها وجمع هذا لا يميله أهل الحجاز » (١) .

(١) الكتاب ٢ / ٢٥٩ .

ويتضح من هذا النص أن الإمالة ظاهرة من ظواهر المماثلة، وتعني المماثلة أن صوتاً من الأصوات في كلمة أو ما يشبه الكلمة أثر في صوت آخر في نفس الكلمة فجعل نطقه قريباً من نطقه. أي جعل نطقه مماثلاً لنطقه. وفي شرح سيبويه لهذه الظاهرة تعليل بأن إمالة الفتحة الطويلة إنما حدث نتيجة لقربها من الكسرة. فيتحدث سيبويه عن الألف وتحدث نحن عن الفتحة الطويلة، ويعتبر سيبويه الألف غير المماثلة أصلاً والمماثلة فرعا، وتحدث — نحن — عن اختلاف المهجات. فالإمالة في الأمثلة التي ذكرها وهي علم، عابد، تمنى نطق الألف الطويلة بصورة ما تجعلها قريبة — نطقاً — من الكسرة التي تلي اللام والياء. وهذا يعني أن الفتحة الطويلة المماثلة إنما تأتي في محيط صوتي بعينه دون غيره. ومن هنا فنحن نتحدث عن صورة صوتية لا عن وحدة صوتية. فالفتحة الطويلة في تلك اللهجات لها صورتان: صورة بلا إمالة، وصورة بالإمالة. وكلاهما وحدة صوتية واحدة. وكانت لهجة الحجاز القديمة لا تعرف الإمالة.

بقي أن نشير إلى المثال الأخير الذي ذكره سيبويه وهو مفاتيح. فالإمالة هنا في تفسير سيبويه أثر للكسرة. وكأنه تصور — في كلمة مفاتيح — الكسرة شيئاً والياء شيئاً آخر. فالواقع أن نظرية النحويين العرب للنخط جعلتهم يتصورون أن ما نطق عليه كسرة طويلة هو كسرة ثم ياء ساكنة. ولهذا لم يلاحظ سيبويه أن الإمالة حدثت كأثر لمد الياء (الكسرة الطويلة) وكفاه أن وجد الكسرة هنا وهناك. والصحيح أن الإمالة حدثت كأثر الكسرة الطويلة. وهذا وقد علل سيبويه ظاهرة الإمالة بالتماس الخفة، وهذا الرأي هو التفسير السائد في علم اللغة إلى عهد قريب. فكان كل تطور يفسر بعامل السهولة في كثير من اللغات.

ولنحاول المضي قليلاً مع سيبويه وهو يتحدث عن الإمالة. يقول سيبويه: « هذا باب ما يتمتع من الإمالة من الألفات... فالحروف التي تمنعها الإمالة هذه السبعة: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والعين، والقاف، والحاء. إذا كان

حرف منها قبل الألف تليه ، ذاك قولك : قاعد ، غائب ، خامد ، صاعد ، طائف ، وضامن ، وظالم . إنما منعت هذه الحروف الإمالة لأنها حروف مستعملة إلى الحنك الأعلى ، والألف إذا خرجت من موضعها استعملت إلى الحنك الأعلى فلما كانت مع هذه الحروف المستعملة غلبت عليها كما غلبت الكسرة عليها في مساجد . . . ولا نعلم أحد يميل هذه الألف إلا من لا يؤخذ بلفته ، (١)

وهذا النص واضح في أن الإمالة صورة لنطق الفتحة الطويلة أن نطقها يتأثر بالمحيط الصوتي ، فهي عمالة على مقربة من الكسرة أو الكسرة الطويلة . وهي غير عمالة على مقربة من مجموعة من الأصوات . إذا نظرنا إلى تلك الأصوات التي ذكرها سيبويه مانعة للإمالة لاحظنا فيها وجود كل أصوات الأطباق ، وهي : الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء ، والقاف ، كما نجد من أصوات الحلق : الغين والحاء . يبدو أن اللهجات التي كانت تميل مع الكسرة والكسرة الطويلة كانت تنطق الفتحة الطويلة بلا إمالة إذا كانت قريبة من أصوات الأطباق أو الحلق . وهذا يؤكد ما ذكرناه من أن تلك اللهجات عرفت صورتين لنطق الفتحة الطويلة ، كل واحدة منها تظهر في محيط صوتي بعينه . والعبارة الأخيرة في نص سيبويه السابق تشير إلى موقف اللغويين من بعض اللهجات فهو لم يسجل إلا بعض اللهجات ، ورفض الأخذ عن البعض الآخر ، ويبدو أن بعض اللهجات التي رفض سيبويه الأخذ عنها كانت تعرف الإمالة بصورة أكثر ولكن إلى حد ؟ هذا ما لم نستطع أن نعرفه ، فهذه من لغة من لا يؤخذ بلغته ، ولذا لم يجد سيبويه نفسه مطالباً بتسجيلها ودراستها .

(١) الكتاب ١/ ٢٦٠ .

الاتباع = التوافق الحركي

عما سجله سيبويه في كتابه ظاهرة أطلاق عليها «الاتباع»، ويطلق عليها عند اللغويين المحدثين اسم Vowel Harmony أى «التوافق الحركي». وهذه الظاهرة تدخل أيضاً في باب المماثلة، وهى هنا مماثلة-حركة لحركة أخرى مماثلة تامة. فنحن نقول في العربية الفصحى: منه، فوقه، تحته، فنجمل الحركة التالية للهاء ضمة، ولكننا نقول: به، عليه، فيه، فنجمل الحركة التالية للهاء كسرة، والضمير هو الضمير، فلماذا حدث هذا الاختلاف؟ ولنقرأ الفصل الذى عنوانه سيبويه بقوله: هذا ما تكسر فيه الهاء التى هى علامة الاضمار: و اعلم أن أصلها الضم وبعدها الواو، لأنها فى الكلام كله مكناة، إلا أن تدركها هذه اللمة التى أذكرها لك. وليس ينعمهم ما أذكره لك أيضاً من أن يخرجوها على الأصل، فالهاء تكسر إذا كان قبلها ياء أو كسرة... فسكها أمالوا الألف فى مواضع استخفافاً، كذلك كسروا هذه الهاء... فالكسرة هنا كإمالة فى الألف لكسرة ما قبلها وما بعدها نحو كلاب وعابد، وذلك قولك: مررت بـمى وكلدبى مال ومررت بدارمى... وأهل الحجاز يقولون مررت بـمى و قبل، وكلدبى مال، ويقراءون (فخصفتنا بهم وبيدارمى الأرض) فإذا لحقت الهاء الميم فى علامة الجمع كسرتها كراهية الضمة بعد الكسرة، ألا ترى أنهما لا يلزمان حرفاً أبداً. فإذا كسرت الميم قلبت الواو ياء كما فعلت ذلك فى الهاء. ومن قال بدارمى الأرض قال عليهموا مال وبهمو ذلك، (١).

وهذا النص هام، فسيبويه اعتبر أن الأصل فى ضمير الغائب أن تعقبه ضمة طويلة، وهو يتحدث دائماً عن الواو فى هذا الصدد كما لو كان الضمير مكوناً من هاء تليها واو. وقد حدد سيبويه المواضع التى كسرت فيها هذه الهاء فالهاء تكسر

إذا كان قبلها ياء أو كسرة ، فهذه الظاهرة إذن من ظواهر المماثلة ، ولكنها مماثلة
حركة الحركة . عندما تحدث عن وقفه ، فالحركة التي بعد الفاء كسرة طويلة أتت
بكسرة بعد الهاء . عندما تناقش كلمة عليه فالصوت المزدوج (ay) جعل الضمة
كسرة ، وهذا أيضاً ضرب من التوافق الحركي .

ويبدو أن للتوافق الحركي كان يميز بعض اللهجات عن البعض الآخر . فبعض
اللهجات التي كان يعرف التوافق الحركي على هذا النحو الذي تعرفه العربية
الفصحى . ولكن لهجة الحجاز كانت بعيدة عنه كل البعد كما نرى في نص سيويه
عن التوافق الحركي بعدها عن الإمامة . فالحجازيون كانوا لا يقولون (به)
بكسر الهاء ، بل قالوا (به) بضمها ، أو كما كتب في كتاب سيويه
(هو) وكانوا يقولون لديهم (بوار مسبوقة) بضمه ، ولم يقتصر الأمر على
هذا ، بل إن قراءاتهم للقرآن الكريم كانت تعكس لهجتهم المحلية التي لا تعرف
التوافق الحركي . فبينما كان غيرهم يقرأ (فحسبنا به وبداره الأرض)
بكسرة بعد الهاء كان الحجازيون يستخدمون الضم دون أن يستشعروا حاجة إلى
التوافق الحركي .

ويبدو أن التوافق الحركي كان من خصائص لهجة نهم ، وهو ما عده في
الفصحى بينما كانت لهجة الحجاز بعيدة عن التوافق الحركي . ولكن بعض
اللهجات مضت في التوافق الحركي شوطاً أبعد مما تعرفه اللفظة الفصحى .
يقول سيويه ، وواعلم أن قوماً من ربيعة يقولون منهم (بكسر الميم والهاء
والميم) الكسرة ولم يكن المسكن حاجزاً عندهم ، وهذه لغة رديئة ، إذا
فصلت بين الهاء والكسرة فالزم الاصل ، (١) .

(١) الكتاب ٢/٢٩٤ .

فلهجة ربيعة كانت تستخدم صيغة (منموم) بكسر الهاء والميم ، بينما لا تعرف الفصحى اليوم إلا ضم الهاء وضم الميم ، وهو ما قرره سيديويه أيضاً ،
فلهجة ربيعة تمثل طوراً أبعد من الفصحى في التوافق الحركي . فالكسرة بعد
الميم في منهم جعلت حركتي الضمير كسرتين رغم البعد . وهنا يظهر سيديويه الذي
يريد أن يشرح للحياة اللغوية فيقول : وهذه لغة رديئة ،

لاحظ سيديويه أيضاً وجود التوافق الحركي في بعض أبنية الأسماء ، يقول
سيديويه : « وفي فَعَمَلْ لغتان فَعَمَيْلْ وَفَعَيْلْ . إذا كان اللتان من الحروف الستة
(حروف الحاق) مطرد ذلك فيهما لا ينكسر في فعيل ولا فعل . وإذا كان
كذلك في فعيل أو فعل كسرت الفاء في لغة تميم وذلك قولك لثيم (بكسر اللام)
وشهيد وسعيد ورغيف وبخيل ، وشهد (بكسر الشين والهاء) ولعب
وضحك ... أما أهل الحجاز فيجرون جميع هذا على القياس » (١) .

وهذا النص على صعوبته في الصياغة واضح المضمون ، فالكتب العربية تقدم
لنا فعيل (بفتح الفاء) وفعيل (بكسر الفاء) لعدد كبير من المفردات . والصيغة
الآخيرة تمثل صورة من صور التوافق الحركي ، فالكسرة الطويلة بعد العين جلبت
كسرة سابقة على العين عند من يعرفون التوافق الحركي ، ومن ثم فهم يقولون
فعيل ، وهذا خاص بلهجة تميم . أما لهجة الحجاز التي لا تعرف الإمالة أو التوافق
الحركي فتقدم لنا صيغة فعيل بفتح الفاء .

وشبه بهذا وزن فعل عند الحجازيين مثل شهد لعب ضحك ، يقابل هذا
الوزن في لهجة تميم كسر الفاء وكسر العين . وهنا تتفق اللغة الفصحى كما نعرفها
اليوم مع لهجة الحجاز ، ومن الجدير بالبحث أن ننظر إلى المعجم العربي المتورث
في ضوء هذه الاختلافات .

(١) الكتاب ٢/٢٥٥

كسر أحرف المضارعة

كانت كل اللهجات التي اعترف سيويوه بصحة أخذ اللغة عنها تنكسر حروف المضارعة على عكس ما نعرفه في العربية الفصحى اليوم . وكان أهل الحجاز هم من لم يعرفوا كسر حروف المضارعة . قال سيويوه :

« هذا باب ما تنكسر فيه أوائل الأفعال المضارعة للاسماء كما كسرت ثاني الحروف حين قلت فعل وذلك في لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز وذلك . فولهم أنت تعلم ذلك (بكسر التاء) وأنا أعلم (بكسر الهمزة) وهي تعلم (بكسر التاء) ونحن نعلم (بكسر النون) ... وكذلك كل شيء من بنات الواو والياء التي الياء والواو فيهن لام أو عين والمضاعف ، وذلك قوالك : شقيمت فأنت تشقي التي (بكسر التاء) وخشيت فأنا إخشى (بكسر الهمزة) وغلنا فنحن نخال (بكسر النون) .. وجميع ذلك مفتوح في لغة أهل الحجاز وهو الأصل ،^(١) .

وواضح من الأمثلة التي ذكرها سيويوه أن كسر حرف المضارعة كان مطرداً في الفعل الثلاثي في كل اللهجات إلا لهجة الحجاز ، وأن الفعل الناقص أو الأجوف ذا الواو أو الياء كان يعرف كسر حرف المضارعة أيضاً . ولهجة الحجاز أقرب في هذا الجانب إلى العربية الفصحى .

مطابقة الفعل والفاعل

من أم الظواهر اللفظية التي سجلها سيويوه وألقت الضوء على بناء الجملة ظاهرة تطابق الفعل الماضي المقدم مع فاعله في التثنية والجمع .

من المعروف في كتب النحو العربي أن الفعل الذي تلاه فاعله يأتي بصيغة واحدة قبل الفاعل المفرد والمتى والجمع . وهذه الصيغة هي صيغة المفرد الغائب ، مثل :

(١) الكتاب ٢/ ٢٥٦ .

قال رجل ، قال رجلان ، قال الرجال ، قال نسوة . أما المطابقة الكاملة في العدد والجنسين بين الفاعل والفعل فتتسبب في كتب النحو العربي إلى بعض اللهجات ، ذكر البعض أن المطابقة الكاملة من خصائص لهجة طى . وأطلقوا على هذه الخاصية اسم « لغة أكلوني البراغيث » . قال سيبويه : « أعلم أن من العرب من يقولون : ضربوني قوماً ، ضرباني أخواك . فشبهوا هذا بالناء التي يظهرها في قالت فلانة » (٤) ، فهذه الظاهرة إذا مثلنا نجد في بعض اللهجات العربية الحديثة . ولم تكن هذه الظاهرة مقصورة على الحدث اليومي عند طى . فالواقع أن هذه الظاهرة وجدت في بعض اللهجات القديمة ، وفي أبيات من الشعر الجاهلي والإسلامي . وهي مطردة في اللهجات العربية الحديثة .

ما الحجازية

اختلفت اللهجات القديمة في الحالة الاعرابية للإسم الثاني بعد « ما » ، فبعض اللهجات الحجازية تجعل الإسم الثاني بعد « ما » وهو خبرها منصوباً ، أما لهجة تميم فتستخدم هذا الإسم مرفوعاً . قال سيبويه : « هذا باب ما أجرى مجرى ليس في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز ، ثم يصير إلى أصله . وذلك الحرف هو ما ، تقول : ما عبدالله أخاك ، ما زيد منطلقاً . وأما بنو تميم فيجرونها مجرى أما وهل ، وهو القياس لأنه يفعل كليس ، ولا يكون فيه اضمار . وأما أهل الحجاز فيشبهونها بليس ، إذا كان معناها كمنها . . . ومثل ذلك قوله عز وجل (ما هذا بشراً) في لغة أهل الحجاز ، وبنو تميم يرفعونها إلا من عرف كيف هي في المصحف » (٥) .

وبجانب الآية التي ذكرها سيبويه نجد هذه الظاهرة في آية أخرى هي

(١) الكتاب ١/٢٣٧ .

(٢) الكتاب ١/٢٨ .

(ما هن أمهاتهم) قرأها الحجازيون بكسر التاء وذلك باعتبار خبرها منصوباً .
أما النيميون فكانوا يرفعون عملاً برفع الخبر بعد ما .

وهكذا نلاحظ أن لهجة الحجاز تنفق مع العربية الفصحى التي نعرفها مطردة
في الشعر الجاهلي والقرآن في ظواهر ، وتختلف معها في ظواهر أخرى . كما أن
لهجة نهم لا تمثل العربية الفصحى في كل مظاهرها .

٣ - قضية الاستخدام اللغوي للفصحى واللهجات

ثبتت كتب اللغة والنحو وجود اختلافات في اللهجات التي سادت شمال
الجزيرة العربية ووسطها في فجر الإسلام والقرنين الأول والثاني للهجرة . وتختلف
العربية الفصحى كما نعرفها في الشعر الجاهلي اختلافات بعضها عن كل لهجة من اللهجات
العربية القديمة ، حتى أنه من الصعب اعتبار العربية الفصحى امتداداً مباشراً لإحدى
هذه اللهجات فالثابت أنها كانت لغة الشعر . وقد أثار بعض الباحثين منذ أواخر
القرن التاسع عشر قضية لغة الحديث اليومي في جزيرة العرب في هذه الفترة ،
تساؤل البعض هل كانت اللغة الفصحى لغة الشعر فقط أم أنها كانت أيضاً لغة
التعامل في الأمور غير اليومية ولغة التعامل بين القبائل وارتبط بهذا التساؤل تساؤل
آخر حول اللغة التي كان الرسول يستخدمها في قراءته للقرآن ، هل كان يقرأ القرآن
بلهجة الحجاز ، أم وفق الخصائص الصوتية للغة الفصحى أي لغة الشعر الجاهلي .

كان المتعارف عليه عند اللغويين العرب قديماً واللغويين المحدثين حتى أواخر
القرن التاسع عشر أن لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم تمثلان العربية الفصحى^(١) ،

(١) ووصف تولد هذه اللغة الفصحى كما جاءت إلينا في الشعر الجاهلي والقرآن
بأنها هي العربية الكلاسيكية أي العربية الفصحى ، ولذا أطلق تولد هذه على أحد كتبه اسم:
Th. Noldeke, Zur Grammatik des klassischen Arabisch 1896.

والمقصود بهذا أن هذه اللغة لم تكن مجرد لغة أدبية ، بل كانت أيضا لغة التعامل الراقى ولغة التعامل بين أبناء القبائل المختلفة : وقد أثار فولرز وهو متخصص ألماني في اللغة العربية كثيراً من الشكوك حول كون هذه اللغة قد استخدمت في الحديث اليومي و في التعامل الشفوي في الفترة التي ألفت فيها الشعر الجاهلي . ولذا رفض فولرز تسمية هذه اللغة باسم : « العربية الفصحى » ، واقترح تسميتها باسم اللغة « المكتوبة الأقدم » ،^(١) وهذا عد فولرز المعايير المتعارف عليها حول العربية الفصحى والتي يجعلها الأمثلة الواردة في كتب النحو شيئاً مصنوعاً أقامه النحاة ودعوا إليه . ومعنى هذا في رأي فولرز أن لغة الحديث اليومي في عصر تأليف الشعر الجاهلي وفي صدر الإسلام كانت تخلو من عدد كبير من السمات التي تنسب للعربية الفصحى ، ومنها مثلاً الأعراب . فيرى فولرز أن اللغويين العرب صنعوا ظاهرة الأعراب ، ولم يكن لها وجود حقيقي من قبل . أما القرآن الكريم فرأى فولرز اعتماداً على المصاحف المخالفة للمصحف المتداول ، واعتقاداً على بعض القراءات — أنه كان يقرأ في صدر الإسلام على نحو محلي ، أي وفق العادات الصوتية لأهل الحجاز في مكة والمدينة ، أما قراءته وفق معايير اللغة الفصحى فقد كان عملاً متأخراً ، هذه خلاصة رأي فولرز .

ويقوم هذا الرأي على بعض المعلومات التي جاءت بها كتب اللغة والنحو وكتب الطبقات ، مع تجاهل البعض الآخر . فاللغويون العرب في القرن الثاني الهجري لم يعتمدوا على الشعر والقرآن فقط ، بل اعتمدوا أيضا على لغة الأعراب الفصحاء . وكان الأعراب من أهم السمات التي لاحظها اللغويون العرب عند روايتهم ، واعتبروا

(١) أطلق فولرز على لغة الشعر الجاهلي : « älteste Schriftsprache »

وانظر تفاصيل رأي فولرز في :

K. Volkssprache und Schriftsprache im alten Arabien.
Strassburg 1906.

بصححة لغة مجموعة من القبائل ، فعدوا أبناءها حجة في قضايا اللغة ، ولو كانت لغة الحديث اليربوعي عند هذه القبائل تخلو من الاعراب لما أمكن الاعتماد عليها. وليس من الممكن أن ينظم استخدام النهايات الاعرابية في الشعر والقرآن الكريم على هذا النحو المطرد لو أن هذه اللغة كانت مصنوعة . فالاعراب مطرد في الشعر الجاهلي وفي قراءة القرآن الكريم على نحو يجعلنا نتقنع بأنه ليس من حمل النحاة ، بل هو انعكاس للواقع اللغوي الحي . وأغلب الظن أن اللغة الفصحى كانت مستخدمة في الأغراض الفنية وفي التعامل الرفيع بين أصحاب المسكاة في القبائل وفي التعامل بين أبناء القبائل المختلفة . فإذا كانت لغة الشعر الجاهلي لا تختلف باختلاف القبائل بل يقتصر الاختلاف على الاستخدام اللغوي من شاعر لآخر في إطار المستوى اللغوي الواحد فإن الطبيعي أن يكون ترتيل القرآن بهذه اللغة الفصحى التي يحترمها ويتعامل بها أبناء القبائل المختلفة في الأمور الجادة . وإذا كان القرآن ينص على أنه (بلسان عربي مبين) فمن غير المتوقع أن يكون بعد هذا ذا لون محلي . والأقرب إلى طبيعة الأمور أن تكون قراءة القرآني وأن يكون الاستخدام اللغوي في القرآن مطابقا بصفة عامة للمعارف عليه في اللغة الفصحى آنذاك .

لقد عرفت اللهجات القديمة بمجموعة من الظواهر المفردة في المحلية مثل الكشكشة والكسكسة والمجمجة . الخ . والمقصود بالكشكشة إبدال الشين من كاف الخطاب المؤنثة فبدلا من (عليك) يكون نطق هذه الكلمة في اللهجات التي تعرف الكشكشة (عليش) ، وبالمثل (منش) و (بش) . وهناك أشكال للكشكشة وانزال مسموعة في اللهجات البدوية الحالية . وقريب من الكشكشة ظاهرة الكسكسة وهي استخدام الشين مع ضمير المؤنث بدلا للكاف أو ملحقة بالكاف ، فبدلا من : (رأيتك) تكون الصيغة عند بعض القبائل (رأيتكس) ، وبدلا من (أخوك) تنطق بعض القبائل (أخوس) . أما المجمجة فهي ثمرة اختلاط نطق الجيم مع نطق الراء فبدلا من (تميمي) كانت بعض القبائل تقول

(تميمج) (١) . فهذه الظواهر الصوتية المحلية كانت مما أثار انتباه اللغويين العرب . ولكن الشواهد التي جاءوا بها ليبيان هذه الخصائص شواهد شعرية محدودة العدد تتكرر في كل السكتب ، وكأنها انعكاس خافت للهجات المحلية . وبعض الظواهر المحدودة الأثر في الشعر الجاهلي فإن لغته لا تختلف باختلاف القبائل ، ويبدو أن اللغة الفصحى وفق ماعارف عليه القوم آنذاك كان ينبغي لها أن تخلو من مثل هذه الظواهر المحلية . ولذا كان من الطبيعي أن يحاول المسلمون في صدر الإسلام تجنب استخدام هذه السمات المغرقة في المحلية في قراءتهم للقرآن الكريم ، وأن يكون المثل اللغوي المنشود في لغة القرآن الكريم بعيداً عن المحلية في الخصائص اللغوية مثل ما هو بعيد عن المحلية في المذعنون الفسكرى . ولذا فليس من الممكن تصور أن لغة القرآن الكريم تمكس لهجة الحجاز أو أية لهجة أخرى ، بل الأقرب إلى واقع الأمر أن يكون بتلك اللغة الفصيحة المحترمة من الجميع .

لقد شك فوراز في كون اللغة المنطوقة في بحر الاسلام ذات نظام إعرابي واضح المعالم ، وظانها تخلو من النهايات الاعرابية . وقد رد تولدك على فولرز بمجموعة من الأدلة اللغوية مثبتة عدم صحة ماقال به فولرز (٢) . فعلامات الإعراب رفعا ونصبا وحرأ مطردة في اللغة الأكادية على نحو اطرادها في لغة الشعر الجاهلي والقرآن الكريم ولغة القبائل التي أخذت عنها شواهد كتب النحو . والصحيح أن العربية ورثتها كما ورثتها الأكادية عن اللغة السامية الأولى . وقد بقيت من علامات

(١) انظر :

و الصاحبي في فقه اللغة ، لابن فارس ص ٥٢ - ٥٤

وكذلك : السيوطي : المزهري ١/٢٢١ - ٢٢٢ .

(٢) انظر : رد تولدك على فولرز في المقال التالي :

Das klassische Arabisch und die arabischen Dialekte, in :
Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft, 1910.

الإعراب في اللغة الحبشية علامة النصب ، وهي تطابق تمام المطابقة علامة النصب في العربية فما جاء عند النحاة العرب يعد تسجيلا لواقع ينسره ما جاء في النقوش الأكانية والنصوص الحبشية . وإذا كان ثمة شك في الحركات النهائية للفعل الماضي فهو ينتهي مثلا بالفتحة في (كتب) بينما ينتهي دون هذه الفتحة في الهمجات العربية ، فإن العربية الفصحى كانت تعرف نهاية هذه الصيغة بالفتحة كما تعرفها اللغة الأماهيرية إلى اليوم . لقد أثبت نولدكه أن الشك في النهايات الإعرابية للأسماء أو الحركات النهائية للأفعال لا يقوم على دليل ، وأثبت بمقارنة العربية بالأكانية بالحبشية من هذا الجانب أن هذه النهايات لا يمكن أن تكون من صنع النحاة ، بل كان جهد النحاة تسجيلا لها كما وجدوها في الشعر الجاهلي والإسلامي وفي القرآن الكريم وعند القبائل المعترف بفصاحتها .

الفصل الثالث عشر

العربية في المشرق الآسيوي

اتسعت رقعة اللغة العربية بعد تكوين الدولة الإسلامية اتساعاً كبيراً ، فع
الفتوح الإسلامية بدأت الهجرات العربية في المناطق المفتوحة ، ومع ازدياد الهجرات
بدأ استخدام اللغة العربية في هذه المناطق . ومهد هذا لانتشار العربية في هذه الأقاليم
عما أدى إلى تغير الحدود الجغرافية للمنطقة اللغوية العربية تغيراً حاسماً . ولذا تعد
دراسة موجات انتشار العرب في المناطق المفتوحة أساساً ضروريا لفهم موجات
انتشار اللغة العربية .

١ - موجات التعريب في المشرق :

خرجت بطون كثيرة من القبائل العربية في السنوات التالية للفتح الإسلامي
إلى مناطق مختلفة من الشام والعراق وإيران . لقد كانت جماعات عربية تعيش في
بادية الشام وبادية العراق قبل الفتح الإسلامي ، ولكن دخول هذه المناطق وغيرها
في إطار الدولة الإسلامية جعل هذه القبائل وغيرها تتوغل وتستقر في مناطق لم
تكن مجالاً لها من قبل . لقد هاجرت هذه القبائل واستقرت في الأمصار المفتوحة
داخل معسكرات . ثم أدى اختلاط هؤلاء العرب الوافدين مع السكان الأصليين
في هذه المناطق إلى تعريب العراق والشام شيئاً فشيئاً . كانت اللهجات الآرامية المختلفة
تسود الحياة اللغوية في هذه المناطق ، وهي لهجات قريبة من الجوانب الصوتية
والصرفية والنحوية والمعجمية من اللغة العربية ، فالآرامية لغة سامية مثل العربية ،
ولنا لم يكن التحول من الآرامية إلى العربية أمراً صعباً . وليس معنى هذا أن التحول

المغرى تم دون صعوبات ، بل لانزال هذه الصعوبات النفسية واضحة في التأثيرات الآرامية في اللهجات العربية في هذه المناطق . لقد سهل عليهم أن يتحولوا من الآرامية إلى العربية ، ولكن عربيتهم تأثرت بالآرامية فاختلقت عن عربية البسندو في الجزيرة العربية .

ولكن درجة التعريب في الشام والعراق اختلفت من منطقة لأخرى ومن جماعة بشرية لأخرى . فالمناطق السهلة تعربت على نحو أسرع من تعريب المناطق الجبلية ، وما تزال المناطق الجبلية في شمال العراق وفي بعض أنحاء منطقة الشام تضم جماعات لغوية احتفظت بلغتها القديمة منذ الفترة السابقة على الفتح الإسلامي ، فالأقليات الآرامية تعيش في مناطق جبلية وعرة ، وكان صعوبة الاتصال بهذه المناطق قد حالت دون تعريبها . فلم تصل الهجرات العربية إلى هذه المناطق الوعرة ، وبذلك ظلت بعيدة عن تأثيرات التعريب وقتاً طويلاً ، ولا يزال بعضها محتفظاً بلغته القديمة إلى اليوم .

ولم تقصر الهجرات في المشرق على الشام والعراق ، بل امتدت أيضاً إلى أنحاء الدولة الفارسية التي دخلت إطار الدولة الإسلامية المنتصرة . فإذا كانت المصادر تشير إلى وجود جماعات عربية على الساحل الإيراني للتخليج منذ العصر الجاهلي فإن عدد هذه الجماعات العربية زاد في صدر الإسلام باطراد الهجرات زيادة ملحوظة . فقد هاجرت قبائل من عبد القيس كانت تقيم في منطقة ساحل عمان إلى إيران عن طريق الخليج ، استقرت بعض هذه القبائل على الساحل وتوغل بعضها في الداخل ، وظلوا متميزين لغوياً عدة قرون حتى العصر المغولي (١) . ودخلت موجات عربية

(١) حول العرب وهجراتهم إلى إيران ، أنظر :

A. Chriensen, L'Iran sous les sassanides, pp.82-126.

Spuler, Die Mongolen in Iran, Leipzig 1965, 142-49.

وكذلك المصادر المذكورة في مادة « Arab » في الطبعة الإنجليزية الثانية من :

Encyclopaedia of Islam.

أخرى إلى إيران عن طريق العراق . وقد تكونت جاليات عربية كبيرة في القرن الثاني الهجري في مناطق مختلفة من إيران ، فقد كانت هناك جماعات عربية كثيرة العدد في كاشان وهمدان وأصفهان ، بل وكان العنصر العربي سائداً في منطقة «فشم» واسكن أكبر تجمع عربي دخل إلى هذه المناطق استقر في منطقة خراسان ، ففي منتصف القرن الأول الهجري هاجر عدة آلاف من البصرة إلى خراسان وعدة آلاف من السكوفة إلى خراسان أيضاً ، وتناهت الهجرات ، وزادت نسبة العرب في خراسان ، وما تسكاد نصل إلى أوائل القرن الثاني الهجري حتى نجد عدد العرب في خراسان يقدر بما تفي ألف (١) . لم يمش العرب في خراسان في المدن لحسب ، بل عاش بعضهم في الريف الإيراني أيضاً . واختلطوا بصورة متزايدة مع السكان الأصليين .

لقد كان العرب المهاجرين إلى هذه المناطق منتمين إلى قبائل مختلفة ، فقيمهم عرب من بكر ومن تميم ومن عبد القيس ومن الأزد (٢) ، ولكن استقرار هؤلاء العرب في الريف الإيراني واختلاطهم المتزايد مع أبناء اللغات والأهجات الإيرانية خلق في هذه المناطق ظاهرتين متوازيتين عدة قرون ، فقد تعلم كثير من الإيرانيين اللغة العربية كما تعلم كثير من العرب لغة هؤلاء الإيرانيين . وقد كان أكثر العرب في جيش أبي مسلم الخراساني يتحدثون الفارسية . وزادت درجة انتشار الفارسية بين هؤلاء العرب بزيادة ارتباطهم بالمناطق التي عاشوا فيها وانفصالهم عن الارتباط القبلي بجزيرة العرب . لقد كانت هناك قبائل عربية في القرن الرابع الهجري في إيران ،

(١) انظر تاريخ الطبري ١٩٢٩/٢ . وفي عهد قتيبة بن مسلم كان العرب في خراسان على نحو ما وصف البلاذري : « في خراسان يومئذ من مقاتلة أهل البصرة أربعون ألفاً ومن أهل السكوفة سبعة آلاف ومن الموالي سبعة آلاف ، فتوح البلدان ٥٩٦ .

(٢) فتوح البلدان ٥٨٤ ، ٤٠٥ .

ولكن هذه القبائل ذابت شيئا فشيئا ، وأصبح أبناؤها من أبناء اللغة الفارسية ، وما أن أصبحت اللغة الفارسية اللغة الرسمية في البلاد حتى قل تمسك هؤلاء العرب باللغة العربية ، وبذلك لم يؤد تيار الهجرة العربية إلى إيران إلى النتيجة التي أحدثها تيار الهجرة العربية إلى الشام والعراق .

٢ - العربية في العصر الأموي :

وكان العرب يمثلون في ذلك الحكم الأموي طبقة أرسقراطية مترفة ، وهذه الطبقة تعتمد على أمرين يربطان أفرادها ، أولهما : الأصل البدوي ، والثاني : القدرة على التحديث بالعربية كأحد أبناء البادية . وفي ظل هذا المجتمع كانت الطبقات الدنيا والوسطى ما تزال مرتبطة إن قليلا أو كثيرا باللغات التي سادت المنطقة قبل الفتح الإسلامي ، كانت القبطية لغة الطبقات الدنيا في المجتمع المصري وكانت اللهجات الآرامية تسود لدى معظم سكان الشام وبعض مناطق العراق ، وكان المغرب العربي يستخدم عددا من اللهجات البربرية . وفي شرق الدولة الإسلامية أي في أقاليم إيران والمناطق التي بعدها كانت لغات الحديث بمجموعة من اللهجات الإيرانية . وفوق هذا وذلك فقد كانت العربية الجنوبية وهي لغة تختلف عن العربية الشمالية ما تزال سائدة في مناطق شاسعة في جنوب جزيرة العرب ، ولذا فقد كان للحدث بالعربية دليلا على التفوق الاجتماعي ، بينما كان استخدام اللغات أو اللهجات الأخرى دليلا على الضعة الاجتماعية (١) .

في ظل هذه الظروف كان من الطبيعي أن يحرص سادة المجتمع على تنشئة أبنائهم في بيئة عربية بدوية حتى يستقيم لهم الانتظام في الطبقة الحاكمة وحتى يتضح تميزهم

(١) حكى البلاذري : « لما قدم (الوالي) أمر كاتبه بقراءة ، وكان لحانا ، فقال سعيد (=الوالي) : أيها الناس : إن الأمير يرى عما تسمعون من هذا اللحن ، فتوح البلدان ٦٠١ .

عن الطبقات الدنيا . والكتب العربية حافلة روايات تروى لنا أن سادة المجتمع وأمرأه البيت الاموى كانوا ينظرون نظرة فزع إلى أى خطأ لقوى يقع فيه أبنائهم ، وكانوا يحرصون كل الحرص على أن يستخدم أبنائهم اللغة العربية وينطقون بها ، على النحو الذى يعرفه البدو الذين لم تفسد لغتهم بالاختلاط بالأعاجم (١) .

وأهم ما يلاحظ فى تاريخ اللغة العربية ابتداء من الثلث الاخير من القرن الاول الهجرى أنها أصبحت ذات مكانة مرموقة وطيدة فى الدولة الاسلامية ، وذلك لعدة أسباب أهمها أن :

١ - العربية أصبحت اللغة الرسمية للدولة الاسلامية ، فقد عرّبت الدواوين حوالى سنة ٨٨٧/٥٧٠ م .

٢ - العربية كانت لغة الطبقات الحاكمة فى المجتمع ، وكان إستخدام الفصحى دليلاً على الرقى وعلى المسكينة الاجتماعية .

٣ - العربية المولدة أى التى بها أخطاء كانت لغة الطبقات الدنيا فى المجتمع .

٤ - العربية الفصحى ظلت لغة الشعر الذى تعزبه الطبقات العليا من المجتمع .

٥ - العربية هى لغة الدين ولغة القرآن الكريم ولغة العبادات (٢) .

كان تعلم العربية أساس العمل فى الدواوين ، وأقبل كثير من غير العرب على هذه الاعمال بعد تعلمهم العربية وإجادتهم للكتابة بها ، مما دفع أقرانهم إلى محاكمتهم ، وكان ينظر طوال العصر الاموى إلى إجادة النطق بالعربية على أنها صفة من صفات الأرسقراطية العربية . ولذا كان سادة البيت الاموى يرسلون أبنائهم إلى البادية

(١) انظر المواضيع المذكورة فى كتاب « العربية » ليوهان فك ٢٦-٢٧ .

(٢) انظر الدراسة التى خصصها يوهان فك I Fock لهذا الموضوع فى كتابه :

« العربية ، دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب » ص ٥ وما بعدها .

لينشأوا في جو عربي بدوي وحتى يدرجوا على استخدام العربية على النحو الذي كان معروفا عند البدو . وكان سادة البيت الاموي يفزعون أشد الفزع عند ملاحظاتهم لبعض الاخطاء اللغوية عند النائمة من أبنائهم فقد كانوا يمتزجون بالعربية في صورتها البدوية اعزازهم بأصلهم البدوي .

وأقبل كثير من الأعاجم على العربية لا لمجرد التمييز بها تعبيراً بقى بمطالب الحياة اليومية بل كي يرتفع في المجتمع ، فزياد الأعجم — وهو كما يبدو من اسمه من أصل غير عربي — تعلم العربية لينطلق إلى التأليف في الشعر . وكان ينظم الشعر رغم أن نطقه مشوب بالسكنة الأجنبية ، حتى أن أحد الولاة أهداه غلاماً ما سلم التطق ليقوم بالقاء شعره «^١» . وقد كان شعره القديم على النمط القديم حتى أن سيبويه لم يجد غضاضه في الاستشهاد بأبيات من شعره ، ويبدو أن ابن قتيبة حين ذكر أن زياد الأعجم كثير اللحن ، كان يمتنى عدم قدرته على التعامل الشفوي بلغة عربية سليمة .

حاولت الطبقات غير العربية في المجتمع الاسلامي تعلم اللغة العربية ، فالعربية لغة القرآن الكريم ولغة الصلاة ، وقد أدى دخول أكثر سكان المناطق المفتوحة في الاسلام إلى ظهور الرغبة لدى هؤلاء في دراسة القرآن الكريم فهمم أحكام الاسلام وللعمل في ضوئها ، ولذا كان الاشتغال بنص القرآن الكريم ومحاولة فهمه وتقريبه أول مظهر للبحث العلمي في المجتمع الاسلامي .

وقد حدث الانتقال إلى العربية شيئاً فشيئاً ، فالتحول اللغوي سواء في لغة الكتابة أم لغة الحديث لا يحدث في جيل واحد بل يمتد إلى أكثر من جيل . وتعتمد سرعة الانتقال أو التحول من لغة إلى أخرى على مجموعة من العوامل منها مدى القرابة بين اللغة القديمة واللغة الوافدة . ومن المعروف أن الانتقال من لغة

(١) الاغانى ١٤/١٠٢-١٠٣ .

سامية إلى لغة سامية أخرى سهل ميسور ، ولذا فقد تعربت منطقة الشام والعراق في مرحلة مبكرة نسبياً ، فقد كانت اللهجات الآرامية السكثيرة عدداً والمتقاربة في بنيتها تسود هذه المنطقة . وهذه اللهجات قريبة من العربية في أكثر من جانب ، وكان من السهل على المتحدث بالآرامية أن يتعلم العربية بينما لم يكن الانتقال من القبطية أو البربرية إلى العربية سهلاً قريب المآل . ولنا تم تعريب مصر في فترة أطول من الفترة التي عربت فيها سوريا والعراق والجنوب العربي . ويفضئ أن نشير إلى أن المناطق الجبلية تستصعب على التحول اللغوي والديني ، ولذا فالمناطق غير السهلة في العراق لا تزال تحتفظ بلغات قديمة سبقت العربية في المناطق هذه وأكثر سكان هذه القرى غير العربية لم يدخلوا الدين الإسلامي . ويلاحظ أن القرى الآرامية في سوريا مثل المملولة ، وفي العراق مثل القوش تقع في مناطق جبلية وعرة . ويبدو أن تعريب المناطق الجبلية أو النائية في سوريا والعراق امتد وقتاً أطول من زمن تعريب المدن ومناطق السهول .

٣ - الجاحظ وملاحظاته اللغوية :

يحل الجاحظ إعجاب وإعجاب عصره بحديث الأعراب ، يقول : ، ليس في الأرض كلام هو أمتع ، ولا أرق ، ولا أذ في الأسماع ، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة ، ولا أفنق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان ، من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء ، والعلماء البلغاء (١) . وهذا الكلام يعان موقفاً عاماً في القرن الثاني للهجرة .

وقد لاحظ الجاحظ اختلاف لهجات الأمصار الجديدة ، وعلل هذا تعليلاً علمياً سليماً ، فقال بأن الاختلاف يرجع إلى لهجات القبائل الوافدة التي احتك بها واتصل بها السكان الأصليون في تلك المناطق . يقول الجاحظ : ، وأهل الأمصار إنما

(١) البيان والتبيين ١/١٤٥ .

يتكلمون على لغة التنازلة فيهم من العرب ، ولذلك نجد الاختلاف في ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر ،^(١) . فسكان البصرة يستخدمون كلمة (قدر) والجمع (قدور) ، لأن العرب الذين نزلوا البصرة كانوا يستخدمون الكلمتين ، بينما يستعمل أهل مكة كلمة (برمة) والجمع (برام)^(٢) . وسمى أهل مكة البيت إذا كان فوق البيت (عِلِّيَّة) ، وجمعها (علالي) ، بينما أطلق عليها أهل البصرة (الفرقة) ، والجمع : (الغرفات والغرف) . ويستخدم أهل مكة كلمة (الكافور) بينما يتحدث أهل البصرة عن الطلع^(٣) .

وفوق هذا وذاك فإن الجاحظ لاحظ انتشار الألفاظ الفارسية في المدينة والبصرة والكوفة : يقول ، ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم أناس من الفرس ، في قديم من الدهر علقوا بالألفاظ من ألفاظهم ، لذلك يسمون البطيخ (الخربز) ويسمون السميط (الرزديق) ويسمون المصصوص (المزوز) ويسمون الشطرنج (الاشرنج)^(٤) . . . كما يسجل الجاحظ أيضا أن أهل البصرة إذا التفت أربع طرق يسمونها مربعة ، ويسمونها أهل الكوفة الجهارسوك والجهارسوك بالفارسية ، ويسمون السوق أو السويقة وازار ، والوازار بالفارسية ، ويسمون القناء خيارا ، والخيار فارسية ،^(٥) .

سجل الجاحظ بعض العبارات التي استخدمت في لغة الحديث اليربوعي بين الجيش العربي الفاتح وبين المتعاونين معه من الأمصار المفتوحة ، وهذه العبارات على قلتها

-
- (١) البيان ١٨/١ .
 - (٢) البيان ١٩/٢ .
 - (٣) البيان ١٩/١ .
 - (٤) البيان ١٩/١ .
 - (٥) البيان ٢٠/١ .

تعمكس صورة من الحياة اللغوية في ذلك العصر ، ورغم أنها ممسوخة إلا أنها طريقة
يمكس الجاحظ أن الججاج قال لآحد تجمار الدواب الخرسانيين الذين كانوا يبيعون
الدواب للجيش الإسلامي :

الججاج : أتبيع الدواب المصيبة إلى جنس السطان ؟

التاجر : شريكنا في هوازا ، وشريكنا في مداينها ، وكما تيجي تكون .

الججاج : ما تقول وبلك .

فقال بعض من كان قد اعتاد سماع الخطأ حتى صار يفهم مثل ذلك :

يقول : شركاؤنا بالاهواز والمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب فنحن نبيعها على

وجوهها (١) .

يلاحظ في هذا النص أن الججاج لم يفهم ما قاله التاجر الخراساني ، وهذا أمر
لا نستبعده ، فمن درج على استخدام اللغة متحدثا وسامعا وفق نسق معين لا يفهم
نفس اللغة إذا استخدمت بطريقة مختلفة عما درج عليه . اللهم إلا إذا كان لديه
مران على فهم هذه اللغة المهجين . وإذا نظرنا في الجملة التي قالها التاجر
نلاحظ أنه استخدم كلمة (شريكنا) بدلا من (شركاؤنا) ، وبذلك لم يعرف
المتحدث صيغة الجمع الصحيحة (شركاء) ، وهي صيغة جمع تكسير . وجمع
التكسير ذو صيغ متعددة في العربية ، ولذا كان صعبا عليه . ولكنه لم يجمع
هذه الكلمة على نحو عربي ، بل أضاف علامة الجمع في الفارسية (ان) ، وبذلك
نشأت هذه الصيغة المهجين ، كلمة عربية ونهاية جمع فارسية . نلاحظ أيضا في
الجملة التي قالها التاجر استخدام النسبة إلى الاهواز بأن قال (هوازا) على نحو
لم تعرفه العربية ، والجملة مختصرة اختصارا شديدا لا تكاد تفضي على النسق الذي
عرفته لغة الشعر الجاهلي والقرآن الكريم .

(١) البيان ١٦١/١ - ١٦٢ .

سجل الجاحظ أيضا عبارة مشابهة ، يقول الجاحظ : « وقتك لخادم لي : في أي صناعة أسدوا هذا الغلام ؟ قال أصحاب سند نعال ، يريد : أصحاب النعال السندية » (١) . نلاحظ هنا التعبير المركب (سند نعال) بدلا من التعبير العربي النعال السندية أو نعال السند ، والعربية لا تعرف هذه التعبيرات المركبة ، وإنما تعبر عن هذا المعنى بالموصوف والصفة أو المضاف والمضاف إليه . ولكن بعض اللغات الهندية الأوروبية ، والفارسية لغة منها تعرف التعبيرات المركبة . وواضح أن مستخدم التعبير (سند نعال) متأثر بالأساس اللغوي الفارسي .

وبلاحظ الجاحظ أن هذه العبارة الغريبة عن الذوق العربي لم تكن سهلة الفهم على من لم يمتد سماع مثل هذا . ويعني الجاحظ فيقول : « ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم : ذهب إلى أبو زيد ، ورأيت أبي عمرو ، ومتى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا وأشباهه . به رجوه ولم يسمعوا منه ، لأن ذلك يدل على طول إقامته في الدار التي تفسد اللغة وتنقص البيان » (٢) .

ومن الطريف أن نجد عند الجاحظ ملاحظات قيمة عن أثر الأساس اللغوي في تطور متعلمي العربية من الشعوب المفتوحة . يقول الجاحظ ، وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ، وقد يكون لفظه متخيرا فأخرا ، ومعناه شريفا كريما ، ويعلم مع ذلك السامع من الكلام ومخارج حروفه أنه نبطي وكذلك إذا تكلم الخراساني على هذه الصفة فإنك تعرف من إعرابه وتخيير ألفاظه في مخرج كلامه أنه خراساني ، وكذلك إن كان من كتاب الأهواز . ومع هذا فإننا نجد الحاكية من الناس من يحكي ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يفاد من ذلك شيئا ، وكذلك تكون حكايته للخراساني ، والأهوازي ، والزنهني ، والسندي

(١) البيان ١/١٦٢ .

(٢) البيان ١/١٦٢ - ١٩٦٣ .

وغير ذلك . نعم حتى تجده كأنه أطبع منه ، (٢) .

وفي موضع آخر يوصل الجاحظ . بطريقة أدق ما لوحظ . من أثر للاساس اللغوى الاجنبى فيقول : « ألا ترى أن السندى إذا جلب كبيراً فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زاياً ، ولو أهلم في علياً تميم ، وسفلى قيس ، وبين عجز هوزان خمسين عاماً . وكذلك النبطى القح خلاف المغلاق الذى نشأ في بلاد النبط ، لأن النبطى القح يجعل الزاى سيناً . أراد أن يقول زورق قال سوزق ، ويجعل العين همزة ، (٣) .

وفي مواضع أخرى يسجل الجاحظ أن أبا مسلم الخراسانى لم يكن يستطيع النطق بالقاف ، فكان يقول بدلاً من : قلت قلت ، ومن : قمر كمر (٤) ، والملاحظ أن القاف من أصوات الاطباق التى لا تفرقها الفارسية ، ولذا كانت صعبة النطق على فارمى يتعلم العربية ، ويروى الجاحظ أن زياداً الأعجم كان يجعل السين شيئاً (٥) ، ويفهم من هذا النص أنه لم يكن يميز بينهما تمييزاً واضحاً ، وكان زياد الأعجم لا ينطق الطاء كما ينبغى أن يكون ، بل يجعلها تاء ، أى أنه لم يستطع نطق الطاء المطبقة وأبدلها بصوت غير مطبق ، كما لاحظنا عند أبى مسلم الخراسانى . وذكر الجاحظ أن بعض مواطنى الدولة الإسلامية من غير العرب لم يكونوا يميزون تمييزاً واضحاً بين الدال والذال (٦) . ولا شك أن هؤلاء كانوا من بيئة لغوية لا تميز بين الدال والذال ، فالذال والذال في الآرامية مثلاً صورتان صوتيتان

(١) البيان ٦٩/١ .

(٢) البيان ٧٠/١ .

(٣) البيان ٧١/١ .

(٤) انظر ايضاً ، فك : المرية ٣٣ - ٣٤ ، البيان ٧١/١ .

(٥) البيان ٧٤/١ .

لوحة صوتية واحدة . ونظراً لأن استخدام صورة صوتية في أية لغة محل صورة صوتية أخرى لنفس الوحدة الصوتية لا يغير المعنى . فلم يكن المتحدث بالأرامية يجد فرقا في المعنى بين استخدام الدال محل الذال، أو الذال محل الدال .

ويطلق الجاحظ . على ظاهرة عدم قدرة المستمعين على النطق بالأصوات العربية اسم : اللسنة ، بضم اللام . يقول الجاحظ : ويقال في لسانه لكنه إذا أدخل بعض حروف المعجم في حروف العرب وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول ، (٢) .

فاصطلاح اللسنة محدد بهذا النوع من الخطأ في النطق ، واللسنة أثر مباشر للأساس اللغوي . وكل الأصوات العربية التي لم تعرفها لغات الأساس اللغوي تشكل نوعاً من الصموية وتنطق بلسنة .

ينبغي أن نقف قليلاً عند المصطلحات الأخرى المعبرة عن العجز في الأداء النطقي عند الجاحظ . أهم هذه المصطلحات الحبسة والحكلة والثقة ، وكلها بوزن فمكلة ، بضم الفاء . يقول الجاحظ : ويقال في لسانه حبسة إذا كان الكلام يتقل عليه ولم يبلغ حد التأفاه والتتمام . . . وإذا فالوا في لسانه حكلة فإنه يذهبون إلى نقصان آلة المنطق ، (٣) . ويعني الجاحظ بكل من الحبسة والحكلة عيبين من عيوب النطق على المستوى الفردي ، وينبغي أن نذكر أن كليهما مرتبط بالظروف الخاصة للفرد ويخرج عن نطاق البحث في اللغة كنظام إلى البحث في اللغة كظاهرة نفسية ، أي أن دراسة اللسنة والحبسة ليست من البحث في اللغة بل هما من علم النفس اللغوي وعلم الأصوات العلاجي . فعلم اللغة يعني باللغة كظاهرة

(١) البيان ١/٣٩ - ٤٠ .

(٢) البيان ١/٤٠ .

اجتماعية ، ولا يتم بالاختلافات الفردية إلا إذا أصبحت سارية المفعول في المجتمع
معنى الحُيُسَّة عند الجاحظ عدم السلاسة في النطق ، ومعنى الحُسْكُتَّة عدم كتمال
العادات الصوتية وعدم قدرة الجهاز الصوتي ، أو كما يقول الجاحظ ، نقصان آلة
عن النطق الواضح المبين .

٤ - العربية بين البداوة والحضارة

كانت لغة البدو حتى القرن الثاني من الهجرة موضع إعجاب ، وكان
البدو حجة في أمور اللغة، وكان لإيهم المرجع إذا اختلف النحاة ، وكثيراً ما اختلفوا
فعرفت مجتمعات العراق عدداً من البدو الوافدين المعتمدين على ثقة المجتمع في
صحة لغتهم ، جاء هؤلاء واستقروا على مقربة من المدن يبيعون الغريب اكل نحوي
يلجأ لإيهم وكل لغوي ينشدهم مادة لكتاب أو لرسالة . وعندما اختلف سيبويه
مع الكسائي في مدى صحة التمييزين : (فإذا هو إياها) أو (فإذا هو هي)
احتكما إلى البدو ليجندا عندهم الخبر اليقين (١) . ويفسر البعض اختلاف الضوابط
البصرية في النحو مما قال به الكوفيون بأن هذا يرجع إلى اختلاف لهجات البدو
الذين أخذ عنهم كل فريق . ومن المعروف أن النحاة العرب لم يحاولوا توزيع
الظواهر اللغوية بأن يقرروا لسكل قبيلة ما عندها من أصوات وأبنية ، بل
نظروا إلى كل هذا بمقياس الصحة والخطأ ، واعتبروا البدو حجة لا يرقى إليها الشك ،
وكان ينظر إلى كل اختلاف بين اللهجات بمقياس الصحة والخطأ وبهدف المفاضلة
بين الصور اللغوية إن كانت كلها بدوية ، بأن يقال هذا فصيح وهذا أفصح .

(١) ياقوت الحموي : ارشاد الأريب ١٣/١٨٧ ، وعبارة الكسائي : هذه
العرب في بابك قد جمعتم من كل أوب ، ووفدت عليك من كل صقع ، وهم فصحاء
الناس وقد قنع بهم أهل المصيرين ، وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم
فيحضرون ويسألون .

كان الامريون مرتبطين بالبادية مؤمنين بتشيشة الابناء في بيثة لغوية بدوية ، ولكن المباسيين آمنوا بضرورة إجادة الابناء للعربية ، غير أنهم لم يكولوا مرتبطين فسكرايا أو عاطفيا بالمجتمع البدوي ، وأرادوا لابنائهم حياة رغدة في قصور بغداد ومعرفة جيدة بالعربية ، ولهذا ظهر الأعراب في قصور السادة الجدد يعلون اللغة . وهكذا اختلفت الصورة ، قديما كان الابناء يرسلون إلى البادية ، وفي القرن الثاني كان الأعراب يقدون إلى القصور يعلون اللغة .

ويبدو أن المتقفين في القرن الثاني من الهجرة كانوا يجاولون استخدام العربية الفصحى في حديثهم ولم يقصروها على الكتابة ، وهناك مجموعة من الاخبار تروى أن حماد الرواية وكان يكذب ويلحن ويكسر ، أو أنه «لحنه لعانة» ، ويروي عن حماد أنه قال عن نفسه «اني رجل أ كلم العامة فأتمكلم بكلامها» . ويروي البعض أن هذا الاتهام إنما نشأ من التأثر بالخصومة التي كانت بين حماد وبين غيره من الرواة^(١) . كما يروي أن الفراء ، وهو نحوي كوفي ، لحن مرة بمحضر هارون واعتذر قائلا بأن اللحن عند سكان المدن كالإعراب عند أهل البادية .

وإذا نظرنا إلى طبيعة الأخطاء التي تنسب إلى المتقفين في القرن الثاني لاحظنا أنها تناول الخلط بين الحالات الإعرابية ، كأن يقول أحدم (أن نقم) بالجزم بدلا من (أن نقرم) بالنصب ، أو أن يستخدم متحدث حالة النصب بمد حرف جر كان يقول (بخيرا) وكأنه يقول (خيرا) ، أو أن يخلط المتحدث بين صيغ الممدود وصيغ المقصور كأن يقول (ققاء) بدلا من (قفا)^(٢) . وهذه الأمثلة

(١) انظر طبقات الشعراء لابن سلام ص ١٥ (طأوريا) ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٣/١٤٥ ، والأغاني (دار الكتب ٧١/٦) ، وقد جمع هذه المواضع يوهان فك في كتابه : العربية ٦٢ - ٦٣ .

(٢) انظر : العربية ٦٨ - ٧٠ ، والمراجع المذكورة به .

نادرة ولكنها تمكس أمرا مأخوذا من لغة الحديث اليومي ، لا لغة الكتابة .
وتدرة هذه الامثلة دليل على أن لغة الحديث عند متفقي القرن الثاني كانت هي
الفصحى أو أنهم حاولوا استخدام الفصحى ، ولو كان حديثهم باللهجات المحلية
لما لوحظت هذه الأخطاء . كانت الفصحى لغة المثقفين ، بينما كانت اللهجات
المحلية وسيلة التفاهة عند السواد الأعظم من سكان الدولة الإسلامية .

على أن محاولة الابتعاد عن اللهجات المحلية وتوهم الاختلاف الشاسع بين
الفصحى واللهجات المحلية في غير أماكن هذا الاختلاف دفع إلى عدد من الأخطاء
وإلى خروج على ضوابط البنية اللغوية الفصحى . فالقارىء نافع يجمع كلمة (معيشة)
على (معاش) بينما الصيغة القياسية (معاش) ، لأن الأخيرة لا تعرف الهمزة (٣) .
والهمزة من الظواهر التي تميز العربية الفصحى عن بعض اللهجات القديمة ، فأراد
نافع أن يجعل الكلمة فصيحة فأضاف إليها الهمزة في غير موضع لها . فقد اعتقد
أن المقرد (معيشة) على وزن (فعيلة) دون أن يعلم بان الميم هنا ليست من
أصل الكلمة ، وجمع فعيلة فمائل ، مثل : كريمة كرائم ، ولكن معيشة هي في
واقع اللغة بوزن مفعلة الذي يجمع على مفاعل ، فتكون صيغة الجمع القياسية
معاش بلا همزة ، ولكن هذا لم يدر في ذهن من جمع معيشة على معاش لأنه
يعتقد أن الهمزة تكسب الكلمة طابعا فصيحيا ؛ فأضافها في غير موضعها ، ويطلق
على هذه الظاهرة اسم ، Overcorrectness أى المبالغة في تقليد الفصحاء أو
الفاصح .

ودفع الإعجاب بلغة البدو إلى محاولتهم إظهار اختلافهم في النطق عن أهل
الحضر ، فكانوا يتشدقون أو يتشادقون وكانوا يحتفلون بالغريب ويهتمون به
غاية الاهتمام ، ولذا نجد في كتب اللغويين اهتماما بالغريب ، أى بالالفاظ

(١) - سورة الاعراف / ١٠ ، شرح المفصل لابن يعيش ١٤٣٤ .

الغريبة النادرة . وحاول بعض البدو إرضاء رغبة اللغويين في استخدام الغريب ولعلمهم به . وفي هذا الإطار اخترعت بعض الشخصيات الأسطورية وأسبوا إليها بعض الأفاضل (١) . يروى عن أبي علقمة أنه كان نحوياً ، ولا تذكر كتب الطبقات أى شيء عنه ، أو عن تلاميذه ، أو عن مؤلفاته ، أو عن آرائه . إنها لا تذكر أى شيء إلا أنه كان مريضاً ، وذهب للطبيب فأخبره بعبارة غريبة لا تفهم ، فرد عليه الطبيب بعبارة لا تفهم لانتقل غموضاً ، وعندما رد أبو علقمة قائلاً للطبيب : لم أفهم ما قلت ، قال الطبيب : وهل فهمت أنا ما قلت . وهناك رواية أخرى عن عبارات تنسب لأبي علقمة هي عبارات اخترعت اختراعاً ، ولكنها تعبر عن روح العصر . كان هذا في إطار ولعلمهم بالغريب والألفاظ النادرة البدوية ، وتعبيراً عن روح العصر في تمجيد الحياة البدوية .

دخلت العربية في العصر الأموي مجالاً جديداً هو مجال التأليف ، فإذا نظرنا في التراث العربي قبل ذلك العصر لاحظنا أنه يتركز في الشعر القديم والأمثال . يضاف إلى هذا أن القرآن الكريم بالعربية . لم يعرف المجتمع التأليف بالعربية واستخدامها ك لغة كتابة إلا في العصر الأموي . وكان ابن المقفع المتوفى سنة ١٤٢ هـ من أوائل من استخدم العربية لغة كتابة وقد ترجم من البهلوية إلى العربية مجموعة من الكتب منها « خدای نامه » ، « أخبار الملوك » ، كما ترجم أيضاً كتاب : « كلية ودمنة » (٢) ، وبذا دخلت العربية إلى مستوى جديد من مستويات الاستخدام اللغوي ، فلم تعد العربية لغة الشعر فقط بل أصبحت أيضاً لغة التأليف والثقافة . فكان على كل من يعيش في الدولة الإسلامية وبرغب في الإسهام بالتأليف أو بالترجمة أن يتعلم العربية ليترجم إليها أو يكتب بها أو يفهم المأثور الذي كتب بها .

(١) ياقوت الحموي : إرشاد الأريب ١٢/٢٠٥ - ٢١٥ .

(٢) - الفهرست ٦٧ ، وفك : العربية ٥٥ - ٥٧ .

ولاشك أن استخدام العربية في مستويات جديدة دفع إلى تجديدات لغوية بغية المدى ، فسيبويه يتحدث عن (الاسم) و (الفعل) و (الحرف) كاصطلاحات ذات معنى محدد ، وشتان بين المعنى القديم لهذه المفردات في لغة البادية اليومية وبين المعنى الاصطلاحي المحدد ، فسيبويه خلغ على هذه الكلمات مدلولاً علمياً وهو حين تحدث عن (الهمس) و (الجهر) و (المخارج) ابتكر اصطلاحات استقاها وانتقاها من لغة الحديث ، واستخدمها كاصطلاحات علمية ، محددًا معناها تجديدًا يتفق وطبيعة الاصطلاح العلمي . وعندما اكتشف الخليل أوزان الشعر العربي وضع لهذه الأوزان أسماء لم تكن تخاطر لأشعراء على بال ، لقد أخذ اصطلاحات (الطويل) و (الخفيف) و (البسيط) و (الكامل) . الخ من لغة الحياة العامة ، واستخدمها بدلالة جديدة . وفي كل فروع المعرفة نجد ظهور اصطلاحات علمية مع ظهور العلم نفسه .

ومن الطريف ملاحظه الجاحظ بشأن المصطلحات التي استحدثت وجودها العلوم المختلفة التي جددت في العصر العباسي ، فلاحظ أن المتكلمين اشتقوا من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلاحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم ، فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع . ولذلك قالوا العرض والجوهر وأيس وليس ، وفرقوا بين البطلان والثلاثي وذكروا الهذبية والهوية والماهية وأشباه ذلك ، كما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقاباً ولم تكن العرب تتعارف تلك الأعارض بتلك الألقاب وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، كما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك ، كما ذكر الأوتاد والأسباب والحرم والزحاف . . . وكما سمي النحويون فذكروا الحال والظرف وما أشبه ذلك . . . وأصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء وجعلوها علامة للنظام (١) .

(١) البيان والبيان : ١٣٩/١ - ١٤٠ .

فالجاحظ لاحظ وضع هذه الأسماء كمصطلحات علمية ، وهذه التكتلات إما جديدة في الصياغة مثل الماهية أو ذات معنى اصطلاحى جديد مثل البسيط والسكامل . وهكذا دخلت العربية عصر الثقافة الإسلامية ، كانت لغة بعض القبائل البدوية في شمال جزيرة العرب فصارت لغة الدولة الإسلامية من إيران إلى الأندلس ومن الشام إلى اليمن ، وكانت لغة الحياة اليومية البسيطة فأصبحت لغة العلوم وأداة حضارة راقية .

عندما كانت العربية لغة بعض القبائل البدوية في شمال ووسط جزيرة العرب كانت اللغة تعيش دون موقف مدرسى أو تقنين نظرى ، كانت في مرحلتها البدوية المتأثرة بما تأثر به الحياة اللغوية ، من مؤثرات غير مدرسية . لم يكن هناك موقف مدرسى أو دينى تجاه اللغة ، ولكن خروج القبائل مع الجيوش الإسلامية داعية للإسلام معركة الأقاليم المفتوحة أحدث تغيرا لغويا ، وظهرت عند المستعربين ظواهر جديدة أزعجت الحس اللغوى لمن كان قد أعجب بالعربية البدوية ومن وجد في لغة القرآن الكريم اللغة المثلى والنموذج الممتاز للتميز اللغوى . خرج اللغويون لجمع اللغة من القبائل التى أعجب العصر بفصاحتها ، ورفضوا أخذ اللغة وتعلمها عن باقى القبائل ، ومعنى هذا أن تعلم اللغة الفصحى متاح لمن أراد إذا اتجه هادفا لذلك نحو بعض القبائل . كان مجتمع الشام والعراق يريد العربية ، ولكن إعجابهم بالبداوة وبحياة البادية قل مع الأجيال التى لم تعرف حياة البادية ، لقد أرادوا العربية وحياة الحضارة .

وما أن بدأت حركة التأليف العلمى فى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة حتى بدأ التأليف أيضاً فى تعليم اللغة العربية . فقد ظهرت الرسائل اللغوية التعليمية الأولى فى ذلك الوقت ، وكتبت رسالة صغيرة فى « لحن العامة » تنسب للغوى الكوفى الكسائى^(١) . يضم هذا السكتيب مجموعة من المفردات التى شاعت فى القرن

(١) طبعت هذه الرسائل ضمن : ثلاث رسائل ، تحقيق عبد العزيز الميمنى ،

القاهرة ١٣٨٧ .

الثاني في صورة رفضها اللغويون لمخالفتها للبأثور عن لغة فصحاء البادية . فالمؤلف يعتبر صيغة فعلول بفتح الفاء مثل عصفور ، برغوت ، صيغة فاسدة ، لأن المأثور عن لغة فصحاء البادية وزن فعلول بضم الفاء لا يفتحها .

أكد الكسائي أيضاً أن وزن فعيل يستخدم للمؤنث دون تاء التأنيث ، وأن إضافة التاء خطأ . والكتاب يعكس بهذه الملاحظات الصورة المضادة للاستخدام اللغوي كما عرفه القرن الثاني للهجرة . ونحن لانظر نظرة الكسائي بأن نحكم عليها بالخطأ أو بالصواب ، بل نحاول أن ننظر إليها كجزء من واقع لغوي عرفه القرن الثاني للهجرة .

أراد الكسائي أن يعلم برسالته في « لحن العامة » الاستخدام اللغوي الصحيح ، وهذا ما أراده ثعلب أيضاً بكتابه « الفصيح »^(١) . وبعد ثعلب أهم نحوي ولغوي عرفته مدرسة الكوفة في القرن الثالث للهجرة ، وقد ألف عدة كتب منها كتاب « الفصيح » الذي يسمى كثيراً باسم « فصيح ثعلب » ، ذكر ثعلب فيه الالفاظ الفصيحة التي يود تقديمها لمن أراد تعلم اللغة الفصحى في صورتها المأثورة القديمة اليدوية . أما ابن قتيبة وهو مؤلف آخر من القرن الثالث الهجري فله كتاب بعنوان « أدب الكاتب » ، خصص المؤلف فيه فصلاً عن اللغة وذكر فيه بعض إرشادات تعليمية تمين على استخدام اللغة الفصحى في صورتها المأثورة^(٢) .

(١) ذكر ثعلب في خانة كتاب الفصيح الهدف من كتابه : « ليعرف به فصيح الكلام ، ولم نسكته بالتوسعة في اللغات وغريب الكلام ، ولكن ألقاه على نحو ما ألف الناس ونسبوه إلى ما تلحن فيه العوام » (ص ١٠٤ ، خفاجي) .

(٢) هذا القسم بعنوان : « كتاب تقويم اللسان » ، ٢٢٨ - ٣٢٢ (ط القاهرة

١٩٦٣) .

وظهور هذه المؤلفات يعكس أمراً جديداً ، فلم تعد اللغة تعلم سباعاً ، وإنما أصبحت تؤخذ عن طريق الكتب ، وفي هذا تحول جديد بدأ مع أواخر القرن الثاني ، واستمر في القرون التالية وهكذا تغيرت الصورة ، فأصبحت اللغة العربية مادة تعليمية تؤلف فيها الكتب

• - العربية في القرن الرابع :

وفي القرن الرابع الهجري كانت العربية تؤخذ تملأ من الكتب لإبخالطة الأعراب ، ولذا فقد ظهرت مجموعة من الكتب منها كتاب قدامة بن جعفر : « جواهر الالفاظ » ، وكتاب « الالفاظ » لابن السكيت ، وكتاب عبد الرحمن الهمداني : « الالفاظ الكنايية » ، وكأها كتب تعليمية من القرن الرابع الهجري . ولنقف قليلاً عند مقدمة الكتاب الأخير انجد المؤلف يقول : « ... ووجدت من المتأخرين في الآلة قوماً أخطأهم الاتساع في الكلام ، فهم متعلقون في مخاطباتهم وكتيبهم باللفظة الغربية والحرف الشاذ ، ليميزوا بذلك من العامة ويرتفعوا عن الأغبياء عن طبقة الحشو ... لجمعت في كتابي هذا بجميع الطبقات أجناساً من ألفاظ كتاب الرسائل والدواوين البعيدة من الاشتباه والالتباس ، السليمة من التغير ، المحمولة على الاستعارة والتلويح على مذاهب الكتاب وأهل الخطابة ، دون مذاهب المتشدين والمتفصحين ، ... ولاغنى بالكتاب البليغ ولا الشاعر المقلق ولا الخطيب المصنوع عن الاقتداء بالأولين والافتباس من المتقدمين (١) .

ويبدو من مضمون هذا الكتاب أنه تعليمي انتقائي وأن المؤلف يعتبر اللغة العربية بما ينبغي أخذه تملأ ، واللغة العربية هنا هي لغة الكتابة التي تبعد عن التشادق والغريب وترتفع عن الكلام العامي . فلم تعد محاكاة البدو في تشادقهم أمراً محموداً ، ولم يعد الاختلاط بهم وسيلة تعلم اللغة . فالهمداني يرى أن قراءة

(١) انظر مقدمة الالفاظ الكنايية للهمداني .

كتب تعاليم اللغة هي الطريق إلى استخدام العربية في الكتابة، وها هو يقدم مجموعة من التسميات المختلفة في كل موضوع، فهو يذكر في معنى (صلح الشيء) ما يأتي : « وإذا صلح الفاسد قلت استقام المائل ، وانشعب الصدع ، وانجبر الوهي ، وانحسم الداء ، ارتفق الفسق ، واعتدل الميل ، واندمل السكلم ، وعلى هذا النحو ذكر الهمذاني في كل باب التسميات المختلفة ، وقد اعتمد الهمذاني في ثقافته على الاستخدام اللغوي عند كتاب الرسائل والدواوين ، فالهمذاني لم يجمع مادته من البدو وإنما هي ومختيرة من بطون الدفاتر ، ومصنفات العلماء ،^(١) . وهذا تعبير عن موقف جديد ، فاللغة العربية أصبحت لغة كتابة ، وأصبح تطويرها مرتبطاً باستخدامها على المستوى الإداري والثقافي ، ولم تمد لغة بعض القبائل هي الفيصل ، لم يذكر الهمذاني الأعراب الفصحاء كما كان لغويو القرن الثاني يذكرونهم في شعر واعتزاز .

فقدت لغة البدو في القرن الرابع الهجري قيمتها كمثل أعلى للاستخدام اللغوي . وقد تخصص اللغوي ابن جني فصلا في كتابه الخصائص بعنوان «أغلاط الأعراب»^(٢) وعقد فصل بهذا العنوان في كتاب من كتب اللغة معناه أن نظرة القرن الرابع تختلف عن موقف اللغويين الأوائل في القرن الثاني . فعندما اختلف الكسائي وسيبويه في صحة العبارة (فإذا هو هي) أو (فإذا هو إياها) ، أي : هل يعتبر الضمير الثاني في حالة الرفع أم في حالة النصب ؟ كان البدو هم الحكم في القضية . ورغم اختلاف الروايات في هذه القصة إلا أنها تجمع على أن البدو كانوا الحكم في هذه القضية ، وشتان هذا الموقف وموقف ابن جني الذي يجعل نفسه حكماً يفصل في مدى الصحة اللغوية للغة البدو ، ويقضى بأن بعض ما عندهم ليس صحيحاً .

(١) أنظر مقدمة الألفاظ السكتانية ص VIII

(٢) الخصائص ٢/٢٨٣ - ٢٣٢

وأنظر أيضا ص ٢٥ وما بعدها

وهذا الموقف الجديد يرجع إلى مجموعة من العوامل ، أهمها أن العربية في القرن الرابع الهجري كانت قد استقرت كلفة للثقافة . واستدعى هذا بالضرورة معجماً متنوعاً جديداً ، فلم تعد لغة البدو بمعجمها البدوي وأفقها الصحراوي كافية للتعبير عن الثقافة العربية الإسلامية الراقية . لم يعد من الممكن أن تسكتق لغة الثقافة بالمعجم البدوي ، لذاذا يفعل الفيلسوف أو المنطقى أو عالم الرياضيات بمئة اسم للجمل أو مئتي اسم للأسد . إن اللغة العربية في القرن الرابع الهجري كانت قد استقرت لغة للثقافة ، وأصبحت لغة كتابة تنمو على المستوى الثقافي ، فظهرت المصطلحات والتعبيرات المختلفة ، ولم يعد منقو القرن الرابع الهجري يلودون بالبادية بحثاً عن الغريب ، بل كانوا يشتقون المصطلحات والتعبيرات المعبرة عن فكرهم وتخصصهم .

ولكن الشعر ظل داخل الضوابط اللغوية القديمة أو على الأقل حاول الشعراء أن يلزموا الخصائص اللغوية للشعر القديم ، كما قننها النحاة المبكرون . اعتبر اللغويون أى خروج على الضوابط القديمة غير جائز في لغة الشعر ، وحاول الشعراء دراسة النحو ، ومنهم من تمق في هذه الدراسة وأظهر ذلك في عمد في شعره . آمن شعراء العربية الفصحى بأن اللغة القديمة أى اللغة التى سجلها النحاة هى المثل الأعلى ، لكل الصيغ التى جاءت من عصور الاحتجاج صحيحة وجديرة بالاحترام ، ومنها صيغ نادرة جاءت في أبيات مفردة فقدت قصائدما وسجلها النحاة . وهناك عدد من الصيغ اعترف الكوفيون وحدهم بصحتها ، ولم يعرفها أو يعترف بصحتها البصريون . وهنا ظهرت أهمية الثقافة اللغوية والإعداد النحوى للشاعر ، والمنتجى من أوضح الأمثلة على هذا .

فقد حاول أن يظهر في شعره براعته اللغوية ، وكأنه كان يستعرض معرفته بالمعجم القديم وهو يتفاح بالنادر والغريب ، ويشير نائرة النحاة ليثبت بعد ذلك صحة ما قاله من الناحية اللغوية . استخدم المنتجى صيغة الجمع (آخاء) جمعاً لكلمة (أخ)

لأنه عرف أن هذه الكلمة استخدمت في بيت من الشعر القديم^(١) . وقد أثار المتنبي غضب أنصار المذهب البصرى ليثبت لهم بعد هذا أنه على صواب ، وجاء بالشاهد على صحة تعبيره . لقد بنى المتنبي وزن قُحَّال من الرقم ستة: أى سداس متحدياً بذلك ضوابط النحاة إذ أنهم أجازوا وزن فعال من العدد واحد إلى العدد أربعة ، ورفضوا قياس هذا الوزن من الأعداد الأخرى^(٢) . وكان المتنبي يعلم أن بعض اللهجات القديمة استخدمت كلمة (التوراب) بدلا من كلمة التراب ، ولذا استخدم هذه الكلمة النادرة^(٣) . ولهذا كله فقد اهتم به اللغويون ، ولا نعلم شاعراً عربياً في عصر المتنبي أو بعد عصره أثار انتباه اللغويين مثله . فقد كثرت الشروح اللغوية على ديوان المتنبي . ومن هذه الشروح : شرح المكبرى ، وشروح ابن جنى ، وشروح المعرى ، وشرح التبريزى ، وهكذا اهتم المتنبي بالصيغ القديمة النادرة ، فأثار اللغويين واهتموا به .

٦ - الهمداني والحياة اللغوية في القرن الرابع الهجرى :

وصف الهمداني (ت ٣٣٤) الحياة اللغوية في جزيرة العرب في أوائل القرن الرابع الهجرى وخصص لها فصلاً مستقلاً عنوانه لغات أهل هذه الجزيرة^(٤) . ويتضح من عبارات الهمداني في هذا الفصل صورة التنوع اللغوى في الجزيرة العربية آنذاك . لقد قاس الهمداني اللهجات واللغات المختلفة

(١) أنظر حول الاستخدام اللغوى عند المتنبي: فك: العربية ص ١٦٨ - ١٨١

(٢) الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه (ط القاهرة ١٩٦٦)

٤٥٧ ، ٩٩ ، ٩١ .

(٣) الوساطة ٨٦ .

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب (ط القاهرة ١٩٥٣) ص ١٣٤ - ١٣٦

في الجزيرة العربية وفق معايير العربية الفصحى ، فيقدر قرب اللهجة من الفصحى تكون هذه اللهجة فصيحة تستحق عنده الثناء ، ويقدر بعدها عن اللغة الفصحى تكون هذه اللهجة رديئة . إننا نلاحظ من وصف الهمداني لطبيعة التنوع اللغوي في الجزيرة العربية في أوائل القرن الرابع الهجري عدة أنماط لغوية . ففي أقصى الجنوب وبالتحديد في منطقة الشحر للاحظ الهمداني أن أهلها « ليسوا بفصحاء ؛ مهرة غثم يشاكون المعجم » (١) ، والواقع أنهم يمثلون جماعة لغوية متميزة لغتها الأولى هي اللغة المهرية وليست اللغة العربية ، فالعربية بالنسبة لهم لغة تكتسب تعلماً كما تكتسب أية لغة أجنبية أخرى . ولاحظ الهمداني أن منطقة حضرموت الغربية من منطقة المهرة تسودها لغة ليست بفصيحة ، وربما كان فيهم الفصيح ، وأفصحهم كنده وهدان (٢) ، ومعنى هذا أن منطقة حضرموت كانت قطعت في ميدان التعريب بعربية الشمال شوطاً بعيداً ، وأن قبيلة كنده بصفة خاصة كانت قد تعربت بدرجة أكبر ، ومعنى هذا بالنسبة لعربي مثل الهمداني أنه كان يستطيع التعامل مع أبناء قبيلته همدان بلغته العربية ويستطيع كذلك التعامل مع أبناء قبيلة كنده بالعربية أيضاً ، بينما يصعب عليه أن يفهم كلام أهل الشحر ، فلغتهم هي اللغة المهرية . ويمكس وصف الهمداني لبعض اللهجات بأنها غير فصيحة أن هذه اللهجات عربية شمالية ولكنها تختلف اختلافاً بيناً عن العربية الفصحى .

وقد ذكر الهمداني إلى جانب لغة المهرة لغة أخرى تختلف عن العربية الشمالية، وهي اللغة الحميرية . فذكر أن أهل شَبَامَ أقيان والمصانع وتُخَلِّي يستخدمون « الحميرية المحضة » (٣) ، وذكر في مواضع أخرى أن بعض القبائل تتعامل

(١) الهمداني ١٣٤

(٢) الهمداني ١٣٤

(٣) الهمداني ١٣٦

« باللسان الحميري » (١) أو بالحميرية القحة المتعقدة (٢) . ومن هذا كله يتضح أن القرن الرابع الهجري عرف جماعات بشرية تتعامل في اليمن بالمهرية ، وأخرى باللسان الحميري ، وجماعات أخرى أخذت تتعرب بعربية الشمال .

لقد كان الهمداني يعلم أن منطقة اليمن عرفت لغة أخرى غير العربية الشمالية ، وأن هذه اللغة الحميرية تركت أثرا في استخدام اليمنيين المتعربين بعربية الشمال ، فعندما تحدث الهمداني عن «سرو وحمير وجماعة ذكر أنهم ليسوا بفصحاء وفي كلامهم شيء من التحمير . . . فيقولون : يا بن مَعَمِّم في يا بن العم وسمِّع في أسمع» (٣) وهذا تعربت بعض الجماعات البشرية بعربية الشمال متأثرة بلغتها الأولى العربية الجنوبية .

ويبدو أن لغة بعض المناطق في اليمن في القرن الرابع الهجري كانت تتعامل بلغة قريبة من الفصحى غير أنها مولدة أى بها بعض مظاهر اللحن . يقول الهمداني : «عدن لغتهم مولدة ردية» (٤) ، «بنو مجيد وبنو واقد والأشعر لا بأس بلغتهم» (٥) «سرو ومذحج ومأرب وبيجان وحريب فصحاء ، وردى اللغسة منهم قليل» (٦) . «نحو لأن صعده . . . فصحاء» (٧) . ويبدو أن هذه المناطق كانت قد تعربت بعربية الشمال إلى حد كبير .

(١) الهمداني ١٣٥ ، السطر الأول

(٢) الهمداني ١٣٥ ، السطر الثالث ، وكذلك السطر التاسع

(٣) الهمداني ١٣٤

(٤) الهمداني ١٣٤ ، الثالث من أسفل

(٥) الهمداني ١٣٤

(٦) الهمداني ١٣٤ .

(٧) الهمداني ١٣٦

لقد ذكر الهمدان في عبارة موجزة لهجة كل قبيلة وكل منطقة اهتم بها ، وقد جعل أقرب اللهجات إلى اللغة الفصحى تلك اللهجات العربية الشمالية في مناطق العرض والحجاز ونجد . يقول الهمدان : أما العروض ففيها الفصاحة ما خلا قرآها ، وكذلك الحجاز فنجد السفلى ، فالى الشام وإلى ديارمضر وديار ربيعة ففيها الفصاحة إلا في قرآها ،^(١) . ومن هذا يتضح أن مجموعة من اللهجات في هذه المناطق كانت قريبة من الفصحى ولسكن لهجات الحضر المستقرين أى سكان القرى كانت مخالفة للفصحى . وهكذا أوضح الهمدان في وصفه للحياة اللغوية في جزيرة العرب بعبارات موجزة بعض جوانب النوع اللغوى فى القرن الرابع الهجرى .

٧ - المقدسى والحياة اللغوية فى القرن الرابع الهجرى :

تضمن كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » للمقدسى معلومات مختلفة حول العالم الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى . وقد ذكر فى مقدمته أنه اهتم أيضا « باختلاف أهل البلدان فى كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم »^(٢) . وتقوم هذه الملاحظات على خبرة المؤلف أثناء رحلاته وما دونه أثناء هذه الرحلات حول كل إقليم من الأقاليم التى زارها^(٣) .

تناول المقدسى الحياة اللغوية فى الأقاليم العربية من الدول الإسلامية بمجموعة من الملاحظات حول جزيرة العرب والى العراق والشام ومصر والمغرب . لاحظ المقدسى أن العربية هى اللغات السائدة فى جزيرة العرب عدا منطقة «صحار»^(٤) . وهى المنطقة الواقعة على المحيط الهندى والى الخليج العربى من عمان . فهذه المنطقة كانت تضم وفق

(١) الهمدانى ١٣٦

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١

(٣) أنظر أيضا مجموعات المفردات التى تختلف فيها لهجات الأقاليم العربية ، ص ٣-٢٢

(٤) المقدسى ص ٩٦

وصف المقدسي جماعات من المتحدثين بالفارسية . وإلى جانب هذه المنطقة التي سادها فيما يبدو ضرب من الازدواج اللغوي ، فقد ذكر المقدسي أن اليمن ضمت « قبيلة من العرب لا يفهم كلامهم » (١) ، ولا شك أن المقصود بهؤلاء العرب تلك الجماعات اللغوية التي كانت تتعامل في القرن الرابع الهجري باللغات العربية الجنوبية المختلفة ، وقد أشار الهمداني إلى ذلك . وإذا كان الهمداني قد ذكر أن لغة عدن مولدة فإن المقدسي ذكر عدة أمثلة من لهجة عدن ، يقول المقدسي : « وأهل عدن يقولون لرجليه رجلينه ، ولبيديه يديه وقس عليه ويجعلون الجيم كافا فيقولون لرجب ركب ولرجل ركل » (٢) . ومعنى هذا أن لهجة عدن في القرن الرابع الهجري لم تكن تميز بين الاسم المضاف والاسم غير المضاف وأن النون لم تكن تمحذف من الاسم المثني المضاف إلى ما بعده . وملاحظة المقدسي حول نطق الجيم في عدن على نحو نطق الجيم في لهجة القاهرة المعاصرة واضحة من تدوين لهذا الصوت بحرف الكاف ، فقد أراد أن يعبر دون لبس عن صوت الجيم الشديدة فعبّر عنه بالكاف ، وهي في العربية صوت شديد أيضا . ولا شك أن نطق الجيم على هذا النحو في عدن في القرن الرابع الهجري يعد امتدادا للجيم في اللغة السامية الأم وللجيم في اللغة العربية الجنوبية ، وأن أهل عدن عندما تعربوا بعربية الشمال احتفظوا بهذا الصوت ولم ينطقوه النطق العربي الشمالي . ويبدو أن جماعات بشرية غير عربية الأصل كانت قد هاجرت إلى أنحاء من الجزيرة العربية ولكنها تعربت وأصبحت منتمة للإطار اللغوي العربي ، يقول المقدسي : « وأكثر أهل عدن وجدة فرس إلا أن اللغة عربية » (٣) . وعندما لاحظ المقدسي أن تلك اللهجات العربية التي أشارت إليها كتب اللغة كانت ما تزال حية في بوادي الجزيرة العربية ذكر ذلك (٤) ، ولاحظ

(١) المقدسي ٩٦

(٢) المقدسي ٩٦

(٣) المقدسي ٩٦

(٤) المقدسي ٩٧

أن أقرب اللهجات العربية من الفصحى هي لهجات « هذَّيْل ونجد وبقية الحجاز إلا
الاحقاق فإن لسانهم وحش » (١) . فهذه اللهجات كانت قريبة من الاستخدام
اللغوي الفصيح .

فضل المقدسي الاستخدام اللغوي في مشرق الدولة الإسلامية على باقي أنحاءها .
والمقصود بالمشرق عنده المنطقة الواقعة شرقي العراق . وتضم إيران والمناطق التي
بعدها . يقول المقدسي في تفسير ذلك « لأنهم أصبح الناس عربية ، لأنهم تكلفوها
تكلفاً وتعلموها تلقاً » (٢) . ومعنى هذا أن اللغة العربية المنشودة في رأى المقدسي
كانت لغة تؤخذ بالتعليم لا بالسليقة ، ولذا فلم يبرز فيها أبناء الجزيرة العربية ، بل
اهتم بتعلمها المهتمون بذلك من أبناء لغات أخرى ، فأجادوا العربية الفصحى
وامتازوا بها . وعندما ذكر المقدسي إقليم العراق والمقصود به جنوب ووسط
العراق — لاحظ كثرة اللهجات في هذه المنطقة ، وهي لهجات « حسنة فاسدة » ،
أي حسنة نطقاً فاسدة نحوا . لقد فضل المقدسي لهجة الكوفة عن باقي لهجات
العراق ، وفسر هذا بأن سكان الكوفة قريبون من البادية بعيدن نسبياً عن المنطقة
اللغوية الآرامية . يقول المقدسي : « لغاتهم مختلفة ، أصحها الكوفية لقربهم من
من البادية وبعدم عن التبطن ، ثم هي بعد ذلك حسنة فاسدة ، بخاصة بغداد . أما
البطائح فنبط لا لسان ولا عقل » (٣) . ويبدو أن المقصود بالبطائح المناطق الزراعية
السهلة ، وأن اللهجات الآرامية كانت ما تزال مسعوعة في هذه الأنحاء . وقد قارن
المقدسي لهجة شمالي العراق باللهجات الشام ولاحظ أن « لغتهم لغة حسنة ، أصح
من لغة الشام لأنهم عرب ، أحسنها الموصلية » (٤) . ويبدو أن المقصود بهذا أن

(١) المقدسي ٩٧

(٢) أحسن التقاسيم ٣٢

(٣) المقدسي ١٢٨

(٤) المقدسي ١٤٦

اللهجة الموصلية كانت أقرب إلى الفصحى من لهجات الشام . وفي كل هذه المنطقة كاد استخدام اللغة الفصحى يكون مقصوراً على التأليف والتدوين والإبداع الفني ، ولم تكن لغة حديث عادي بين المتقنين ، يقول المقدسي : « وكنت إذا حضرت مجلس قاضي القضاة في بغداد أخجل من كثرة ما يلحن ، ولا يرون ذلك عيباً » (١) . فالعربية الفصحى كانت قد استقرت آنذاك لغة ثقافة ، أجادها أيضاً مؤلفون من غير أبناء اللغة العربية ، ومن لم يعتمد إجادتها لم يستطيع حسن استعمالها .

وعندما زار المقدسي مصر والمغرب والاندلس لاحظ وجود لغات أخرى إلى جانب العربية . قال المقدسي عن مصر « لغتهم عربية غير أنها ركيكة رخوة وذمتهم يتحدثون بالقبطية » (٢) . ومعنى هذا أن اختلاف اللهجة العربية في مصر عن الفصحى جعل المقدسي يصفها على هذا النحو ، وفي القرن الرابع الهجري كانت مصر قد قطعت في التعريب شوطاً بعيداً كاد أن يكون حاسماً ، لكن المقدسي لاحظ معرفة بعض أهل الذمة وبالتحديد بعض المسيحيين — بالقبطية فسجل هذا . وذكر المقدسي أيضاً أن اللهجة العربية في المغرب والاندلس متعلقة بمخالفة لما ذكرنا في الأقاليم ، ثم ذكر أيضاً أن « لهم لساناً آخر يقارب الرومي » . . . « والغالب على بوادي هذا الإقليم البربر . . . لا يفهم لسانهم » (٣) . ففي ذلك الوقت كانت موجة بني هلال وبنو سليم لم تصل بعد ، وكانت اللغة البربرية ما تزال تسود منطقة كبيرة من المغرب .

وقد فصل المقدسي الكلام عن اللغات الموجودة في المناطق غير العربية في

(١) المقدسي ١٨٣

(٢) المقدسي ٢٠٣

(٣) المقدسي ٢٢٤

شرقى العالم الإسلامى ، وذكر عدداً كبيراً من اللغات واللهجات (١) . ومن أهم هذه اللغات : اللغة الفارسية ، واللغة الصغدية (— السغدية) ولغة الديلم ، ولغة الخزر ، واللغة الأرمينية ، واللغة الرانية ، ولغة البلوش ، بالإضافة إلى عدد كبير من اللهجات المحلية . وفى كل هذه المناطق وجد المقدسى معرفة باللغة العربية عند المثقفين ، كما وجد أيضاً فى إقليم الديلم بجماعة من المتحدثين باللغة العربية وباللغة الفارسية يعيشون فى عزلة عن باقى أنحاء الدولة الإسلامية . وهكذا صور المقدسى بمبارات موجزة صورة لتنوع اللغوى فى أنحاء العالم الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى .

٨ - العلاقات اللغوية فى القرن الخامس الى فجر العصر الحديث :

يلاحظ تجاه هذه الفترة التى امتدت سبعة قرون أن العالم العربى كان واقعاً فى قبضة عناصر غير عربية تشترك مع غالبية العرب فى اعتناقها الدين الإسلامى ، ورغم تغير الحكم فقد كانوا دائماً من غير العرب . كانت الطبقات الحاكمة من عناصر فارسية أو تركية أو شركسية ، وبخلاف توزيع العناصر من إقليم لآخر ، وفى كل هذه الفترة كانت العربية لغة الطقوس الدينية ولغة الفقه الإسلامى مما جعل دراسة العربية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بدراسة الدين ، فلم تكن العربية إلا لغة الدين . وهذا الأمر يشبه مركز العربية فى إيران الحالية ، فكل من أراد أن يشتغل بالدين كان عليه أن يدرس العربية .

وظهر فى هذا العصر عدد من الملتخصات والشروح انتشرت انتشاراً كبيراً فى المشرق والمغرب ، وكان الهدف من هذه الملتخصات تقريب ما توصل إليه الباحثون القدماء من نتائج فى بحث اللغة العربية . كانت المعرفة بالعربية أداة لدراسة الدين ، وكل المعاهد العلمية التى نشأت أو أخذت طابعها المميز فى تلك الفترة مثل الأزهر والمعاهد المماثلة فى العالم العربى والبلدان الإسلامية ما تزال تعتبر دراسة العربية

(١) المقدسى ، ٢٥٩ ، ٤٤٣ — ٤٤٦

والدين أمرا واحدا . وهذا الربط إنما يرجع إلى ظروف تاريخية ، فالعربية لم تكن إلا لغة الدين عندما كان العالم العربي واقما تحت السيطرة الإسلامية غير العربية فلم تكن العربية لغة الإدارة أو السياسة ، كانت الإدارة فارسية في أقصى المشرق الإسلامي وتركية في المناطق الواقعة تحت النفوذ التركي .

بدأت هذه المرحلة بإبعاد العربية عن الإدارة عندما أعلن السلجوقيون في القرن الخامس الهجري اللغة الفارسية لغة رسمية لدولتهم التي ضمت القسم الشرقي من الدولة الإسلامية . وفي ذلك العصر بدأ الإيرانيون يؤلفون بالفارسية وبدأ بعضهم بهجر العربية ، وألف بعض المفكرين بالعربية والفارسية ، فالغزالي مثلا ألف كتابه «إحياء علوم الدين» بالعربية ، وألف بالفارسية كتبا كثيرة منها «التبر المسبوك» ويلاحظ في المؤلفات الفارسية المبكرة أى في القرن الخامس أنها اعتمدت اعتمادا كبيرا على المصطلحات العلمية العربية. فقد كان الإيرانيون يستخدمون العربية في القرون الأربعة الأولى للهجرة لغة للتعبير والتأليف . كان كل ما كتبه الإيرانيون في القرون السابقة بالعربية ، وكانت عندهم لغة التأليف ، وعندما حاولوا استخدام الفارسية اعتبروا العربية لغة الأساس ، وأخذوا منها المصطلحات العلمية المختلفة أما الأفعال وأدوات الربط اللغوي والألفاظ الأساسية البسيطة فكانت من اللغة الفارسية . وهذا يشبه الكتابة العلمية بالألمانية أو بالسويدية ، فمعظم المصطلحات لاتينية أو يونانية وأدوات الربط والأفعال والمفردات البسيطة من اللغة التي يفترض أن يكتب الإنسان بها .

لقد تغير الموقف في القرن الخامس الهجري إذ دخلت اللغة الفارسية مجال التأليف مدعومة بدولة فارسية مسلمة ، ورأت هذه الدولة أن تجعل من الفارسية لغة الإدارة والسياسة ومن العربية لغة الدين . ولعل من الغريب أن أول المدارس العالية التي انشئت لتعلم العربية إنما ظهرت في القرن الخامس الهجري وهي : «المدرسة النظامية» المنسوبة إلى نظام الملك ، فقد أسست سنة ٤٥٩ هـ . وكان تأسيس «المدرسة النظامية» في إطار الوضع اللغوي السائد، فقد اهتم السلجوقيون بالعربية الفصحى في عصورها

المبكرة ، لأن هذا يعين على فهم الدين ، ولكنهم اعتبروا الفارسية لغة الحياة . وهذا
وشبه موقف الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا في استخدامها اللغة اللاتينية في الطقوس
الدينية . وقد درس في المدرسة النظامية أبو زكريا التبريزي (المتوفى سنة ١٥٠٢)
ومن أهم مؤلفاته : شرح ديوان الحماسة . ويلاحظ في مقدمات الكتب التي ألفها
التبريزي وغيره أنه يعتبر دراسة العربية وسيلة فهم القرآن الكريم والسنة . ونلاحظ
عند المشتغلين في ذلك الوقت تديناً شديداً جعلهم يذكررون أن أشرف العلوم علم
الكتاب والسنة وأن مفتاح هذه الدراسة اللغة العربية .

إن الحديث عن العربية في العالم الاسلامي من القرون الخامس عشر حتى التاسع
عشر ذو شجون . لقد كان معظم أجزاء العالم العربي تحت السيطرة العثمانية المباشرة
أو غير المباشرة ، ومعنى هذا أن لغة الإدارة العليا كانت التركية ، وأن لغة الإدارة
المباشرة كانت التركية في كثير من الأقاليم ، وانتظر إلى ألقاب الوظائف الكبرى
في تلك الفترة ، لقد كان الديوان الكبير وهو مجلس حكم البلاد يضم عن كل أوجاق
موظفين ثلاثة : الأغا والدفتردار والروزنامجي . والسكيات : أوجاق ، أغا دفتردار ،
روزنامجي ليست عربية لم تدخل مصر إلا مع الفتح العثماني ، والأوجاق
هو المنطقة ، والأغا قائد الحامية ، والدفتردار مدير المالية ، والروزنامجي حافظ
السجلات . وكانت أهم وظائف الدواة في يد العناصر غير العربية ، فالمماليك
يتولون أهم الوظائف العسكرية والمدنية حتى أن شيخ البلد (المحافظ) كان
منهم ، وكان أعضاء الديوان والمماليك أصحاب الكلمة الأولى في البلاد ، فإذا أضفنا
إلى ذلك مركز القوة الرابع في البلاد — بجانب الوالي والديوان والمماليك — وهو
الحامية التركية والمتركة لتبيننا أن كل مراكز القوة كانت في يد غير للعرب . كانت
لغة الإدارة المركزية في الدولة العثمانية هي اللغة التركية ، وكان أصحاب المراكز
العليا يستخدمون في الإدارة التركية أيضا ، أما العربية فكانت في الإدارة المحلية .

لقد إرتبطت اللغة العربية طوال هذه الفترة بالطبقات غير الحاكمة في المجتمع ،
فالمتحدثون كانوا يمثلون الطبقات المحكومة ، وكانت العناصر الحاكمة من أصول غير

عربية وكانت العناصر العسكرية المسيطرة من أصول غير عربية وكانت الطبقات الارستقراطية ذات النفوذ من غير العرب فالملك الذي حكموا وقتاً طويلاً إنما جلبوا من مناطق مختلفة في وسط آسيا وبعد دخول العثمانيين كانت الطبقات غير العربية في المجتمع تحتفظ لنفسها بكل الوظائف الراقية التي كانت وقتاً على المتحدثين بالتركية .

وهكذا إرتبطت دراسة العربية الفصحى في الوجدان الشعبي بدراسة الدين ، وأصبح رجل الدين والمتخصص في العربية نخباً واحداً هدفه الدين ووسيلته العربية. وأصبح الحديث باللهجات العربية واستخدام هذه اللهجات الابداع الفني دليلاً على الضمة الاجتماعية، وكانت التركية لغة السياسة والإدارة والطبقات الحاكمة في المجتمع.

الفصل الرابع عشر

العربية في القارة الأفريقية

العربية أكثر اللغات الوطنية انتشاراً في القارة الإفريقية ، فأكثر من نصف سكان أفريقيا يتعاملون باللغة العربية . وإذا كانت اللغة العربية قد نشأت في آسيا وانتشرت في غربها بعد الفتح الإسلامي ، فإن اللغة العربية قد انتشرت في القارة الإفريقية بصورة زادت مع الزمن حتى أصبح أبناء العربية في أفريقيا أكثر منهم في آسيا . وإذا كانت درجة انتشار اللغة العربية في أفريقيا تختلف من قطر لآخر ، كما تختلف اللهجات العربية في القارة اختلافاً بعيداً - فإن هذا يرجع إلى ظروف التعريب التي مرت بها كل منطقة من هذه المناطق .

١ - تعريب مصر والنوبة والسودان :

ارتبطت بداية تعريب مصر بالفتوح العربية الإسلامية وما صاحب ذلك من هجرات بشرية تلتها موجات أخرى من القبائل العربية التي استقرت في مصر فذابت في أهلها ، وبذلك أخذت هذه المجموعات الوافدة تحول من النظام القبلي القائم على وحدة الدم إلى أنماط حضرية مغايرة تقوم على وحدة المكان . وذوبان القبائل الوافدة وتحولها عن النظام القبلي يجعلها بالضرورة لانتمهم بألسانها القائمة على الدم ، وتجعل التجمعات البشرية الناجمة عن اختلاطهم بالسكان الأقدم تترايط وتتغير على أساس الموطن والمستقر ، لا على أساس الأصل والنسب . وقد لاحظ المؤرخ الكبير المقرئ هذه الحقيقة في الأسطر الأولى من كتابه : « البيان والاعراب عما به مصر من الأعراب » ، قال : « أعلم أن العرب الذين شهدوا فتح مصر قد أبادهم الدهر

وجهت أحوال أكثر أعقابهم . فلا شك أن الاستقرار ثم الاختلاط والإقامة في القرى والمدن مما يخلق ظروفًا موضوعية جديدة يصبح فيها الاهتمام بالأنساب أمراً ثانوياً لا قيمة له ، وفي مثل هذه الظروف يصبح تتبع أحوال أعقاب الموجهة البشرية العربية المصاحبة للمتبع أمراً غير ممكن .

وقد سجل لنا المقرئى معلومات قيمة عن الموجات العربية المختلفة التي قدمت فاستقرت في أرض مصر ، وحاول أن يفسب كل قبيلة إلى عرب الشمال أو إلى عرب الجنوب وذكر الخلاف في ذلك ، يقول المقرئى : « جذام من قدماء عربان مصر قدموا مع عمرو بن العاص » ، وهذه القبيلة من عرب الجنوب الذين كانوا قد هاجروا إلى الشمال ، يقول المقرئى : « لحقت بالشام فانتقلت إلى سبأ ولحقوا باليمن » (١) . ويبدو أن قبائل الجنوب التي هاجرت إلى مصر كانت من الناحية اللغوية قد تعربت بعربية الشمال قبل رحيلها إلى مصر ، فأسمت في تعريب مصر بلغة الشمال لا بلغة الجنوب ، ولا يتنى هذا إمكان وجود تأثيرات جنوبية في الاستخدام اللغوى لهذه القبائل الجنوبية أصلاً ، الشمالية مهجراً ، المصرية مستقراً .

وتمثل قبيلة قضاة أكبر تجمع قبلى هاجر إلى مصر في عهد عمر بن الخطاب ، وتهجير القبائل إجراء سياسى عرفه التاريخ الإسلامى ، ففي عهد عمر بن الخطاب ، هجرت قبيلة قضاة إلى مصر ، فقد ذكر المقرئى أن بلى قبيلة عظيمة فيها بطون كثيرة ، وكانت بلى الشام ، فنادى رجل من بلى بالشام : « يا قضاة ا ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فسكتب إلى عامل الشام أن يسير تلك قضاة إلى

(١) المقرئى : البيان والأعراب ص ١٢

وحول تعريب مصر ، أنظر ، أحمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر

(القاهرة ١٩٧٠) .

مصر ، وواضح من هذا الخبر أن عمر بن الخطاب رأى في الظروف التي أدت إلى استصراخ القبيلة وحدث ذلك ردة نحو عصبية قبلية كاملة ، فسكان تهجير تلك القبيلة اجراء سياسيا يهدف إلى كسر وحدة تلك القبيلة فيها بطون كثيرة ، وهكذا جاءت هذه الموجة أرض مصر .

وقبيلة قضاة هذه مختلف في نسبتها إلى عرب الشمال أو عرب الجنوب يقول ابن حزم : « وأما قضاة فمختلف فيها ، يقولون : قضاة بن معدان عدنان ، وقوم يقولون : هو قضاة بن مالك بن حمير » . وبشير ابن حزم بعد ذلك إلى كتب بطليموس وكتب المعجم التي تذكر قضاة وتحدد مواضعها ، قال : « وبلاد قضاة متصلة بالشام ، وبلاد يوران والامم التي يادت مالمكها بغلبة الروم عليها وبلاد عدنان ، ولا تتصل ببلاد اليمن أصلا (١) » . الواقع أن المصادر المتاحة لا تمكننا من الفصل في قضية أصل قضاة ، وأغلب الظن أن قضاة من أصل جنوبي وأنها قد هاجرت مع تلك القبائل العربية الجنوبية التي هاجرت إلى الشمال بعد انهيار سد مأرب ، وأن قضاة قد تعربت في مهجرها إلى الشمال بعربية الشمال تعرباً ترك بعض السمات غير الشمالية في لهجتها ، الأمر الذي جعل اللغويون ينصرون على إعراضهم عن الاستشهاد بانتمائها ، ولو كانت لغتها جنوبية لما فكر فيهم أحد رفضاً أو قبولا . ذكر الفارابي (٢) أنه لم يؤخذ لا من لحم ولا من جذام ، فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقيط ، ولا من قضاة ولا غسان ولا من إباد فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام ، وأكثرهم فصاري يقرون في صلاتهم غير العربية . فربيتهم لم تكن إذن عربية جنوبية ، بل كانت عربية شمالية مشوبة . هذا وقد كان اعتماد ابن مالك على لغة لحم وقضاة وغيرهم مما أثار عليه نقد أبي حيان النحوي : « وليس ذلك من عادة أئمة هذا

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٨ وقارن ٤٤٠

(٢) النص مقتبس عن كتاب الألف تراخ للسيوطي ص ١٩

الشان (١) ، وينبغي لكل هذا ألا نبالغ في تصور الأثر الجنوبي في تعريب مصر ، فهذه القبائل وإن كان بعضها — على ما يرجح — من أصل جنوبي ، فإنها كانت من الناحية اللغوية قد تعربت — بصفة عامة بعربية الشمال ، قبل أن تخرج بإرادتها أو بأمر الخليفة مهاجرة إلى مصر ، وهذا لا ينفى الانتماء الشعوري لهؤلاء ، ولا ينفى ترابط القبائل ذات الأصل الجنوبي في عصبية واحدة جمعتهم فترة ما قبل أن يذوبوا مع السكان الأقدمين في مصر .

وفي العصر الأموي حاولت الدوائر الحاكمة إحداث توازن بين عرب الشمال وعرب الجنوب في مصر ، والمضى قدما في تعريب مصر ، فنقلت عدة قبائل شمالية إلى مصر كي تحقق توازنا مع هؤلاء الذين احتفظوا في وجدانهم الجاهلي بأصولهم الجنوبية ، وكى تمضي عملية التعريب في مصر على نحو أسرع . فتجبر قبائل شمالية إلى مصر اجراء سياسى اتخذته الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٩ هجرية ، ذكر المقرئى : « وكان نزول سليم عدة قبائل من قيس في أرض مصر سنة تسع ومائة ولم يكن بأرض مصر أحد من قيس قبل ذلك إلا من كان من قيسهم وعدواً وإن فإنهما من قيس . »

وقد ذكر المقرئى أن هذا القرار السياسى تم استجابة من الخليفة لرغبة عامل خراج مصر ، إذ سأله أن ينقل إليها من قيس أيباناً ، فأذن له هشام في الحاق ثلاثة آلاف منهم ، وتحويل ديوانهم إلى مصر . على أن لا ينزلوا بالفسطاط فأنزلهم الحوف الشرقى وفرقهم فيه ، (٢) وفي موضع آخر ذكر المقرئى أنهم نزلوا منطقة بلبيس ، وهذا ما يندفعنا إلى اقتراض أنهم نزلوا المنطقتين ، ولعل تشابه بعض

(١) الاقتراح للسيوطى ص ٢٠

(٢) المقرئى : البيان والاعراب ص ٦٦

اللهجات في الشرقية مع لهجات في الصعيد إنما يرجع إلى هجرة نفس القبائل إلى كلتا المنطقتين .

واستمرت هجرات عرب الشمال إلى مصر في العصر الطولوني ، فنزلت قبائل من الهامة في صعيد مصر في العقد الخامس من القرن الثالث الهجري ، وفي هذا يقول المقرئزي : « كانوا ينزلون الهامة وقدموا مصر في خلافة المتوكل على الله أعوام بضع وأربعين ومائتين في عدد كثير ، وانتشروا في النواحي ، ونزل طائفة منهم بأعلى الصعيد ، وسكنوا بيوت الشعر في براريها الجنوبية وأوديتها . »

وفي العصر الفاطمي عرفت مصر موجتين بشريتين عربيتين ، لهما أهمية كبرى في تاريخ التعريب في مصر والسودان والمغرب ، لقد هاجرت إلى مصر « جهينة » ، كما هاجر إليها بنو هلال وبنو سليم .

أما عرب « جهينة » الذين تنسب إليهم — أكثر قبائل السودان العربية ، فقد نقلوا إلى مصر بقرار سياسي اتخذته الساسة الفاطميون ، يقول المقرئزي : « وأما جهينة فأتوا من قبائل اليمن وهي قبيلة عظيمة وفيها بطون كثيرة . . . وكانت مساكنهم في بلاد قريش ، فأخرجتها قريش بمساعدة عسكر الفاطميين ، ونزلوا في بلاد إخمم أعلاها وأسفلها . وهكذا كان تهجير عرب « جهينة » قراراً سياسياً اتخذته الفاطميون فأسم في إضافة عنصر عربي إلى مصر . »

وكانت العوامل السياسية كذلك وراء تهجير بني هلال وبني سليم إلى مصر واخراجهم منها بعد ذلك ، وكانت هذه الموجة العربية الشمالية مشار اهتمام ابن خلدون ، وهو مصدرنا الأول في دراسة هذه الهجرة الضخمة ذات العدد الوفير . يذكر ابن خلدون أن « بطون هلال وسليم كانوا يجوبون قفر الحجاز ونجد فبنو سليم بما يلي المدينة ، وبنو هلال في جبل فزوان عند الطائف ، وربما كانوا يطوفون رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام » (١) . إن بني هلال وبني

سليم من عرب الشمال ، ولكن تحالف بنى هلال وبنى سليم مع القرامطة ثم اندحار القرامطة جعل بنى هلال وبنى سليم في مركز حرج لم ينقذهم منه إلا دعوتهم إلى مصر الفاطمية ، يقول ابن خلدون : « ثم تحيز بنو سليم والكثير من ربيعة بن عامر إلى القرامطة عند ظهورهم ، وصاروا جندا لهم بالبحرين وعمان ولما تغلب شيعة ابن عبيد الله المهدي على مصر والشام فقلل أشياعهم من العرب من بنى هلال وسليم ، فأنزاهم بالصعيد وفي العدو الشرقية من بحر النيل ، فأقاموا هناك (٢) وهكنا جاء الفاطميون الشيعة بأنصار القرامطة الشيعة إلى مصر ، وسنشير - بعد - إلى خروج الهلالية من مصر إلى المغرب ، بل بقيت بطون منهم في مصر ، ذكر المقرئ في وقت لاحق للتغريبه أن « ببلاد الصعيد عدة قبائل من العرب ، ففي بلاد أسوان وما تحتهما بنو هلال ، (٣) .

وأغلب الظن أن الموجات البشرية استمرت بعد ذلك ، ففي عهد صلاح الدين جاءت هجرة كان المدوان الصليبي قد قطع عليها الطريق إلى مصر . يقول المقرئ : « فلما فتح صلاح الدين . . . بلاد غزة ، وأعادها من أيدي الفرنج إلى المسلمين جاءت ثعلبية وطاقفة من جرمهم إلى مصر ، وبقيت بقايا جرمهم في مكائهم (٤) ، وليس من مجال بحثنا هنا أن ننظر في حركات بشرية تالية ، فاشأنا بها في وقت كانت مصر قد تعربت تعريباً كاملاً .

غير أنا نود أن نشير هنا إلى أحداث جعلت العرب الوافدين يذوبون في السكان المصري ، فلم يكونوا مجموعة لغوية متميزة كما حدث مثلاً عندما هاجرت

(١) ابن خلدون : العبر ٢٧/٦

(٢) المرجع السابق ٢٨/٦

(٣) المقرئ : ٢٧-٢٨

(٤) المقرئ : ٥-٦

جماعات جرمانية من وسط أوروبا إلى شرقها - بل ساعدت عوامل مختلفة على أنصارهم في بوتقة واحدة مع السكان الأقدمين . لقد احتفظت القبائل الوافدة فترة من الزمن بالبداوة ، إذ نزلوا في مناطق خاصة بهم ، عاشوا في نظر الغزاة المحاربين ذوى الرواتب . كان عمر بن الخطاب قد حرم عليهم امتلاك الأرض ، فأقاموا في مساكن خاصة بهم أبقت لهم شخصيتهم متميزة وصقلت لغتهم على نحو قصى على كثير من المروق المحلية غير الشائمة ، وظلت لهم روايتهم باعتبارهم طبقة عسكرية قائمة حتى انتهى العصر الاموى .

ودفعت عدة عوامل السكان الاصليين إلى تعلم العربية ، فهى لغة الدين ولغة القرآن ، وهى منذ حوالى ٨٧ هـ اللغة الرسمية للدولة ، وهى لغة الطبقة العربية الحاكمة ، وكل هذا جعل الطامحين في مكانة اجتماعية رفيعة أو في التعامل والتكامل في الدولة الإسلامية يحاولون تعلم العربية . وفى القرن الثانى الهجرى زاد الاختلاط بين العرب والسكان الاصليين في مصر ، إذ سمح للعرب الوافدين بامتلاك الأرض ، وفى هذا يقول المقرئى : « ولم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة ، وهنا نسجل انجساح كثير من العرب - فى وقت كانت مكانة العربية قد استقرت فيه - إلى الاستقرار في الريف ، وهذا ما أتاح مزيدا من التحريب ونشر الدين خارج مراكز النقل في المدن والنجمعات العسكرية .

ولا نكاد ننسى طويلا حتى نصل في خلافة المعتصم العباسى (٢١٨-٥٢٢٧هـ) إلى نقطة تحول هامة في وضع العرب في مصر ، لقد انتقل الحكم إلى العباسيين اعتماداً على العناصر غير البدوية ، فتكون الجيش الإسلامى من غير البدو ، وهنا فقد العرب وظيفتهم كطبقة عسكرية في مصر ، ولم تعد لهم أهمية بالنسبة للدولة لحرم البدو من رواتب الدولة التى كانت تؤدى إليهم باعتبارهم جنوداً^(١) وفى هذا

(١) انظر مقدمة عبد المجيد عابدين لتحقيق كتاب المقرئى ص ١٠٤

يقول المقرئى : « فانقرضت دولة العرب من مصر ، وصار جندها المعجم والموالى من عهد المعتصم . و أدى هذا الموقف الجديد إلى توطين كثير من البدو المسرحين فى الريف فأسهموا فى تربية الريف ، ورفض بعضهم احترام الفراعة وفضل الهجرة جنوبا إلى منطقة تشاد — وهو ما نشير إليه فيما بعد . وهاجر بعض هؤلاء الوافدين إلى الجنوب الشرقى لصعيد مصر . وكانت قبائل ربيعة قد نزلت أرض مصر فى العصر الطولونى ، ثم هجرتهم الدولة جنوبا لوقف إغارات البجة الذين كانوا يتحكمون فى المنطقة ويرهبون الحجاج ، وما أن قتلوا حاكم فقط — على البحر الأحمر — ومن معه من الحجاج حتى دفعت الدولة قبائل ربيعة لسكب جماع البجة . فقاوموهم ، ثم تزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب بالملاقى ، فكثرت أموالهم واتسعوا فى أحوالهم . وعن هذا الزواج بين البجة وربيعة تجمت أسرة « أولاد الكنز » نسبة إلى جدهم صاحب النفوذ فى العصر الفاطمى الملقب بكنز الدولة ، وظل الكنوز أصحاب نفوذ فى جنوب مصر حتى قضى العادل أبو بكر بن أيوب عليهم سنة ٥٧٠هـ ،^(١) وبذلك أسهم تهجير ربيعة واختلاطها بالبجة فى تربية هذا القطاع البشرى بين الوادى والبحر الأحمر .

وقد ظلت منطقة النوبة بعيدة عن موجات تربية مصر ، ولهذا تفسير تاريخى واضح المعالم ، فقد عرف النوبيون فى فجر الفتح الإسلامى مملكة نوبية متحدة عاصمتها دنقلة (تنطق : دنجلة بجمع مصرية) ، ومملكة علوه وعاصمتها سوبه وظل النوبيون وثنين حتى القرن السادس الميلادى عندما انتشرت المسيحية بين النوبة والبجة . ولم تتجاوز الجيوش العربية الفاتحة حدود مملكة النوبة ، بل وقفت دونها وارتبطت النوبة مع مسلمى الشمال بماهدة عقدت سنة ٦٤١ هـ عرفت باسم البقطة (عن الكلمة اللاتينية Pactum وتعنى التعاهد أو الحلف) . وقد نصت هذه

(١) المقرئى : ٤٤ .

الاتفاقية على عدم إقام العرب في النوبة مقابل التزامات أخرى يلتزم بها النوبيون^(١)، والملاحظ هنا أن البقظ منع إقامة العرب في المنطقة دون تهريبها. واستمرت ملكة النوبة في عزلتها عن المريية حتى أن ابن سليم الاسواني الذي زار النوبة سنة ٥٢٦٥ لاحظ أن العرب الذين اختلطوا بالنوبة، قد تعلموا النوبية وكادوا ينسبون المريية. واستمرت الحال في النوبة على هذا النحو إلى أن تحوالت إلى منطقة تابعة لمصر في القرن الثالث عشر الميلادي على أثر خلاف على عرش ملكة النوبة أدى بنفوذ القاهرة إلى تعيين حاكم من السكندرية المتربين، ويبدو أن تحول النوبة إلى الاسلام كان بطيئا، ففي القرن الرابع عشر ذكر ابن بطوطة^(٢) أن حاكمهم مسلم وأنهم مسيحيون.

أما تهريب المناطق الواقعة بين وادي النيل والبحر الاحمر فقد زاد، إذ اهتم القاطميون بتحويل التجارة إلى البحر الاحمر كي ينافسوا العباسيين، فازدهرت المحطات التجارية على الساحل السوداني للبحر الاحمر، وازدهر كذلك نهر عيذاب. وبعد تخلص المهاليك من الاحتلال الصليبي في الشام عادت التجارة إلى طريقها القديم. كانت الحركة التجارية قد دفعت بكثير من العرب إلى منطقة ساحل البحر الاحمر فأسهموا في تهريبها، وعندما كسدت الحركة التجارية عبر البحر الاحمر أخذوا يسلبون العابرين، وكان أن انقضوا على ركب يمني قادم إلى مصر يحمل هدايا لسلطان

(١) انظر كتاب مصطفى مسعد الاسلام والنوبة، وكذلك: المقرئ في المواظ والاعتبار (بولاق) ٢٠٠/١، والبلاذري في فتوح البلدان (نشرة دي خويه، ليدن ١٨٦٦) ص ٣٩٦، والمسعودي في التنبيه والاشراف (نشرة دي خويه ليدن ١٨٩٧) ص ٢٢٩ - ٢٣٠. والنص عند المقرئ: «د على أن تدخلوا بلدنا بجنازين غير مقيمين فيه، وتدخل بلدكم بجنازين غير مقيمين فيه».

(٢) رحلة ابن بطوطة ص ٦٨

المهاليك ، فتحرك جيش السلطان وهزم هؤلاء البدو في معركة أسوان سنة ٧٥٤هـ ،
فهرب بعضهم مهاجرا إلى السودان وهنا حدثت خلخلة بشرية في هذه المنطقة جعلت
السلطان يعمل على نقل الهوارة — وسيأتي ذكرهم — إلى المنطقة .

وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي كان عدد كبير من القبائل
العربية قد تجاوز حدود النوبة جنوبا ، يقول ابن خلدون : « وبالصميد الأعلى
من أسوان وما وراءها إلى أرض النوبة إلى بلاد الحبشة قبائل متعددة وأجيا متفرقة
كلهم من جهينة — إحدى بطون قضاة — ملأوا تلك القفار وغلبوا النوبة
على مرأطهم وملكهم ، وزاحموا الحبشة في بلادهم وشاركوهم في أطرافها (١) . »
والواقع أن هجرة بطون كثيرة من جهينة إلى السودان كانت قد تمت في عصر ابن
خلدون ، وما تزال آثار هذه الهجرات واضحة في السودان العربي ، فالتجمعات
البشرية المسماة باسم : رفاعة والسكبايش ودار حامد والبقارة في كوردفان ودارفور
والمناطق الغربية تنسب نفسها إلى جهينة وينبغي أن نوضح هنا أن هذه التجمعات
البشرية إنما نتجت عن الاختلاط بين العرب المهاجرين والسكان الأقدم . وهذه
أيضا حال التجمع البشري العربي الثاني في السودان ، ويطلق عليهم اسم « الجميلين » ،
وهؤلاء الجميلون منتشرون في المنطقة الممتدة من الحبشة إلى تشاد . وهكذا كان
تعريب السودان مرتبطا بالهجرات الوافدة عبر مصر ، ولم يتضح بعد دور الهجرات
عبر مضيق باب المندب والتي نفترض أنها أمدت السودان كذلك بدماء عربية ولسان
عربي ، ولكننا لا نستطيع القول بالرأى في هذا لنقص المصادر .

٢ - المغرب وتعريب البربر :

كانت هجرة بني هلال وبني سليم هي العامل الحاسم في تعريب المغرب في القرن
الحادي عشر الميلادي ، فالفتح الاسلامي كان ذا أثر في تعريب منطقة الساحل ،

(١) ابن خلدون ١٠/٦ .

وفي هذا يقول ابن خلدون : « الدرب لم يكن المغرب لهم في الأيام السابقة بوطن ، وإنما انتقل إليه في أواسط المائة الخامسة أفريق من بني هلال وسليم اختلطوا في الدول هناك » (١) . وفي موضع آخر يقول ابن خلدون : « العرب لم يوطنوا بلاد المغرب ، ثم انهم دخلوا إليه في منتصف المائة الخامسة وأوطنوه ، وافترقوا بأحيائهم وحللهم في جهاته » (٢) . « والعبارة أن تحملان قدرا من التعميم الذي لا يبرره القرائن التاريخية — التي نستقي بعضها من كتابات ابن خلدون نفسه — وعنصر التعميم هنا في ابن خلدون وجود تعريب في المغرب قبل الهجرة الهلالية .

وقد لاحظ المغربي الفرنسي وإيام مارسيه وجود مجموعتين إثنين من اللهجات العربية في المغرب (٣) . فالمدن الساحلية مثل القيروان وتونس وتلسان وفاس تختلف في لهجاتها — وهي متشابهة متقاربة — عن لهجات البدو والمناطق الريفية ومنخفضات برقة وجنوب تونس والريف الجزائري وجنوب المغرب والسواحل الجنوبية . وبهذا تنقسم لهجات المغرب إلى مجموعتين متميزتين ، تمثل كل مجموعة منهما مرحلة بعينها من مرحلتى تعريب المغرب . فالمجموعة الأولى وريث اللغة المشتركة التي تكونت في القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة مع قيام المدن العربية في المغرب والمجموعة الثانية وريث لهجات بني هلال وبني سليم .

المجموعة الأولى — في المقام الأول — لهجات مدن ، ويدعم هذا قول ابن خلدون عن عرب الفتح في المغرب : « إن الملك الذي حصل لهم ينتمون من سكنى

(١) المرجع السابق ٨/٦ .

(٢) المرجع السابق ٢٧/٦ .

(٣) انظر البحث التالي :

W. Marçais, Comment l'Afrique du Nord s'est arabisée, dans Annales de l'Inst. d'Et. Orient. Facult. Lettres d'Alger (1938, t. IV) .

الضاحية ويعدل بهم إلى المدن والأمصار ، وينبغي أن نلاحظ هنا أن هذه المجموعة من اللهجات تضم كذلك عددا من اللهجات التي أمثبتها الدراسات الميدانية الحديثة للمناطق الزراعية التالية: الساحل التونسي، المنطقة الساحلية شمال قسطنطينية، ومنطقة تزاره شمال قسطنطينية ، وكذلك مرتفعات جباله في شمال فاس . وكل هذه اللهجات تكون مجموعة واحدة تتفق في عدد من الخصائص التي تميزها عن اللهجات العربية الأخرى في المغرب . فالمجموعة الأولى أقدم من المجموعة الثانية، يتضح هذا من كثرة الالفاظ البربرية بها ، كما يتضح من أثر اللفظة البربرية في هذه اللهجات .

إن هذه اللهجات كانت في القرون الأولى جزراً لغوية عربية في منطقة تحيط بها لهجات بربرية مختلفة .

ومع هذا فقد تم في وقت مبكر تعريب قسم من البربر ، فلاشك أن التعامل بالعربية مع مراكز الحكم جعل بعض البربر المحيطين بتلك المراكز يقبلون على تعلم العربية ، وليس صحيحاً أن المناطق التي تعربت قبل الموجة الهلالية في القرن الحادى عشر الميلادى كانت تضم عرب الفتح وحدهم ، فالبربر الذين بادروا إلى الإسلام وانتظموا في جيوش الفتح الإسلامى الزاحف إلى الأندلس اختلطوا بالعرب وتزاوجوا معهم ، فانخذت كثرة من الأسر الإسلامية الجديدة أنساباً عربية ليدخلوا في الأرسقراطية الحاكمة . وبعد تأسيس مدينة فاس سنة ١٠١٣ هـ أصبحت هذه المدينة مركزاً للعرب والمتعربين في المغرب ولمن اضطروا لهجر الأندلس أو تونس في الظروف السياسية المضطربة .

وفي نفس الوقت كانت العلاقات بين الأندلس والمغرب الأفضى تدعم مكانة العربية باعتبارها لغة التعامل المشتركة فضلاً عن كونها لغة القرآن الكريم ، وبذلك أسهمت هذه العلاقات في تعريب المنطقة . وقد لاحظ الباحثون تشابه ما عرف عن اللهجات العربية في أسبانيا والاستخدام اللغوى في هذه المدن المغربية الأولى .

أما المجموعة الثانية من اللهجات العربية في المغرب فهي لهجات تتحدث بها

مجموعات بشرية تنتسب إلى بني دلال وبني سليم . ومعروف أن هجرة بني هلال
و بنى سليم إلى المغرب (- تغريبية بنى هلال) أحدثت أكبر تحول بشري عرفته
المنطقة في العصور الوسطى . وينبغي أن نقف قليلا لتتابع ظروف تحركاتهم وخط
سيرهم ، فقد دخل الهلاليون مصر الفاطمية بدعوة من حكامها وطاشوا في الصعيد
حياة بدوية ، الغزو أحد مقوماتها ، فعم ضررهم ، وأحرق البلاد والدولة شررهم ،
ومالبت الفاطميون أن فكروا في دفعهم إلى المغرب ليقفوا في وجه البربر من
صنهاجة الذين ثاروا على التبعية للفاطميين . وفي هذا يقول ابن خلدون : « دفعهم
إل حرب صنهاجة ، ليكفروا عند نصر الشيعة والسبب في الدفاع عن الدولة ،
فإن صدقت الخيلة في ظفرهم بالمعز وصنهاجة كانوا أولياء للدعوة وعمالا بتلك
القاصية ، وارتفع عدوانهم عن ساحة الخلافة ، وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها » (١)
وترغيباً لبني هلال في دخول المغرب و وصل عامتهم بعير ودينار لكل منهم ،
وأباح لهم إجازة النيل ، وقال لهم أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بسكين الصنهاجي
العبد الأبق فلا تفتقروا » (٢) . وهكذا تحركت بطون كثيرة من بني هلال متجهين
إلى المغرب العربي ، وفي هذا يقول ابن خلدون : « سارت جميع بطون هلال
إلى أفريقيا كالجراد المنتشر لا يمرون بشئ . إلا أتوا عليه حتى وصلوا أفريقية سنة
ثلاث وأربعين (٤٤٣ هـ) (٣) . وهكذا بدأت « تغريبية بنى هلال ، وبدأت بذلك
سلسلة طويلة من الصدام والصراع بين الغازين وأبناء المنطقة . وقد اهتم ابن خلدون
بهذه الموجة ، واستخدم مصطلح « عرب الفتح » للدلالة على الموجة العربية الأولى
التي دخلت المغرب ، فهو يقول : « ولما تزاحم الفريقان اتخذ بقية عرب
الفتح وتحبوا للهلالية للعصية القديمة ، وخانته زمانه وصنهاجة وكانت الهزيمة

(١) ابن خلدون ٦/٣٠ .

(٢) المرجع السابق ٦/٣٠-٣١ .

(٣) المرجع السابق ٦/٣١ .

على المغرب (١)، وهكذا دخل بنو هلال وبنو سليم المغرب .

وبعد فترة سادها الصدام البدوي الممتد والغزوات المتجددة ، لاحظ الهلالية والبربر أن نمط حياتهم ومثلهم متشابهة متماثلة ، وفي هذا يقول ابن خلدون : البربر أشبه الخلق بالعرب ، فالبداءة ليست ظاهرة عربية ينفرد بها العرب ، ومازلنا نعرف إلى اليوم بدوا من البربر في المغرب ، بل ويعتبر الطوارج (بحيم مصرية) أكثر البربر تديبا ، وهم لا يمتنون بصلة مباشرة إلى العرب ، فهم لا يستخدمون في التعامل اليومي المحلى إلا البربرية .

كان البربر والعرب الغازون يمثلون نمطا من أنماط الحياة يقوم على الرعي ، ويدور داخل القبيلة ، ويحتفل بالدم والأنساب . وأدى هذا التشابه إلى الاندماج بين العرب والبربر . وكان من الممكن أن يؤدي هذا الاندماج إلى ذوبان العرب في البربر لولا أن اللقاء كان في إطار الإسلام والحضارة العربية الإسلامية ، وبذا كان هذا الاندماج مشجما على تعريب أكثر البربر في المغرب .

ونستطيع تتبع مراحل التعريب في ضوء ما كتبه المؤرخ ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي ، فهو يصور لنا ثلاثة قرون من الانتقال المسكاني والاندماج البشري والتحول النوعي في المغرب .

لقد صور ابن خلدون انتشار العرب في المغرب قبل تغريبة بني هلال قائلا : « إن آخر مواطن العرب كانت برقة ، وكان فيها بنو قرة بن هلال بن عامر . . . ولما أجاز بنو هلال وسليم إلى المغرب خالطوهم في تلك المواطن ، ثم ارتحلوا معهم إلى المغرب وبقي في مواطنهم لهذا العهد (- القرن الرابع عشر الميلادي)

(١) المرجع السابق ٣٢/٦ .

حياء بنى جعفر،^(١) ومضت تحركات الهلالية وزاد اندماجهم لامع عرب الفتح لحسب، بل مع البربر كذلك. وبهنا هنا أن كثيراً من القبائل البربرية قد تعربت بين القرنين الحادى عشر عندما دخل الهلالية والرابع عشر عندما دون ابن خلدون كتابة: العبر. لقد تعربت قبائل بربرية كثيرة، فقبيلة كتامة من قبائل البربر^(٢) ولكنها كانت قد تعربت بائدماج أهلها مع بنى سليم، وأخذ التجمع البشرى الناتج ينتسب إلى بنى سليم، وفى هذا يقول ابن خلدون: وهم ينتفون من نسب كتامة ويفرون منه لما وقع من أربعمائة سنة من التسكر على كتامة بانتحال الراضة وعداوة الدول بمدهم، فيفادون الانساب إليهم، وربما انقبوا فى سليم من قبائل مضر وليس ذلك بصحيح،^(٣)

وذكر ابن خلدون بطونا أخرى، كانت بربرية ثم اختلطت وتعربت فنسبت نفسها إلى العرب^(٤). ومن أهم الأمثلة الدالة على تعريب قبائل من البربر بين القرنين الحادى عشر والرابع عشر تعرباً كاملاً مادونه ابن خلدون عن البوار^(٥)، فهذه القبيلة الكبرى كانت من بطون البرانس، يتفق فى هذا نسبة البربر والعرب، وكانت مواطنهم فى القرن العاشر الميلادى — كما نقل ابن خلدون عن البكرى — بنواحى طرابلس وما يليها من برقة^(٦)، ولكنهم اختلطوا أول الأمر ببعض الهذليين الذين جاءوا من مواطنهم بالحجاز مع العرب الهلاليين عند دخولهم إلى المغرب،

(١) المرجع السابق ٦/٨ - ٩.

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٥١.

(٣) ابن خلدون ٦/٤٠٤.

(٤) المرجع السابق ٦/٣٨٠.

(٥) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٥٠٠.

(٦) ابن خلدون ٦/٣٨٤.

واختلطوا بهوارة وحطوا في عدادهم،^(١). ويبدو أن اشتغالهم بالتجارة مع بلاد السودان عبر الصحراء ومع الاسكندرية عبر الساحل - جعلهم ينتشرون في منطقة واسعة ويختلطون ببني سليم. وكانت بطون من بني سليم تتمر المنطقة الممتدة من الاسكندرية إلى برقة، وبمضى الوقت اندمج الهوارة في بني سليم فأصبحت منازلهم جميعا بين برقة والاسكندرية، وما تكاد نصل إلى القرن الرابع عشر الميلادي حتى نجد الهوارة صاروا في عداد الناجمة - عرب بني سليم - في اللغة والى وسكنى الحيام وركوب الخيل والابل وممارسة الحروب وايلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تولهم، قد نسوا رطانة البربر واستبدلوها بفصاحة العرب، فلا يكاد يفرق بينهم،^(٢)، وهكذا تحرك الهوارة شيئا فشيئا مقتربين من مصر وقد تميزوا باندماجهم مع بطون من بني سليم، ويبدو أن عداد من الهوارة تحرك جنوبا إلى فزان فكانت لهم بها محطة تجارية عظيمة، أو كما يقول ابن خلدون: «كان لهم بهما ملك ودولة»^(٣).

ولم تكن هوارة القبيلة البربرية الوحيدة التي اختلطت مع عرب بني سليم وبني هلال فمغربت، فابن خلدون يذكر أن المنطقة الممتدة غرب الدلتا كانت بها قبائل رحالة ينتقلون في نواحي البحيرة هنا، ويمعمرون أرضها بالسكنى والفلح ويخرجون في المشاق إلى نواحي العقبة وبرقة، ويذكر ابن خلدون من هذه القبائل «بعض بطون لواته»، ثم يقول: «ويندرج فيهم أخلاط من العرب والبربر لا يحصون كثرة»^(٤). ولتقف قليلا عن نسب قبيلة لواته، فهي

(١) المرجع السابق ٢٨٩/٦.

(٢) المرجع السابق ٢٨٨/٦.

(٣) المرجع السابق ١٩١/٦ - ١٩٢.

(٤) المرجع السابق ١٠/٦.

قبيلة من البربر تعربت شيئا فشيئا، وما نكاد نصل إلى عصر المقریزی حتى نجد
يذكرهم بين القبائل العربية في مصر، ويقول: « وفي معظم بلاد الينسنا لواته،
ومنهم طوائف بالجيزة والمنوفية » (١). وهكذا نلاحظ تحرك البربر المتعربين من
المغرب الأوسط إلى البحيرة ثم إلى المنوفية والجيزة.

ولكن انتشار البربر المتعربين لم يقتصر على الوجه البحري، فقد ذكر
المقریزی هواره، وحار في أصلها بين العروبة والأبرية (٢). ثم حدد منازلهم في
عصره قائلا: « ثم قدم منهم طوائف إلى أرض مصر، ونزلوا بلاد البحيرة ..
وهواره التي ببلاد الصعيد أنزلهم الظاهر برقوق بعد وقعة بدر بن سلام هنا سنة
اثنين وثمانين وسبعمائة تخميناً » (٣)، وهكذا دخلت مصر عدة قبائل عربية اللغة
بربرية الأصل، فأسهمت في تعريب مصر بعد أن عربهم بنو سليم وبنو هلال في
تعريبهم بعد خروجهم من مصر.

ولنتظر بعد هذا فيما كتبه ابن خلدون عن قبائل البربر المقيمين في المغرب في
عصره، فنلاحظ مع الباحثين أن عددا من القبائل البربرية التي ذكرها ابن خلدون
في المغرب الأقصى والأوسط قد تعربت، فقبيلة زناتة البربرية (٤) كانت في عصر
ابن خلدون قبيلة بربرية كبيرة، يقول: « وشعارهم بين البربر اللغة التي يتراطنون
بها، وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر، ومواطنهم في سائر مواطن البربر
بأفريقية والمغرب » (٥)، ولكن أين هم اليوم؟ لقد ظهرت في المنطقة تجمعات

(١) البيان والإعراب للمقریزی ٢٧-٢٨.

(٢) المرجع السابق ٥٨.

(٣) المرجع السابق ٥٨.

(٤) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٩٥.

(٥) ابن خلدون ٣/٧ وكذلك ١٣/٧-١٤.

بشرية جديدة تنسب نفسها جميعا إلى بنى هلال وبنى سليم وتتوسل بالعربية ، ولو سلمنا بأنهم جميعا من أحفاد الهلالية والسليمية لتصورنا المنطقة كانت خالية قبل التغرية . والادنى إلى الصواب أن نقول بأن هؤلاء البربر - ومنهم القبيلة العظيمة زناتة قد تزوجوا مع العرب ، فتعربوا كما تعربت هواة ولواته قبل ذلك ، وبذلك تغيرت الصورة اللغوية للمغرب ، فأصبحت ربوعه - بغض النظر عن الجزر اللغوية البربرية - عربية اللسان .

وختاماً لا بد أن نشير إلى أن المصادر التي ترسم لنا مراحل التعريب بعد القرن الخامس عشر لم تر النور بعد ، وربما تكون المخطوطات العربية المغربية حافلة بمعلومات في هذا . غير أننا نود أن نوضح أن أكثر التنظيمات العشائرية هناك إنما ترجع على الأرجح إلى فترة الحكم التركي ، وهي لا تنسب نفسها إلى زناتة أو لواته ، بل هي أولاد سيدي . . . واليوم لا نجد التوزيع القديم ، ولا نجد اللهجات البربرية الباقية إلا في مناطق مرتفعة . وهنا يحضرنا قول ابن خلدون : « إن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط ، أي على الأرض السهلة ، فالواقع أن موجة التعريب وقعت عند جبال البربر العالية .

٣ - العربية جنوب دول المغرب :

لا تقصر العربية على الدول التي توصف اليوم بأنها من الدول العربية ، فانتشار اللغة العربية في موريتانيا لا يكاد يقل عنه في المملكة المغربية . وفي حديثنا عن تعريب المغرب كنا نتناول كذلك منطقة موريتانيا التي مرت بنفس الظروف والموجات البشرية تقريبا ، وعرفت الاختلاط بين العرب والبربر وغيرهم مما اتاح لها نوعا من التعريب . ولا ينبغي هذا أن اللهجات البربرية هي اللغات الأصلية لنصف سكان موريتانيا - فيما يقال ، وأن نصف هؤلاء يستطع التعامل بالعربية والبربرية ، أي أن ثلاثة أرباع موريتانيا يستخدمون العربية لغة أساسية أو لغة تعامل أو لغة دين ، رغم أن اللغة الفرنسية هي لغة الدولة الرسمية . ويواجهنا

موقف مشابه إذا اتجهنا في المنطقة الممتدة من السنغال ومالى إلى تشاد، فالعربية مستخدمة هناك في مناطق كثيرة تارة لغة أم وأخرى لغة تداول. وتختلف كثافة هذه المناطق العربية من منطقة لأخرى، فالبحث لا يزال قاصراً عن استيعاب القارة الأفريقية لغوياً. غير أننا نكتفى هنا بملاحظة بارت Barth وناختيجال (١) Nachtigal أن العربية منتشرة من شمال السنغال ومنطقة النيجر إلى تيبكتو، ثم من بورنو إلى دارفور، والمنطقة الوحيدة التي ينقطع فيها استخدام العربية هي المنطقة من بورنو إلى تيبكتو.

وأكبر تجمع نشرى يستخدم العربية كلغة أم في هذه المنطقة هم ذووحسان، وتسمى لهجتهم العربية باسم الحسانية، وهؤلاء الحسانية أو بنو حسان أو ذووحسان يتحدثون العربية في حياتهم الخاصة. وقد دون ابن خلدون أول إشارة وصلت إلينا عن هؤلاء العرب الذين يطلق عليهم «عرب الممقل» - وقد عد ليو الأفريقي ذوى حسان أحد فروع ثلاثة كان عرب الممقل ينقسمون إليها (٢)

(١) اعتمدنا في هذا على بحث :

G. Kampffmeyer, Materialien zum Studium der arabischen Beduinendialekte Innerafrikas, in : MSOS II 1899 II pp.143—221.

دخلت موريتانيا - عضواً في جامعة الدول العربية.

(٢) في القرن السادس عشر الميلادى ألف الحسن الوزان، المعروف باسم Leo Afrikantıs ليو الأفريقي كتاباً ضخماً في وصف افريقية، باللغة العربية لم يصل إلينا إلا في ترجمته الإيطالية وفي الفرنسية واللاتينية والانجليزية والهولندية المنقولة عن الترجمة الإيطالية. وأغلب الظن أن هذا الكتاب ثمره معايشة وملاحظة استمرت سنين طويلة، والالما استطاع مؤلفه أن يدون ملاحظات مفصلة بعد عشر سنوات من مفارقه القارة الإفريقية دون أن يقرأ طول هذه الحقبة كتاباً =

— يقول ابن خلدون : « كان عرب الممقل منذ دخول عرب الهلاليين إلى صحراء المغرب الأقصى أحلاقا وشيما لوزاته (المبر ١٧٥/٧) » . فهؤلاء العرب ربما جاؤوا هذه المنطقة مع الهلالية ، وربما جاؤوا المغرب قبل الهلالية ، أو قبيل الهلالية ، غير أننا لا نستطيع لفظة المصادر الفصل في هذا ، ولكن عبارة ابن خلدون تشير إلى كون عرب الممقل هناك عند دخول الهلالية صحراء المغرب الأقصى .

لقد ألف بنو حسان بالعربية ترانما ما تزال صورته غير واضحة المعالم ، ولعل المكتبات الخاصة والعامة تخطب اللثام قريبا عن هذا التراث ، غير أننا نود هنا الإشارة إلى كتاب ألفه محمد بن احمد يور العاقل الديباني بعنوان : « أخبار الأخبار بأخبار الآبار » (١) .

يقول المؤلف في كتابه بالأصل العربي لبني حسان ، يقول : « لا خلاف بين علمائنا وأهل النسب من قدمائنا كسيد محمد والد صاحب أنساب أهل الصحراء وشيخه محمد السيد إلى أن بنى حسان أصلهم عرب (٢) . » وذكر المؤلف بعد ذلك شعرا في مدح بنى حسان بأنهم ورثوا الإقدام والجرود والنجدة من قريش ، وأنهم

عربياً واحداً في موضوع كتابه . وعلى الرغم من عدم وضوح أسماء الأعلام والقبائل الأفريقية عند ليو الأفريقي فنستطيع أن نجد في وصف أفريقية ما لا يجده في المصادر العربية المتاحة ، فهو يذكر بطون ممقل - وهم هؤلاء العرب المقيمون في مالي - ويقسمهم إلى ثلاث تجمعات منهم حسان ، ويقسم عرب أفريقيا عموماً إلى قبائل شاهين وقبائل هلال وقبائل ممقل .

(١) نشر ريفيه باسيه R. Basset هذا الكتاب العربي ضمن كتابه :

Mission au Senegal, Paris (1909)

(٢) المصدر السابق ٥٦١ .

(٣) المصدر السابق ٥٦١ .

من نسل جعفر بن أبي طالب ، ثم قال بمد ذلك : « وقد شاع هذا النسب على السنة العامة والخاصة ولهبج به الصغير والكبير » . ويتضح رأى المؤلف في هذا من العبارة التالية : « واعلم أن كون بنى حسان من قريش غير متفق عليه ... وأما كونهم من العرب فلا خلاف فيه ولا شك ، وبعضهم ينسبهم لهوازن وبعضهم ينسبهم إلى قريش » . ويدعم محمد بن أحمد يور القول بالأصل العربي لبني حسان قائلا : « ويعضد ذلك أنهم لم يتكلمون قط إلا بالعربية » . فهم ليسوا من البربر المتعربين بل من العرب الوافدين الذين جاؤوا بلغتهم إلى وطنهم الجديد ، يقول المؤلف : « بل سمعنا من غير واحد أن لغة أولهم كانت عربية قحة غير مشوبة بشيء من كلام البربر إلا أنها غير معربة » .

وقد حدد المؤلف دخول الحسانية هذه المنطقة بالعبارة التالية : « دخلوا هذه البلاد وتغلبوا عليها وعلى ما حولها من بلاد السوادين عام ١٠٤٠ م » .

ورغم أن موضوع هذا الكتاب التعريف بالآبار وشرح أسماء البربرية وأهمية الأماكن التي بها الآبار فإنه يضم كثيرا من الأخبار ذات الأهمية الاثنولوجية واللغوية ، فعندما نتحدث عن أحد الأماكن قال عنه أنه « مستقر بني ديمان من قديم الزمان إلى الآن وكان فيه من العرب أولاد بوزكر ثم جلام أمير الترارزة المختار بن عمر » وفي حديثه عن الأماكن المختلفة يذكر العلماء الذين عاشوا فيها أو دفنوا بها ، فيقول عن سيد محمد بن سعيد اليدالي (ت ١١٦٦ هـ) إنه مؤلف « الذهب الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز ، وحلة السيري في الساب خير الوري » . وبالكتاب فقرات طريفة توضح لنا أن التلميم والتأليف في تلك البقاع لم يكن قاصرا على الرجال دون النساء ، فالمؤلف يذكر في ترجمة أحد العلماء « أخذ العلم الظاهر عن أخته خديجة بنت محمد المافل وكانت دولته حيثئذ العلامة المختار بن بون صاحب طرة ألفية ابن مالك وغيرهما من التصاريف والامير الصالح الإمام عبد القادر المغربي ، قرأوا ثلاثهم عليها » . ويذكر المؤلف بعد ذلك من مؤلفات

خديجة : شرح مليح على عقيدة محمد بن يوسف السنوسى المسماة بام اليراهين يدل على نهايتها في المعقول .

ويبدو أن مؤلف هذا الكتاب كان يعرف بجانب العربية البربرية وإحدى لغات أفريقيا السوداء ، وهو يشرح أسماء الأماكن في ضوء معارفه هذه : « أنو كسوط ، أصله أنو كسوط ، أما كلمة أنو فعناها بير أو عين ماء ، وهو يشرح الكلمة الثانية قائلا : « واكسوط بالبربرية من لا أذنان له ومقطوعها وهو البير الذى بنت الفرائسية عنده الآن » (١) .

وهكذا يتبع لنا هذا الكتاب معرفة بالحياة اللغوية هناك . ولعل العبارة التالية توضح لنا مدى الصعوبة التى كانت تواجه هؤلاء المؤلفين في تلك الأبحاث . وتبين صلتهم بالثقافة العربية ، فهو يقول عن محمد الولي بن المختار . . . ابن يدال (ت ١١٦٦) : وكان إذا أوى الناس إلى مرآدم بالليل أوقد شمعتة ويبيت يوافق إلى طلوع الفجر وكان يقول على وجه الإخبار لا على وجه الافتخار : لو لم يكن بدويا ، فإنه كان حضريا لألف قدر ما ألف السيوطى .

وهكذا عرفت هذه المنطقة اللغة العربية من عدة قرون ، وعرفت مؤلفين يطالعون مؤلفات ابن مالك ويعلقون عليها ويعرفون السيوطى ويؤلفون العربية . وما تزال انتشار لهجتها في غرب أفريقيا بحاجة إلى بحث لغوى جغرافى دقيق ، ولدينا بحث عن لهجة الحسانية في موريتانيا ، ومعجم فرنسى عربى وفرنسى أعدته في دراسته عن السنغال المستشرق الفرنسى باسيه .

هذا وتوجد في المنطقة الممتدة من تمبكتو إلى كانم ووادى إلى غرب السودان تجمعات بشرية كثيرة تتحدث العربية كافة أم أو تستخدم العربية كلغة تداول ،

(١) المصدر السابق ٥٧٩ .

وليست لدينا دراسات تفصيلية عن الحياة القروية لهذه الجماعات الاثنية ، غير أننا نستطيع اعتمادا على ما جاء في كتب الرحالة العرب في العصور الوسطى وبعض الرحالة الاوروبيين في العصر الحديث أن نعرف بعض هذه الجماعات العربية في قلب أفريقيا ، وترسم المصادر الصورة التالية للعربية هناك :

١ - منطقة تشاد بها حوالي مليون عربي ، وهؤلاء العرب مرتبطون بعرب الشرق الافريقي ، فهم ينتمون إلى بطون جينية ، وهم بذلك امتداد لبطون جينية في السودان ، وأكثرهم يعيش إلى الآن حياة بدوية قبلية . وأقدم إشارة إليهم نجدها في كتاب المسالك والممالك للبكري (ت ٤٨٧ - ١٠٩٤) . ويذعمون أن هؤلاء قوماً من بني أمية صاروا إليها عند محنتهم بالعباسيين وهم على ذى العرب وأحوالها ، (١) . وهذه العبارة عرفها الباحث كامفماير ولم يستطع تفسيرها وإن سلم عن حسن صادق بإمكان كونها تعبيراً عن حقيقة تاريخية ، والواقع أن تفسير هذه العبارة مرتبط بتاريخ القبائل العربية في مصر وصدام هذه القبائل مع العباسيين الذين حرروا هؤلاء البدو من مكاتهم كطبقة عسكرية لها رواتبها الدائمة . لقد اصطدم هؤلاء مع السلطة العباسية فكان عليهم إما التحول إلى احترام الزراعة وإما الرحيل ، فتحركت بطون منهم إلى الجنوب . وما نحن نحمدهم في القرن الحادي عشر ما يزالون محتفظين في ذاكرتهم بولاتهم للبيت الاموي وبلغتهم وبنمط حياتهم . ويبدو أن عرب جذام الذين دخلوا مصر مع الفتح الإسلامي كانوا من هؤلاء العرب ، فلدينا في صبح الاعشى (١١٧/٨) وثيقة يشكو فيها حاكم برنو

(١) انظر : أبو عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، نشره :

De Slane, Description de l'Afrique septentrionale, Alger 1857.

وأعاد طبعه بالتصوير فاسم الرحب ، بغداد ١٩٦٨ .

من غزوات « أعراب جذام وغيرهم » . وليست هذه الموجة هي المكون البشري العربي الوحيد لمنطقة تشاد ، فكثير من القبائل العربية هناك تنسب نفسها إلى جيبنة وقد هاجرت جيبنة — وهي قبيلة جنوبية — إلى مصر في العصر الفاطمي . ونحن لا نعلم علم اليقين الطريق الذي اتخذته هؤلاء من الجنوب العربي إلى تشاد ، ربما كان طريقهم عبر سيناء ومصر أو عبر مضيق باب المندب . ولكن الذي يؤكد الرحالة بارت والباحث كامبفهاير أنهم لم يصلوا منطقتهم عبر المغرب الأقصى وموريتانيا ، فهناك منطقة خالية من الجماعات العربية تقع بين بورنو وتمبكتو ، وبذلك ينتمى عرب منطقة تشاد إلى عرب المشرق الأفريقي ، فهم مرتبطون مع قبائل السودان لا مع قبائل المغرب .

وقد ذكر الرحالة بارت أسماء عدد من البطون العربية اللغة ، وبعضها ينسب إلى الهلالية . وهم منتشرون في دار فور وواداي وبورنو . ويبدو أنهم في رأي كامبفهاير — قد جاءوا هذه المنطقة من تونس ، وفي هذا نظر ، فالموجات الهلالية الباقية في صعيد مصر والمائدة إلى مصر ، أو التي كانت في منطقة فزان يمكن أن تكون مصادر خرجت عنها هذه المجموعة إلى تشاد . هذا وتعدد أسماء القبائل عند الرحالة الذين جاؤوا هذه المنطقة ، فهم يتحدثون عن بني حسن الذين يتحدثون العربية فقط وعن بني وائل الذين قال عنهم الرحالة إنهم لا يتحدثون العربية ولهم لغة خاصة بهم ، وعن أولاد راشد ، والحاميد الذين يتحدثون العربية ولونهم يقل سمرة عن جيرانهم من غير العرب .

ولعل من المفيد أن نشير هنا أن عرب واداي ينسبون أنفسهم إلى عرب اليمن ، وتدل القرائن على صحة ذلك . وتؤكد عرب واداي قرابتهم لمعقل ، ومعقل من أصل جنوبي . ولا أدل على جنوبية ذوى حسان وأحد فروع معقل السكري ، من أنهم يصفون أنفسهم باستخدام كلمة « ذو » التي شاعت في هذا السياق بين عرب اليمن ، وذلك : مثل : ذو نوامس . وهناك دليل آخر على كونهم

من أصل جنوى وهو أنهم يستخدمون الإبل المهرية ، ولم تسكن هناك إبل قبيل دخول العرب أفريقيا ، فالرومان لم يذكروا الإبل في شمال أفريقيا . وارتباط الإبل بهذه التسمية ونسبتها إلى المهرة دليل على ارتباطها بمنطقة المهرة على الساحل الجنوى لجزيرة العرب .

وقبل أن نترك هذه المنطقة لابد أن نشير أن هناك عدة لهجات عربية قد تكونت في وسط أفريقيا (١) ، وهذه اللهجات تنضوى بين ما يطلق عليه عند الباحثين اسم : العربية الهجين Pidgin — Arabic ، وأهم هذه اللهجات الهجين توجد في تشاد وجنوب السودان وأوغندا (٢) ، وكل هذه اللهجات متأثرة باللهجات الأفريقية تأثراً بعيداً حتى أنه من الصعب على من لم يتعلمها من أبناء اللهجات العربية الأخرى أن يفهما ، ومن ثم يطلق عليها اللهجات الهجين .

٤ — العربية لغة الدين والثقافة الإسلامية

اللغة العربية هي لغة الدين الإسلامى والثقافة العربية الإسلامية في مناطق أخرى من أفريقيا لا تسودها اللغة العربية . فقد ارتبط الإسلام بحفظ قدر من القرآن الكريم هو الحد الأدنى للضرورة للصلاة ، وحفظ هذه الآيات مرتبط أساساً بقراءة الحظ العربى .

وفوق هذا فعلى رجال الدين وأصحاب الثقافة الدينية قراءة كتب في الفقه الإسلامى بالعربية ومن أراد منهم التعمق في فهم هذه الكتب فعليه دراسة شوية

(١) انظر حول الصيغ المهجنة من العربية :

Bernd Heine, Afrikanische Verkehrssprachen, Köln (1968) s. 121 ff.

(٢) انظر مقال المؤلف : « اللغة العربية بين اللغات الدولية المعاصرة » ، مجلة

كلية الآداب والتربية بجامعة الكويت (١٩٧٢) العدد الأول ٣٢ — ٣٥ .

من العلوم العربية كالنحو والصرف والبلاغة . وهكذا ارتبط الإسلام بالعربية على نحو يجعل للعربية درجة من الانتشار في كل المناطق الأفريقية التي تضم جماعات إسلامية ، ولنحاول أن نوضح هذا بأشلة من بعض المناطق الأفريقية .

هذا ولا يجوز اعتبار كل منطقة إسلامية منطقة عربية إذ مدى المعرفة بالعربية يرتبط بالعلاقة الاثنية للمسلمين ، فالمسلمون في اتحاد جنوب أفريقيا مثلاً يكونون بجمهرة أثنية متميزة ، فمعظمهم من الملايو وأندونيسيا ، وقد عددهم في إحصاء سنة ١٩٥١ بـ ٦٣ ألفاً بجانب قلة من أصول عربية ، يتحدث هؤلاء المسلمون في حياتهم اليومية لغة الأفريكاز — هذه اللغة التي تطورت في أفريقيا عن اللهجة الجرمانية التي حملها المستعمرون الجرمان معهم إلى جنوب أفريقيا — غير أن الاستخدام اللغوي للغة الأفريكاز عند المسلمين به عناصر من اللغة العربية لم يأخذوها عن العربية مباشرة بل عبر لغة الملايو . كان هؤلاء المسلمون يلتقون لاستخدامهم لغة الملايو المكتوبة بالخط العربي (١) .

ومنذ عدة حقب ظهرت لهم كتب دينية أحلت لغة الأفريكاز محل لغة الملايو في المجالات الدينية ، فقد بدأ طبعوا كتبهم الدينية كترجمات مالابوية لكتب عربية وهناك كتب كثيرة طبع النصاب متوازيين ، واليوم أحلوا الأفريكاز محل المالابوية ، وأخذوا يكتبون لغة الأفريكاز لا بالحروف اللاتينية كما يفعل المسيحيون بل بالحروف العربية .

فهؤلاء مسلمون يكتبون بالخط العربي ، ولسكنهم لا يكادون يعرفون من العربية إلا ما تسرب منها عبر المالابوية من مصطلحات دينية .

فالمصادر العربية تشير كثيراً إلى « مالي » و « ملك مالي » ، فإن خلدون يحدثنا

(١) انظر : H. Kähler, Studien zur arabisch-afrikanssen

Literatur, Der Islam (1961) s. 101-121.

عن « ملك مالى أعظم مسلوك السودان » (١) ، وكلمة السودان عند ابن خلدون لا تعنى دولة السودان بحدودها الجغرافية التى نعرفها اليوم ، بل تدل على أفريقيا السوداء عموما ، ويحدد ابن خلدون الرقمة الجغرافية التى كانت عليها مملكة مالى ، فهى تجاور المغرب (٢) ، وتناخم مواطن قبيلة صنهاجة البربرية وتناخم كذلك موطن ذوى حسان (٣) . وخصص العمري (٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م) فى كتابه مسالك الابصار فصلا عن مالى . وقد زار ابن بطوطة (ت ١٣٧٧ م) مالى وظل بها عدة أشهر ولاحظ أنهم مسلمون يصومون ويحجون ويقومون الصلاة ولكنهم على عادات وثنية ، ولاحظ كذلك فى حديث ابن بطوطة عن مالى أنهم كانوا على صلة بمصر وأن بعض المصريين كانوا يعيشون هناك . ولكننا نلاحظ أنهم لا يستخدمون العربية ، ومن ثم فقد نهدمت الحاجة إلى مترجمين ييسرون التعامل . أما الصورة التى برسمها ابن بطوطة للساحل الصومالى فنشبهه ما ذكرناه عن مالى غير أن السلطان الحاكم فى مقديشو كلامه بالمقدشى ويعرف العربية . ويطول بنا الكلام لو تحدثنا عن انتشار العربية سلبا فى غرب أفريقيا أو شرق أفريقيا ، والمصادر المتاحة نادرة ، والتراث العربى الأفريقى ما يزال مجهولا ولم يشتر أكثره بعد ، غير أن الملاحظ فى كثير من دول أفريقيا ذات الجماعات أو الاغلبية الإسلامية وجود معرفة بالعربية .

فى نيجيريا الشمالية يعيش حوالى عشرة ملايين مسلم ، ويتناول التعليم الدينى عندهم فى أدنى مراحل الخط العربى والقرآن ومعظم تلاميذه من البنين ، وفى المراحل الأعلى يتناول برنامج الدراسة الإسلامية : النحو العربى وعلم الكلام وعلم الحديث وقدراً من النصوص الأدبية ، وهناك كتب مشهورة فى المعاهد

(١) انظر : ٥٥٤/٧ .

(٢) المغرب / ٧ ، ٥٥٤ ، ٦٤٥ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ٢٥٤ .

الإسلامية في نيجيريا الشمالية مثل كتاب الأحاديث الأربعين للنووي ، ومختصر خليل في الفقه ويطلق عليه الكتاب ، ومقامات الحريري (١) .

وينبغي أن نشير هنا أن العربية في هذه المنطقة ليست وحدها لغة الثقافة ، فلهذا الهاوسا متداولة غير أن المعرفة بها لا تزيد عن المعرفة بالإنجليزية هنا . ويخلق الصراع بين النزوع إلى التدين والرغبة في ممارسة الحياة الحديثة — قيام مشكلات كثيرة تؤثر بالضرورة على تعليم اللغة العربية في تلك المنطقة .

أما في شرق أفريقيا فتعتبر زنجبار أكبر نقطة تركيز إسلامية توصل بالثقافة العربية ، وهم مرتبطون في قسم منهم بالجنوب العربي اثنولوجياً وثقافياً . أما في أوغندا فالمسلمون من أصل هندي وبمينة وعدد كبير منهم من أصول أفريقية ، وهناك تعليم ديني يقوم به رجال الدين ، ويطلق على الواحد منهم ملا وهي التسمية الفارسية لرجال الدين . ويقتصر هذا التعليم على المراسم الدينية ، أما كبار رجال الدين فلهذه إجازات في الباكستان ودار السلام وزنجبار وحضرموت وعدن ، وشبهه بهذا ما يلاحظ في كينيا ، والمشكلة التي تواجه اللغة العربية هناك أنها مرتبطة بالماضي وتعلم كإداة لفهم الدين ، فمعاهد العلم التي تتيح تعلم العربية هي معاهد إسلامية . أما للتعليم الفنى الحديث فلا يهتم بتعليم العربية ، ولعل السنوات القادمة تتيح تغيراً في هذا الموقف . هذا وقد أدت الترجمة السواحلية للقرآن التي أعدتها الطائفة الأحمدية إلى جذب الكثيرين نحو الإسلام ، فحوالي ٨٠ — ٨٥٪ من المسلمين الأفريقيين قد أسلموا على يد الأحمدية .

ولا ينق هذا أن هناك دراسات ما تزال تجعل اللغة العربية ضمن برنامج التعليم الديني ، ففي مومباسا يلتقى طلاب مع شيوخهم في المساجد لدراسة اللغة العربية والتفسير والفقه والبلاغة والحديث والتصوف والتوحيد في حلقات مسائية ذات

(1) J. Schacht, Islam in North Nigeria. Studia Islamica No. 46.

برنامج يتد سنوات . ورغم اختلاف الطوائف الدينية الإسلامية فكل من أراد ثقافة إسلامية عالية يتوسل بقدر من العربية يتيح له الاطلاع والفهم . أما في الصومال فالعربية أكثر انتشاراً واستخدامها الإيجابي⁽¹⁾ فهي لغة التعامل والكتابة؛ والعربية لغة الدين والحياة العامة ، ولنا فهم أكثر من اللغتين الإنجليزية والإيطالية هناك ، غير أننا نود هنا أن نلاحظ أن المعرفة بها في كل هذه المناطق تكاد تكون قاصرة على الرجال ، فهم الذين يتعلمون ويقومون بالعلاقات في الحياة العامة .

(1) B. W. Andzeyewski, Speech and Writing Dichotomy as the Pattern of Multilingualism in the Somali Republic, in colloque sur le multilinguisme, Brazzaville (1962).

الفصل الخامس عشر

اتجاهات التغير في البنية والمعجم

١ - التغير في البنية :

عندما كتب سيويوه في القرن الثاني الهجري كتابه العمدة في النحو لاحظ الفعوى العظيم أن صوت الضاد من الأصوات الصعبة التي لا يسهل نطقها على غير البدو ، وتحدث عن نطق آخر لها أطلق عليه « الضاد الضعيفة » (١) . ولما زيد هنسا أن تفصل القول في كيفية النطق القديم للضاد البدوية ، فهذا لا يزال موضع خلاف بين الباحثين ، ولكن الضاد الضعيفة على كل حال ثمرة أثر من آثار الأساس اللغوي ، فاللغات التي سبقت العربية في الشام والعراق ومصر والمغرب لم تكن تعرف الضاد . كانت العراق حيث عاش سيويوه ملئاً لاختلاط من القوم يتحدث أكثرهم باللهجات الآرامية التي لا تعرف صوتاً اسمه الضاد . ولذا فقد نتج عن محاولتهم التاقصه النطق بالضاد ذلك الصوت الذي يطلق عليه سيويوه اسم الضاد الضعيفة .

وربما يتصور البعض في مصر أو في العراق أن هذه الضاد التي تنطق اليوم هي الضاد التي كان ينطقها امرؤ القيس أو زهير قبل الإسلام ، أو كمب بن زهير في صدر الإسلام ، أو الخليل بن أحمد في القرن الثاني للهجرة ، وهذا غير صحيح ، فالنطق العراقي الحالي للضاد يختلف مع الغاء خلطاً يجعل التلاميذ يخطئون في الكتابة

(١) الكتاب (ط بولاق ١٣١٧) ٢/٤٠٤

بين هذه تلك . وهذه الظاهرة ليست وليدة الساعة بل بزغت مع استقرار العربية في العراق ، وهناك عدد كبير من الرسائل أكثرها من العراق والمغرب يحاول مؤلفوها فيها التمييز بين الكلمتين ذات الضاد والأخرى ذات الطاء ، ولولا الخلط لما كانت هناك ضرورة لتأليف هذه الرسائل (١) .

لقد نفت الضاد والطاء في العراق في نطق واحد هو النطق الذي يسمعه أبناء مصر طاء ، أما في مصر فهناك تطور مواز ، فقد نفت الضاد والطاء في نطق واحد ، فنحن نقول اليوم كلمة (ظل) في العامية كما لو كانت بالضاد ولنا مزيد الآن تحديد زمن هذا الخلط ، وقصارى محاولتنا هنا أن نبين أن هذا النطق الذي يتصوره بعض أبناء مصر نطقاً قديماً للضاد ليس كذلك ، فهذا النطق الحديث يجعل من الضاد صوتاً مطبقاً مقابل للدال . ولكن سيديويه جعل المقابل المطبق للدال هو الطاء لا الضاد . وهنا وجه الخلاف بين القديم والحديث ، فالإطباق في اصطلاح علماء الأصوات العرب للقدماي والمماصرين اتخذ طرف اللسان وأفصاه وضماً مرتفعاً نحو الحنك الأعلى مع حدوث تقعر في وسط اللسان ولو طبقنا الفهم العلمي الدقيق لنصوص سيديويه على البحث الصوتي لخرجنا من هذا أن النطق للقديم لطاء (ط) هو ما يتطبق تماماً على النطق الحالي للضاد في مصر ، فالضاد في مصر تنطق مثل الدال ، اللهم إلا أن الضاد مطبقة والدال غير مطبقة ، وقديماً قال سيديويه « ولولا الإطباق لصارت الطاء دالا . . . » ولخرجت الضاد من الكلام لأنه ليس شيء في موضعها غيرها . لقد حدث إذن تطور في عدد من الأصوات ، لقد صعبت الضاد فتحوّلت إلى نطق جديد وتغير نطق الطاء .

-
- (١) رمضان عبد التواب : مشكلة الضاد وتراث الضاد والطاء ، في : مجلة المجمع العلمي العراقي (١٩٧١) وبه قائمة بهذه المؤلفات في الفرق بين الضاد والطاء .
(٢) الكتاب ٤٠٦/٢

وهناك قضية يثيرها كثير من الباحثين حول نطق القاف، وقد وصف سيوييه نطق هذا الصوت وصفاً بجملة من الأصوات التي يهتز الوتران الصوتيان اهتزازاً شديداً عند النطق بها، ويطلق على هذا النوع من الأصوات اسم : « الأصوات المجهورة » ، ولكن النطق الحالي لهذا الصوت في قراءتنا للمربية الفصحى لا يجعل الصوت مجهوراً ، أي أن الوترين الصوتيين لا يهتزان اهتزازاً يذكّر عند النطق بالقاف في نطقها التقليدي على مستوى الفصحى ، فكيف نتيج الاختلاف ؟ هل تطورت القاف من صوت مجهور إلى صوت غير مجهور ؟ وكيف كانت القاف القديمة ؟ يرى بعض اللغويين أن هذه القاف القديمة هي القاف البدوية أعني الجاف البدوية ، وليمد القارىء الكريم بسمعه إلى البدو يقول (هو جال لى وأنا جلت له) إن هذه الجاف مجهورة فعلاً وقد تكون هي القاف التي عرفها سيوييه . ويرفض بعض الباحثين هذا التفسير قائلين بأن القاف القديمة تشبه العين الحالية أى تشبه النطق العامى الحالي للقاف في السودان والكويت والخليج العربى (١) .

ويرى بعض الباحثين أن هذا الصوت هو الوريث الحقيقى للقاف القديمة .
إن ظوار التطور الصوتى كثيرة وحسبنا مع ضيق المكان ما ذكرناه .

كلمات جديدة :

أما التطور فى الكلمات فأبعد مدى وأكثر وضوحاً ، إن وزن فاعل ووزن مفعول والأوزان الأخرى هي هي ، لم يكدهم بطلاً عليها تغير فى البنية ، ولكن التغير فى هذه الأوزان يكمن فى بناء كلمات جديدة لم يكن يعرفها المجتمع البدوى القديم . ولنتظر نظرة بسيطة إلى مادة جمع فى « لسان العرب » مقارنين إياها بتفص

(١) حول الجانب الصوتى فى لهجة الكويت . انظر : عبدالعزيز مطر : خصائص اللهجة الكويتية ، الكويت فبراير ١٩٦٩ ، وقد ناقش الباحث هذه القضية ص : ٣ - ٣٥

المادة في معجم دوزى (١٩) ، والمعروف أن كل المادة التي في لسان العرب المؤلف في القرن السابع الهجرى قد أخذت من معاجم سبق تأليفها في مراحل سابقة ، وهذه المعاجم أخذت مادتها بدورها من الرسائل اللغوية التي أثمرت عنها حركة جمع اللغة في البادية في أواخر القرن الأول وعلى امتداد القرن الثاني وأوائل القرن الثالث . والاستفناء الوحيد هنا هو ما أخذه صاحب لسان العرب من معجم تهذيب اللغة للأزهري ؛ فقد سجل الأزهري بنفسه في القرن الرابع الهجرى مادة لغوية في البادية . إن مادة اللسان إذن مادة بدوية وجلها يرجع إلى القرن الثاني الهجرى ، فإذا تفعل الحضارة العربية الإسلامية والعلوم الناشئة والمجتمع الحضري في العراق والشام ومصر والمغرب والاندلس بهذا المعجم البدوي الذي يعرف للجعل أكثر من مائة اسم ، وماذا يفعل المفكر الاندلسي بمائة اسم الأسد .

لقد نشأت كلمات جديدة مع الضرورات الحضارية الجديدة ، ولولا هذه التجديدات لما عرفنا الحضارة العربية الإسلامية في أبعادها المأثورة . وعندما حاول المستشرقون الأوروبيون قراءة التراث العربي الإسلامي لم يسهفهم لسان العرب في الفهم الدقيق للكلمات وغال تفكيرهم ، وحاولوا بالمقارنة فهم السياق حتى عرفوا المقصود معرفة تصيب أحيانا وتجاهل الصواب أحيانا . وهنا ظهرت الحاجة إلى تأليف معجم مكمل للمعاجم العربية ، وقام المستشرق دوزى بعمل هذا المعجم . ومن الطريف هنا أن نقارن مادة من المواد في اللسان كمثل اللغة البادية بما جمعه دوزى كنموذج للكلمات التي استخدمت في عصر الحضارة العربية الإسلامية . وكى تكمل الصورة لننظر في المعجم القيم الذي ألفه عالم هندي جليل في القرن الثالث عشر الهجرى هو الشانوى . وهذا المعجم هو كشف اصطلاحات الفنون .

لقد أمدت البدوية بمجتمع الحضارة الإسلامية بالمواد اللغوية المختلفة ونعني بالمواد

هنا الحروف الأصول، وأمدت أيضا بعدد من القوالب أو الأوزان ولكنها لم
تسكن بحاجة إلى استخدام جميع الأوزان من كل كلمة، فثلا وزن انفعلم من المادة
جمع أى: انجمع. لم يرد في لسان العرب ولكنه استخدم في الاندلس الإسلامية.
يقول المقرئ: «انجمت عن على النفوس».

الأوزان: أفعال وأفعول أو أفعال أو أفعلى وغيرها من الأوزان النادرة لم
ترد أيضا من المادة (جمع)، ولكن القضية ليست فقط قضية وجود الكلمة،
فالكلمة كرمز صوتي لقيمة لها دون استخدام، والمعنى هو العنصر الثاني بدموجود
الرمز، فالرمز اللغوي لا يكون رمزا إلا إذا كان له معنى، وسنحاول فيما يأتي تتبع
تطور بعض اللفاظ التي تدخل في مادة (جمع).

لقد عرف لسان العرب كلمة (جمع) أنها نتيجة ضم شيء إلى شيء أو أنها
مرادف لكلمة جماعة من الناس، والجمع أيضا هم القوم المجتمعون، والجمع فوق
هذا وذاك: الاشتات من القر. ولكن العلوم العربية الإسلامية استخدمت كلمة
الجمع كاصطلاح، وكل علم عرف لهذا الاصطلاح معناه، يوضح هذا لنا كتاب
التهاوى كشاف اصطلاحات الفنون^(١)، فالجمع عند المحاسبين هو زيادة عدد إلى
عدد آخر: أى أننا إذا أضفنا ٦ + ١١ لكان هذا جمعا. ولو أضفناه ٥ + ١٠ = ١٥
لكان عنده تضييفا. ويذكر التهاوى أيضا الجمع عند علماء أصول الفقه: وهؤلاء
هم المهتمون بالقضايا المنهجية للفقه الإسلامى، فالجمع عندهم: «أن يجمع بين الأصل
والفرع لعله مشتركة بينهما ليصح القياس». وأما الجمع عند النحويين فله معانيه
وصوره المختلفة، ونفس المصطلح نجد أيضا عند البديعيين والصوفيين والمنطقيين
وغيرهم من أصحاب العلوم. وهكذا استخدمت الكلمة القديمة (جمع) استخداما
اصطلاحيا متنوعا.

(١) انظر مادة (جمع) في كشاف اصطلاحات الفنون (ط القاهرة ١٩٦٣)

ولتقف قليلا عند كلمة (الجامعة) ، فهذه الكلمة استخدمت كما يخبر لسان العرب - صفة للمؤنث واسماً ، فالسنة مثل قولهم (سورة جامعة) أى جمعت فيها أشياء كثيرة ، و (الجامعة) اسماً بمعنى الغل أو القيد ، وشتان بين هذا الاستخدام الحديث ، ونحن نعرف الجامعة اليوم تياراً سياسياً هو الجامعة الإسلامية ، ومنظمة دولية هي : الجامعة العربية ومعهد أكاديميا مثل جامعة القاهرة ومعهدنا عليا غير أكاديمي مثل الجامعة الشعبية .

أما كلمة (جماعة) فيبدو أن استخدامها أكثر وشاع بمعنى عهد جديد في عصر الحضارة الإسلامية . إن لسان العرب يعرف الكلمة ، فالجماعة عنده الجمع من الناس أو الشجر أو النبات ، ولكن إذا نظرنا في معجم دوزي لاحظنا أن معظم أمثله حول كلمة جماعة مأخوذة من مؤلفات الأندلسيين والمغاربة . ذكر دوزي في استخدام الكلمة : « مذهب السنة والجماعة » ، « أهل السنة والجماعة » ، « جماعة المسلمين » ، « أمر الجماعة » ، « افترق أمر الجماعة » ، « المستمسكون بالجماعة » . . . الخ . وواضح أن كلمة الجماعة تسمى هنا الصف الإسلامي (الموحد) . وكل هذا نقله دوزي عن المقرئ وابن خلدون وأبي حيان وغيرهم من المغاربة . ولنضكر قليلا في استخدامنا العامي لكلمة جماعة كناية عن الزوجة . . . لنلاحظ تغيرا في دلالة الكلمة .

وهناك عدد من الالفاظ لم تعرفها اللغة العربية حتى القرن الثاني إذا سلمنا أن لسان العرب قد قدم لنا صورة أمينة لها ، فكلمة (جمعية) لم يعرفها اللسان ونجدها لأول مرة في معجم دوزي ، وهو يذكر تحتها « جمعية أهل البلد » ، ولكنها تستخدم الكلمة اليوم استخداما اصطلاحياً شائماً فتتحدث عن الجمعية العمومية لإحدى الشركات المساهمة وعن الجمعية العامة للأمم المتحدة كمجموع الأعضاء المساهمين أو المشتركين ، وعن جمعية الاسعاف كنظمة خيرية ، وعن الجمعية التشريعية كجلس نيابي ، وعن الجمعية التعاونية ، وكذلك عن الجمعية الاستهلاكية . وهكذا ظهرت الكلمة واستخدمت وشاعت .

وشبهه بهذا القول في كلمة (اجتماع) فهذه الكلمة لم يعرفها اللسان وذكرها
 دوزي عن أبي القداء بمعنى اللقاء ، ثم أفراد لها التهانوي في وكشاف اصطلاحات
 الفنون ، عرضاً مسهباً ، وتحدث عن مفهوم الاجتماع ، عند المنجمين وعند
 علماء الكلام وكذلك عند النحاة ، فشكل علم مصطلحه . . وإذا قلنا اليوم كلمة
 الاجتماع ، تبادر إلى الذهن اجتماع مجموعة من الناس في مكان ما أو اجتماعهم
 على شيء . ، وربما تذكر البعض « علم الاجتماع » ، هذا العلم الجديد الذي
 استعان بالكلمة القديمة ليمس في العربية ، وربما خطر في ذهن أحد القراء
 وزارة الشؤون الاجتماعية . . فكلمة اجتماعية من اجتماعي ، والأخيرة من
 اجتماع ، وربما تذكرنا المساواة الاجتماعية أو العلاوة الاجتماعية — كل هذا
 من الكلمة التي لم تكن تعرفها لغة البدو حتى القرن الثاني ، وهل كان يجتمع
 البداوة أن يعرف العلاوة الاجتماعية أو علم الاجتماع أو اجتماع الساكنين
 عند النحاة !

ولعل من غير المتصور أن يتحدث اليوم مثقف عربي دون أن يستخدم كلمة
 (مجتمع) ، ولكن هذه الكلمة لم يعرفها اللسان ، وأقدم استخدام نعرفه لها هو
 ما سجله دوزي نقلاً عن الجغرافي الصقلي المشهور الإدريسي ، وربما كان الإدريسي
 أول من عرف هذه الكلمة التي أصبحت في العصر الحديث مصطلحاً هاماً .
 وشبهه بهذه كلمة (مجمع) ، يتحدث اليوم عن المجمع العلمي والمجمع اللغوي ،
 فهل عرفت لغة البداوة هذه الكلمة ؟ نعم لقد عرفت ولكن بمعنى المجمع
 من الناس ونقطة الالتقاء وموضع الاجتماع ، وهذه المعاني القديمة أصل
 للاستخدام الحديث .

وفوق هذا وذاك فنحن نعرف اليوم كلمة (المجموع) كاسم قائم برأسه وكذلك
 كلمة (المجموعة) كاسم آخر ، ولكن الكلمة عرفت قديماً ، فالمجموع في اللسان
 ما جمع من هنا وهناك وإن لم يجعل كالشيء الواحد ، ولكن كلمة المجموعة لم

تعرف قديماً كاسم قائم بذاته بل كصفة ، ولتقرأ أمثلة دوزى : « قرية بمجموعة
عامرة ، بليدة بمجموعة ، أى زاخرة بالسكان ، ولكن الكلمة تحولت اليوم في الاستخدام
الحديث إلى اسم قائم بذاته .

وأخيراً نذكر كلمة (تجمع) هذه الكلمة الشائعة في الاستخدام المعاصر والتي
لم تعرفها المعاجم القديمة ولا محاولات اشتكائها ، وكان هذه الكلمة صياغة
جديدة لمادة قديمة في شكل قديم . فإذا كانت المادة قديمة في العربية والأوزان
المختلفة قديمة أيضاً ، فإن الاستخدام اللغوي القديم لم يكن بحاجة إلى صياغة كل
الأوزان والمشتقات من هذه المادة . فالتطور الذي حدث يمكن في صياغة كلمة
جديدة من وزن معروف ومادة معروفة ، وهكذا تظهر من العنصرين كلمة جديدة ،
ويظهر التطور أيضاً في استخدام الكلمة القديمة لتؤدي دلالة جديدة أرادت
العلوم أو الحضارة التعبير عنها ، فوجدت في الكلمة القديمة إمكانية طيبة
طورتها بالاستعمال في المعنى الجديد فاكنتسته . وأصبحت لا تعرفها إلا في
الاستخدام الجديد .

تراكيب نعوية جديدة :

وفوق هذا وذاك فهناك ظواهر كثيرة نلاحظها في بناء الجملة العربية الحديثة ،
ولا تكاد تبدو شائعة في الضوابط التي استخرجها النحاة من لغة القرون الأولى .
فالجملة العربية الحديثة كما نعرفها في الكتابات والمؤلفات والصحافة تعرف تراكم
المصادر على نحو لم يعرف قديماً بنفس القدر من الانتشار . نقرأ اليوم عن احتمال
قيام حرب في منطقة ما ، والكيليات : احتمال ، وقيام ، وحرب ، كلها مصادر
أضيف سابقها إلى لاحقها ، ونسمع من الإذاعة على لسان أحد رجال الأمم
المتحدة : استحالة منع نشوب حرب بين مصر وإسرائيل ، والكيليات : استحالة ،
ومنع ، ونشوب ، وحرب ، كلها مصادر أضيف سابقها إلى لاحقها على نحو لم
تكن تعرفه اللغة القديمة على هذا النحو التراكمي . هذا وينبغي أن نذكر في هذا

الصدد أن دراسات النحاة العرب للغة إنما قامت على أساس لهجات بعض القبائل
وأمة الشعر العربي في القرن الثاني للهجرة ، ولم تضع هذه الدراسات نصوص النثر
العربي الذي ازدهر بعد هذا في بؤرة التحليل اللغوي ، ولذا فن الصعب الاعتماد
على كتب النحاة القدماء لتتعرف على طبيعة الأساليب التي عرفها النثر العربي
الإسلامي ، ونحن نلاحظ بعض الظواهر الموجودة في النثر فنلاحظ الشائع
الجديد في النثر ولا نراه في تلك المؤلفات التي قامت أساساً على دراسة لغة الشعر ،
فأحسبنا هذه تظل نسبية إلى أن يوضح البحث نسبة شيوع هذه الظواهر في
الشعر والنثر على نحو تاريخي وهذا هو ما يصبو إليه النحو التاريخي
لغة العربية .

يعرف النثر العربي الحديث اتجاهاً إلى فك حالة الإضافة باستخدام حرف
جر ، وهذه الظاهرة شائعة نمارسها ونفهمها ليل نهار ، فنحن نتحدث عن صورة
من الصور ونقول ، هذا منظر عام للواجهة الأمامية لجامعة القاهرة ، تفصيلاً
للمباراة الموجزة : منظر واجهة جامعة القاهرة ، ولتقارن الجملتين : ففي الثانية
كلمة منظر مضافة إلى واجهة ، وكلمة واجهة مضافة إلى جامعة . ولكن الجملة
الأولى عرفت فك حالة الإضافة مستخدمة بين المضاف والمضاف إليه حرف جر
هو اللام ، فبدلاً من « منظر واجهة ، نقول منظر لواجهة » ، وبدلاً من
« واجهة الجامعة » نقول الواجهة . . لجامعة . . . ولكن ينبغي أن نلاحظ هنا
أيضاً أن المضاف السابق في كل هذه الحالات قد وصف ثم جاءت اللام ثم المضاف
إليه السابق بعد ذلك . وعلى هذا فنحن نتحدث عن منظر عام — للواجهة
الأمامية — لجامعة القاهرة . وكذلك عن المدير العام — لإدارة البعثات ، وعن
المفوض العام — لشركة السيارات ، أو عن : المراسل الخاص — للأهرام أو :
الأمين العام — لجامعة الدول العربية . وفي كل هذه الحالات وصف المضاف
السابق ، وفككت حالة الإضافة باللام .

وإذا نظرنا إلى مزيد من الأمثلة الخاصة بفك حالة الإضافة باللام وجدنا أن
المضاف السابق يكون في كثير من الأحيان في حالة إضافة جديدة . نقول (منظمة
الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة) ، فالتعبير البسيط (منظمة التربية و . .)
قد فك بدخول اللام على المضاف إليه (التربية) وبدخول مضاف إليه جديد
مضاف إلى المضاف الأول ، فتحدثنا عن منظمة الأمم . . . ل . . . ، وعن وزير
الدولة ل . . . ، وعن سو . استعمال الحقي ل . . . ، وعن أول اجتماع ل . . . ،
وعن استلام الدولة ل . . . وهكذا نلاحظ أن ظاهرة فك حالة الإضافة باستخدام
اللام بين المضاف القديم والمضاف إليه القديم ارتبطت بتخصيص المضاف القديم
إما بالصفة أو بمضاف إليه جديد .

وإلى جانب هذا نلاحظ فك حالة الإضافة باستخدام حرف الجر : الباء ،
فنحن نقرأ عن قرار بتأميم الشركة ، أو تفويض بمقد الاتفاقية ، أو أمر بإنشاء ،
أو مشروع بتحويل رئيس الدولة . . . وهذه الظاهرة شائعة في النثر العربي الحديث .
ولا يكاد يعرفها الاستخدام القديم ، وعلى كل حال فظاهرة فك حالة الإضافة في العبرية
الحديثة وفي اللهجات العربية الحديثة ، ففي العبرية القديمة يكون المضاف
والمضاف إليه تركيباً واضح المعالم مثل (سيفر يوسف) أي سفر يوسف
ولكن التعبير الحديث (هيفر شل يوسف) أي الكتاب الذي ليوسف ، ولو
كننا أكثر دقة لترجمنا العبارة إلى العامية المصرية قائلين : الكتاب بتاع يوسف ،
لحالة الإضافة فكنت هنا وهناك في العبرية باستخدام (شل) كأداة للربط بين المضاف
والمضاف إليه السابقين ، وفي اللهجات العربية الحديثة باستخدام كلمة (بتاع) أو
(متاع) ، أو (حق) (١) ، فظاهرة فك حالة الإضافة موجودة إذن في مستويات

(١) في بعض اللهجات البدوية المعاصرة يقال : البيت حجج (جيم مصرية)
إبراهيم ، بمعنى : بيت إبراهيم .

لغوية حديثة مختلفة ، وكل مستوى يستخدم للفك أدواته الخاصة به، ولم تعد الظاهرة
أمرا نادرا أو خاصا بضرورة الشعر كما سجل النحاة القدماء .

وفوق هذا وذاك فقد طورت العربية الفصحى في استخدامها الحديث عدة
وسائل للتعبير عما يعبر عنه في علم اللغة بالتنكير . ومعروف أن العربية تعرف عدة
أنواع من المعارف ، وكان التنوين وما يزال يؤدي فيها وظيفة علامة للتنكير ولكن
الاستخدام الحديث يعرف أيضا استخدام كلمة (أحد) والواوثة (إحدى) مضافة
إلى ما بعدها للتعبير عن التنكير . نجد هذا في العبارات الآتية :

أحد الأمريكيين - أحد البيوت - أحد رجال الشرطة - أحد كبار الضباط
- إحدى السفن الحربية - إحدى المدارس - إحدى الصحف - إحدى
المقومات الأساسية، فكلمة أحد أو إحدى أضيفت إلى صيغة الجمع التالية، والتركيب
كله معناه معنى المفرد النكرة . وشبهه بهذا أيضا استخدام كلمة (ما) بعد المفرد
للتعبير عن كونه نكرة، وهذا التعبير له جذوره في القرآن الكريم : (مثلا ما)^(١)
ونجد شائعا في النثر العربي الحديث مثل : شيء ما ، وقت ما ، يوم ما ، اصطلاح
ما ، ... إلخ ، وهكذا عرفت اللغة العربية في العصر الحديث بالتنكير تعبيرات
مختلفة بأدوات طورتها لذلك وأخذتها لهذا من اللغة المتوارثة^(٢) .

٢ - نحو المفردات في العربية :

إن نظرة إلى جملة واحدة بسيطة في حديثنا اليومي أو أحد الكتب الحديثة أو
القديمة لتعطينا كلمات لها تاريخ ، ولكل كلمة في كل لغة تاريخ ، فالكلمة نحيا
وتستخدم وتغير وتموت . . والعربية تعرف كلمات ترجع إلى اللغة السامية الأم ،
وهذه ترجع إلى ما قبل منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، وهناك كلمات لا تعرفها

(١) البقرة ٢٥

(٢) الفهرست (ط فلوجل)

من اللغات السامية إلا العربية ، عرفتها بعد أن هاجرت الجماعات السامية الأخرى من عهد الساميين ، وهناك طائفة من المصطلحات استخدمت مع العلوم الإسلامية ، وفوق هذا وذاك فهناك طائفة من الألفاظ الأجنبية تعربت تهربا كاملا ، ولم نعد نحس اليوم أنها أجنبية ، بجانب طائفة ماتزال عجمتها واضحة أمامنا ، إن مستخدم اللغة لا يهتم بتاريخ الكلمة أو أصلها ، وكل ما يهمه هو أن يستطيع استخدامها ، فالتحدث ساعة استخدامه لغة لا ينظر إلى حياة كل كلمة ، بل يستعمل الرمز اللغوي لنقل السكر أو الأفعال إلى المتلقي أو للتنفيس عن عاطفة أو شعور . إن ماضي الكلمة وتاريخ اللغة أثر على يهتم به الباحثون . ولاغرابة ، فالإنسان يحتاج اللغة كما يحتاج هواء للتنفس ، ولكن معرفة طبيعة عملية التنفس وطبيعة مكونات الهواء أمران عليان يهمان الباحث كموضوع البحث ، ولا يهتم الإنسان العادي إلى بالممارسة العملية للغة والتنفس ، فدراسة حياة كل كلمة عمل علمي .

ولننظر في كتاب القهرست لابن التديم إلى العنوان البسيط التالي : « أسماء النقلة من اللغات إلى اللسان العربي » . لكل اسم من كلمات هذا العنوان في تاريخ اللغة قصة ، فكلمة (اسم) كلمة سامية قديمة نجدتها في صورة أو أخرى في كل اللغات السامية ، نجدتها في النقوش الأكادية المؤرخة في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد . فهذه الكلمة يزيد عمرها إذن عن خمسة وأربعين قرنا . وقد بحثت الكلمة في ضوء المنهج المقارن . ويرى معظم الباحثين أنها من أصل ثنائي هو السين والميم أو الشين والميم ثم تطورت بعد هذا في اتجاه الثلاثي ، والألف التي نراها في الخط العربي في هذه الكلمة هي ألف وصل تسقط في نطق الكلمة في السياق . والصيغة التي أمامنا من الكلمة هي صيغة جمع التكسير ، وجمع التكسير ظاهرة خاصة بالمجموعة الجنوبية من اللغات السامية ، أي أنه يوجد في الحبشية والعربية الجنوبية والعربية الشمالية ، ولا يوجد في اللغات السامية القديمة في العراق والشام .

والكلمة الثانية في هذه العبارة هي كلمة (نقلة) وهي من المادة العربية نقل ، وهذه تعيد النقل للمادى أي نقل شيء من مكان إلى آخر ، وتطور المعنى هنا إلى

النقل المعنوي ونقل الفكرة من لغة لأخرى . وهنا نؤرخ أن استخدام كلمة (ناقل — نقله) بمعنى (مترجم — مترجمين) قد عرف في القرن الرابع الهجري عندما ألف كتاب الفهرست لابن النديم ، والواقع أن دراسة تاريخ اللغة لا يتحقق إلا بدراسة النصوص وتحليلها وتصنيفها ، ثم يتبع الظاهرة صوتية كانت أو صرفية أو نحوية أو دلالية تقبها تاريخياً يحدد على نحو دقيق زمن ظهور الكلمة ومكان ظهورها وتطور دلالتها على مر التاريخ .

يذكر ابن النديم في هذا العنوان كلمة (اللغات) وكلمة (اللسان) ، ولا بد أن نقف قليلاً عند الكلمتين ، فالنكاهة الثانية (اللسان) كلمة ترجع إلى أقدم اللغات السامية ، هي من المعجم الأساسي المشترك في اللغات السامية حملتها الهجرة الأكادية معها ، فهي أقدم من منتصف الألف الثالث قبل الميلاد . ولو نظرنا إلى الكلمة في اللغات السامية الأخرى وجدناها في العبرية (لاشون) وفي الآرامية (لسانا) ، والكلمات الثلاث (لسان — لاشون — لسانا) كلمة واحدة من الناحية الاشتقاقية ، فالسين في العبرية يقابلها شين في العبرية والآرامية ، وهذا قانون صوتي ، والقوانين الصوتية مطردة لا تعرف الشذوذ . والحركة التي بعد السين في العبرية هي فتحة طويلة وفي العبرية نجد بعد الشين ضمة طويلة ، والواقع أن الفتحة الطويلة في العبرية يقابلها دائماً ضمة طويلة في اللغات السكنعانية ، والعبرية إحدى اللغات السكنعانية ، وهذا أيضاً قانوني صوتي مطرد . وإذا نظرنا بعد هذا إلى الكلمة الآرامية (لسانا) لاحظنا أنها بفتحة طويلة ، وقد كانت هذه الفتحة الطويلة أداة للتعريف ، فطورت العبرية لنفسها أداة هي (ال) تدخل في أول الكلمة وطورت الآرامية لنفسها فتحة طويلة تلحق بأخر الاسم لتفيد التعريف . الكلمات (لسان لاشون ، لسانا) كلمة واحدة اشتقاقياً وتفيد كل واحدة اللسان بالمعنى المادي (كجزء من الفم) ثم المعنى المعنوي أيضاً . فقد تحدثوا عن اللسان العربي أو اللسان الآرامي أو اللسان العبري .

لقد استمر استخدام كلمة اللسان بالمعنى الممتوى، قرونا طويلة، وعندما تأسست في القرن الماضي مدرسة للغات والترجمة أطلق عليها اسم «مدرسة الألسن»، وكان ناظر هذه المدرسة رفاة رافع الطمطاوى يستخدم في كتبه كلمة (لسان) مثلما نستخدم اليوم كلمة (لغة) فهو يتحدث عن اللسان العربى واللسان الفرنساوى واللسان اللاطينى... ونحن نتحدث اليوم عن الإنجليزى والألمانى والعربى والإيطالى، وهذا التعبير ظهر أولا كصفة وموصوف نجد في القرآن الكريم: (لسان عربى مبين) (١). ونجد عند ابن النديم في القرن الرابع الهجرى: «اللسان العربى، اللسان السريانى، اللسان اليونانى»، وعند ابن النديم نجد أيضا حذف الموصوف والاكتفاء بالصفة، أى: بالعربى - بالسريانى - باليونانى أو إلى العربى أو إلى السريانى أو إلى اليونانى، ومن هنا استقر التعبير الشائع عندنا والذي كان صفة لا مؤنث بل لمذكر هو اللسان.

أما كلمة (لغة) فترجع إلى أصل غير سامى، إنها من الكلمة اليونانية Logos ومعناها: كلمة، كلام، لغة. وقد دخلت الكلمة العربية في وقت مبكر، فاللغويون العرب جامعوا اللغة في القرن الثانى للهجرة تحدثوا عن لغات القبائل، وكثيرا ما وصفت الصيغة اللغوية التى اعتبروها ثانوية أو جانبية بأنها «لغة»، وقالوا مثلا إن كلمة شهد أو كبر فيها أربع لغات شهد، شهد، شهد، شهد، وكذلك كبر... فاللغات هنا هى الصيغ أو الأشكال الفرعية. ولكنهم تحدثوا أيضا عن اللغة بالمعنى الاصطلاحى الذى نعرفه اليوم لكلمة: كلام، قالوا: لغته فاسدة أو لغته جيدة، ثم تغيرت دلالة هذه الكلمة فى العربية إلى أن حلت شيئا فشيئا محل كلمة (لسان). إن الحديث عن تاريخ حياة أى كلمة تاريخ طويل؛ فالكلمة تعيش وتتفاعل، والمعنى هو حصيلة الملابس التى عاشتها الكلمة.

إن العربية لغة ذات قدرة بارعة في هضم الألفاظ الأجنبية وجعلها مثل الألفاظ الأصلية فيها ، فكلمة فيلسوف كلمة يونانية مركبة Philosoph و معناها الأول : حب الحكمة ، دخلت الكلمة العربية مع عدد كبير من ألفاظ الحضارة والثقافة اليونانية ، وعرفت العربية في عصر الحضارة الإسلامية ، ولكن العربية لم تستف باستخدام الكلمة بل كونت منها كلمات جديدة ، صاغت الفعل (تفلسف) وصاغت كلمة (فلسفة) وكلمة (المتفلسفة) ، وكل هذه الكلمات صيغت وفق الضوابط العربية من المادة الأجنبية . وقد دخلت معظم الألفاظ اليونانية إلى العربية عبر اللهجات الآرامية التي سادت الشام والعراق قبل الإسلام ، ولأسيما السريانية التي حملت ثقافة اليونان إلى العرب .

وبجانب هذا فهناك عدد كبير من الألفاظ الآرامية الدخيلة في العربية . إن حياة البادية القديمة لم تكن تعرف زراعة التفاح أو التوت أو الجوز أو الحمص أو الخوخ أو الرمان أو الفستق ، لم تعرف البادية هذه الثمار إلا عن طريق المناطق الوراعية في الشام والعراق وكانت هذه المناطق آرامية ، وعندما تعربت هذه المناطق احتفظت بهذه الكلمات للتعبير عن تلك السلع ، وهذه كلمات آرامية استقرت في العربية (١) .

وشبه بهذا كلمة (باب) لقد أخذت من الكلمة الآرامية (بابا) ، والالف الأخيرة أو بمعنى أدق الفتحة الطويلة الأخيرة علامة التعريف الآرامية ، ومعنى بابا ، الآرامية : شق ، فراغ ، خرق ، قطع ، قسم . وقد دخلت هذه الكلمة اللغة العربية بصيغتين ، باب وبابه (نقلا عن بابا) ولها في العربية نفس المعاني : فهذا باب البيت وهذا باب للخروج من المأزق ، وهذا باب في كتاب ، هذا وقد

(١) حول الألفاظ الآرامية الدخيلة في العربية

S. Fraenkel, Die aramäischen Fremdwörter im Arabischen, Leiden 1978.

استخدم ابن دانيال في خيال الظل مصطلح « بابه » ، لتمبير عن القسم أو الفصل .
إن الكلمات الآرامية الدخيلة في العربية كثيرة متنوعة ، وكثير من الألفاظ دخل
من اليونانية عبر الآرامية ، لذا فدراسة الآرامية تفسر لنا كثير من جوانب تاريخ
المفردات العربية .

كان شأن الألفاظ القبطية في مصر شديداً بالآرامية في الشام والعراق ، ولذا
فقد دخل المهجة العربية في مصر عدد كبير من الألفاظ القبطية ، فأسماء الشهور
القبطية توت وبابه يعرف كل فلاح في مصر ، كما يعرف كل فلاح سورى ايول
وحزيران وشباط ، فأسماء الشهور المتداولة في العراق والشام عرفها الآراميون
عموماً بنفس الشكل « والترتيب » ، كما عرفت مصر في العهد القبطي توت وبابه وهتور
وكيهك وبرمودة وبرمهات . وهناك ألفاظ قبطية كثيرة ما تزال تعرفها لغة الحديث
اليومى في مصر مثل : برسيم ، بقوطى ، بورى ، هوش ، هلوس ، هجص ، مياص ،
نوس ، شلوت ، واحة ، طاش ، ورور .

ويطول بنا القول لو تحدثنا عن كل العناصر الأجنبية التي دخلت الاستخدام
اللغوى في المجتمع العربى ، ولكننا نكتفى ببعض اللغات (١) . فالتركية كانت لغة
الطبقات الحاكمة إجتماعياً ، وأز هذا بأن دخلت بعض الألفاظ التركية إلى لغة
الحديث في العالم العربى ، فكلمة طفظ (طوز) معناها ملح أو تافه أو تراب وهى
تركية ، وكلمة طاسلاق ومعناها فعل : بسرعة ودون عناية ، دخلت العربية من
التركية فأصبحت في الحديث اليومى (طلا) وأصبح هذا الفعل متصرفاً مثل باقى
أفعال اللهجات العربية . ويعرف أبناء الشام كلمة (باش) كقول معنى بدأ ، والواقع

• ليس صحيحاً أنها (رومية) كما زعم المقدسى : أحسن التقاسيم ١٨٣
(١) انظر في موضوع الألفاظ الدخيلة في العربية : جرجى زيدان : تاريخ
اللغة العربية (القاهرة ١٩٠٤) .

أن هذه الكلمة من الأصل التركي : باشلامق بنفس المعنى ، وقد اختصرت الكلمة وحدث فيها قلب مكاني بأن تبادلت اللام والشين مكانهما على طريقة : أراب أنارب ، فأصبح (ب ش ل) — (ب ل ش) وقد استخدمت الكلمة كما يستخدم أى فعل في اللهجات العربية في الشام في مختلف اللهجات .

وهناك ألفاظ دخلت في شكلها التركي رغم كون بعض عناصرها من أصل عربي ، فنحن نعرف السلامك ، وهو مكان السلام في القصور حيث كان الجنود يصطفون لتحية الباشا ، والكلمة مركبة من كلمة سلام العربية والمقطع لك في التركية وهو يفيد المكانية ، فالسلامك مكان السلام ، والحرمك مكان الحرم ، والسلاحك مكان السلاح . وهناك ألفاظ صيغت في العهد التركي في مصر من عناصر فارسية ؛ فنحن نعرف (مدرسة المتديان) بالقاهرة ، وقد أسست في القرن الماضي حاملة هذا الاسم . وكلمة المتديان ذات نهاية فارسية خاصة بالجمع ، وعلى هذا فهو (مدرسة المتدينين) . ومازلنا نستخدم عبارة (كبير الياوران) ولا نزعج من استخدام الالف والنون في المضاف إليه ، وهذا لأن كلمة الياوران ليست إلا جمعا ، والجمع هنا بالنهاية الفارسية آن ، وقد كانت الفارسية لغة يعرفها المثقفون في الدولة العثمانية ، وكانت تدرس كلغة كلاسيكية في بعض معاهد العلم في مصر في القرن الماضي حتى دخول الإنجليز .

كانت التركية أيضا المعبر الذي انتقلت عليه ألفاظ أوربية مختلفة إلينا ، فنحن نعرف كلمة أبور واصلا كلمة Vapour فكيف تحولت الـ v إلى واو ؟ الواقع أن هذا يفسر عن طريق استخدام الترك للنخط للعربي ، فقد عبروا بحرف الواو عن صوت v في لغتهم ، فإذا أرادوا كتابة كلمة تركية أو أجنبية بها صوت v كتبوها باستخدام الواو ، وعلى هذا فقد كتبوا كلمة أبور هكذا ، ونطقوها كما لو كانت « فابور » ثم انتقلت الكلمة بصورتها المكتوبة إلى العربية فنطقت « و أبور » أو اعتقد المتحدث العربي آنذاك أن أصلها واو لم يستطع التركي نطقها . ومن ثم دخلت الكلمة العربية بالواو . وشبه هذا ما نراه في كتب القرن التاسع عشر عندما

يكتبون اسم (فينا) بالواو ، أى (وينا) ، وهذه الظاهرة تفسر لنا وجود بعض أسماء الاعلام في العربية ، لقد أخذ الترك عن العرب اسم (توحيد) ولكنهم نطقوا الواو كما لو كانت ف V ، ولم ينطقوا بصوت الحلق الحاء فهو لا يوجد في لغتهم ، لقد نطقوا كلمة توحيد كما لو كانت تفيده ، ومن هنا ظهر في العربية اسم جديد هو (تفيده) .

وهكذا عاشت العربية وتطورت بنيتها في تفاعل دائم مع طبيعة العلاقات الاجتماعية والاحتفارية والسياسية والدينية التي سادت في المجتمع العربي عبر التاريخ .